

دراسات قرآنية

٣

قَبَسٌ

ضُرُوءُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

مِنْ
سُورَةِ الْأَعْرَافِ، وَالْأَنْفَالِ
دراسة تحليلية موسعة لأهداف ومقاصد السورتين اللبريتين

بقلم

خادم الكتاب والسنة

الشيخ محمد علي الصابوني

الاستاذ بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

دار الفاء

دمشق

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

حقوق الطبع محفوظة

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع

رسم - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد الذي خصّه الله بالمعجزة الكبرى، والآية العظمى «القرآن الكريم» وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذا هو الكتاب الثالث في سلسلة «دراسات قرآنية» في ضوء السورتين الكريمتين «الأعراف، الأنفال» وهي دراسة موضوعية تحليلية هادفة، القصد منها تنوير القلوب والبصائر، بما تناوله الكتاب المعجز، الذي نزل على قلب خاتم المرسلين، بلسان عربي مبين.

وإننا إذ نشكر الله عزّ وجلّ أن وفّقنا لخدمة كتابه، لنبُرز ما فيه من روائع الحكّم والأحكام، ونُظهر أسرار إعجازه وبيانه، نسأله تعالى أن يمنّ علينا بالتيسير والتسهيل، لما قصدناه في هذه الدراسات القرآنية، التي تتناول المواضيع التي تعرضت لها السور الكريمة، ليستوعب الأخ المسلم فهم ما حوّته هذه السور المباركة من مقاصد وأهداف.

والله نسأل أن يرزقنا الصّدق والإخلاص، في القول والفعل والعمل، وأن ينفع بهذه الدراسات إخواننا المؤمنين، إنه خير مسؤول، وأعظم مأمول، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الشيخ محمد علي الصّابوني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْأَعْرَافِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّانَهَا مَائَتَانِ وَسِتُّ آيَاتٍ

«أهداف السورة الكريمة»

● سورة الأعراف من السور المكيّة الطويلة، وهي أول سورة عرضت للتفصيل في قصص الأنبياء الكرام، ومهمتها كسائر السور المكيّة، تقرير أصول الدعوة الإسلامية، من توحيد الله جلّ وعلا، والاعتقاد بالبعث والجزاء، وتقرير الوحي والنبوة.

● عرضت السورة الكريمة في مطلعها للقرآن العظيم «معجزة» محمد الخالدة، وآيته الباهرة، الدالة على نبوته وصدق عليه السلام، وقررت أن هذا القرآن هو النعمة العظمى من الرحمن للبشرية جمعاء، فعليهم أن يستمسكوا بتوجيهاته وإرشاداته، ليفوزوا بسعادة الدارين ﴿الْمَص. كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ، وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ، اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ، وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ، قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ﴾.

«تكريم الله للبشرية»

● ولفتت السورة أنظار الناس، إلى نعمة خلقهم من أب واحد، ليتعاونوا ولا يتخاصموا، وليستشعروا أنهم إخوة في الإنسانية، أبوهم

واحد، وطِيتُهُم واحدة، وَنَبَّهَتْ الآيَاتُ إِلَى تَكْرِيمِ اللَّهِ لِهَذَا النُّوعِ الْإِنْسَانِي، مِمثلاً فِي أَبِ الْبَشَرِ «آدَمَ» عَلَيْهِ السَّلَامُ، الَّذِي خَلَقَهُ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لَهُ، تَعْظِيماً لِقُدْرِهِ، وَتَنْبِيهاً لِفَضْلِهِ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ، فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ، لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾.

«التحذير من مكاييد الشيطان»

● وقد حذرت السورة من كيد الشيطان، ذلك العدو الماكر المتربّص بالإنسان، الذي قعد على طريق الناس، ليصدّهم عن الهدى، ويُبْعِدَهم عن خالقهم، ويُفْسِدَ عليهم طريق الاتصال بالله.. وقد ذكر تعالى في هذه السورة، قصة أبينا «آدم» مع إبليس مفصلة أتم تفصيل، بدءاً من خلقه، وأمر الملائكة بالسُّجُودِ لَهُ، وامتناع إبليس عن السُّجُودِ، إلى خروجه من الجنة، وهبوطه إلى الأرض مع حواء، وذلك كنموذج واضح، للصِّراع بين الخير والشر، والحق والباطل، وبيان لكيد إبليس لآدم وذريته، حتى نحذر شره ونتجنب مكره، فهو العدو اللدود للذرية آدم، ولهذا وجّه الله إلى أبناء آدم في هذه السورة الكريمة، أربع نداءات متتالية بصيغة ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ وهي نداءات خاصة بهذه السورة، لا نجدُها في غيرها من السور، وفيها يُحذِّرنا الباري جلّ وعلا من عدونا الأكبر «إبليس» الذي نشأ على عداوتنا من قديم الزمن، ليقعنا في المهالك والمعاطب، كما أوقع أبانا «آدم» في الخطيئة والزلة.. وإليكم هذه النداءات الأربع كالأخطار، متوالية في التحذير والإنذار.

«النداء الأول»

يقول تعالى في الامتنان على عباده، بما خلق لهم، وعلمهم من صنع ما يسترون به عوراتهم: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا، وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ، ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ فقد أشارت الآية إلى نوعين من اللباس: لباسٍ لستر العورات، ولباسٍ للزينة والجمال، وهو الذي عبّر عنه بالريش، لأنه كريش الطاووس به زينته وجماله، كما نبّهت إلى لباسٍ أعزّ وأرفع، وهو لباس الطاعة والتقوى، الذي يزيّن الإنسان به باطنه «وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ» فإن طهارة الباطن أهمُّ من جمال الظاهر، وقد أحسن من قال:

وَحَيْرٌ لِّبَاسِ الْمَرْءِ طَاعَةُ رَبِّهِ وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ كَانَ لِلَّهِ عَاصِيًا

«النداء الثاني»

أما النداء الثاني: فقد قال تعالى محذراً لنا من فتنة إبليس وإغرائه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ، يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا، إِنَّهُ يَرََاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ - أَيِ جَمَاعَتِهِ وَجَنده - مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ، إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

«النداء الثالث»

أما النداء الثالث: فيتمثل بالخشوع والخضوع في الصلاة، وأخذ الزينة عند الوقوف بين يدي أحكم الحاكمين ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ - أي صلاة أو طواف - وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا، إِنَّهُ

لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٤٠﴾

«النداء الرابع»

أما النداء الرابع: فقد دعانا فيه إلى التمسك بهُدَى الأنبياء، والاعتصام بالشرائع السماوية والأحكام ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي، فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٤١﴾.

* * *

● كما تعرضت السورة لمشهد من مشاهد الآخرة، مشهد الفِرَقِ الثلاثة وما يدور بينهم من محاوراة ومناظرة: «أهل الجنة، وأهل النار، وأصحاب الأعراف» وهذه الفرقة الثالثة لم يتحدث عنها القرآن إلا في هذه السورة، وهي الفرقة التي سميت السورة باسمها «سورة الأعراف».

مشهد مهول يشهده العالم يوم القيامة على الحقيقة، دون تمثيل ولا تخيل، يظهر فيه شماتة أهل الجنة بالمبطلين من أهل النار، وينطلق صوت علوي، يسجل عليهم اللعنة والطرده والحرمان ﴿فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٤٢﴾.

«قصص الأنبياء»

● وتناولت السورة الكريمة قصص بعض الأنبياء بإسهاب، قصة «نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى» عليهم من الله جميعاً أفضل الصلاة والسلام، وابتدأت بشيخ الأنبياء «نوح» عليه السلام، وذكرت ما لاقاه من قومه من طغيان وعناد، وتكذيب وإعراض، حتى

نصره الله، كما فصّلت قصة نبيّ الله «موسى» الكليم مع الطاغية فرعون اللعين.

● وختمت السورة الكريمة بإثبات عقيدة التوحيد، والتهكم بمن عبدوا من دون الله ما لا يضر ولا ينفع، ولا يُبصر ولا يسمع، من أوثان وأصنام اتخذها المشركون آلهة وعبدوها من دون الله، وهو تعالى وحده الذي خلقهم ورزقهم، ويعلم متقلبهم ومثواهم، وهكذا ختمت السورة الكريمة بالتوحيد كما بدأت بالتوحيد، فكانت الدعوة إلى الإيمان بالخالق المعبود في البدء والختام.

«القرآن المعجزة الكبرى»

تعرضت السورة الكريمة في مطلعها إلى الحديث عن «المعجزة الخالدة». معجزة محمد عليه السلام، التي ختم الله بها الرسالات السماوية^(١)، كما ختم بمحمد عليه الصلاة والسلام الوحي والنبوة، فكان خاتم الأنبياء والمرسلين وكان ختام مسك، وأمرته أن يبلغ الدعوة، ويؤدّي الأمانة على الوجه الكامل، دون أن يضيق ذرعاً بتبليغ رسالة الله، مهما ناله من المتاعب والمصاعب، فحسبه أنه منقذ للإنسانية من ضلالات أهل الجاهلية ﴿الْمَصْرَ . كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ - أَي لَا يَضُقْ صَدْرُكَ مِنْ تَبْلِيغِ آيَاتِهِ خَوْفًا مِنْ أَذَى الْفَجَارِ - لِنُذِيرٍ بِهِ وَذَكَرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم أمر تعالى الناس جميعاً، بالتمسك بما أنزله إليهم من الهدى

(١) القرآن أعظم معجزاته عليه الصلاة والسلام، وأما معجزاته فكثيرة لا حصر لها: منها نبع الماء من بين أصابعه الشريفة، وتكليم الجماد له، وتسبيح الحصى بين يديه، وانشقاق القمر... إلخ وكما قال القائل:

ومعجزاته كثيرة غرر منها كلام الله معجز البشر

والضياء، ربُّ العزة جلَّ وعلا، فإن هذا القرآن هو المنقذ لهم من ضلالات الشرك وظلمات العصيان ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ، وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ، قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ﴾.

«هلاك الأمم الطاغية»

وقد ضربَ الله الأمثال للنَّاس، بما حلَّ بالأمم الكافرة الطاغية من الهلاك والدمار، حين كذَّبت رسلَ الله، واستغاثتِهم حين شاهدوا العذاب، ولكنَّ هيهات أن ينفع الندم، حين ينزل بهم بأسُ الله ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ. فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ومعنى الآيات الكريمة: أي وكثيرٌ من الأمم الطاغية المكذِّبين لرسول الله، أهلكناهم بعذاب الاستئصال عقوبةً ونكالاً، فجاءهم عذابنا ليلاً أو وسط النهار أي وقت القيلولة^(١) فما كان دعائهم واستغاثتهم حين شاهدوا العذاب، إلا اعترافهم بظلمهم وإجرامهم، تحسراً وندامةً، ولكن بعد فوات الأوان، حين لا ينفع توبة ولا ندم.

ولإنما خصَّ تعالى مجيء البأس بهذين الوقتين: «في الليل» أو «في الظهيرة» لأنهما وقتان للسكون والراحة، فمجيء العذاب فيهما أشقُّ وأفظع، لأنه يكون على حين غفلةٍ من المهلكين.

«سؤال الرسل والأمم»

وبعد هذا العذاب العاجل في الدنيا، سيأتي السؤال والجواب في الآخرة، لأولئك الكفرة المعاندين، عما ارتكبوه من جرائم في حقِّ

(١) القيلولة: هي النوم في منتصف النهار، والقائلة: الظهيرة، وفي الحديث الشريف «قِيلُوا فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَا تَقِيلُ» أخرجه الطبراني وأبو نعيم.

الرسول، وحق الإنسانية، ليستمر عذابهم في الآخرة بعد أن ذاقوا عذاب الدنيا، كما سيسأل الله الرسول الكرام أنفسهم هل بلغوا دعوة الله؟ لتقوم الحجة على أولئك الفجرة المكذبين ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ - أي لنسألن الأمم - وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي ولنسألن الرسول هل بلغوا الرسالة؟ قال تعالى: ﴿ فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ أي فلنخبرنهم بما فعلوا في هذه الحياة الدنيا، عن علم ومعرفة منا بما حدث منهم وجرى، وما كنا غائبين عنهم حتى يخفى علينا شيء من أحوالهم.

فإن قيل: ما الفائدة في سؤال الرسول، مع العلم أنه لم يصدر منهم تقصير مطلقاً؟

فالجواب: أن المقصود من هذا السؤال «التقريع والتوبيخ» للكفار، ليظهر براءة الرسول من التقصير في تبليغ الدعوة، ولتقطع معاذير الكافرين، وليتضاعف إكرام الله تعالى في حق الرسول الأطهار، لظهور براءتهم من الإخلال بواجب الدعوة، وليتضاعف أسباب الخزي والإهانة في حق المعاندين المكذبين.

«وزن الأعمال يوم القيامة»

وإذا كانت عدالة الله تقتضي ألا يُظلم أحدٌ، لأنه سبحانه منزّه عن الظلم والجور، فلا بدّ إذاً من الحساب والجزاء، لينال المحسن فيه جزاء إحسانه، والمسيء جزاء إساءته، ولهذا جاءت الآيات بعده تُقرّر العدالة الإلهية بوضع ميزان الأعمال يوم القيامة ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾.

«كيف تُوزن الأعمال»؟

ولعل سائلاً يسأل: كيف توزن الأعمال وهي أعراض غير مجسّمة؟ والجواب أن الوزن إنما يكون لصحائف أعمال العباد، التي سُجّلت فيها أعمال بني آدم، فتوزن وزناً حقيقياً.

قال الإمام الشوكاني: وهذا هو الصحيح وهو الذي قامت عليه الأدلة، لحديث البطاقة^(١) وقيل: تُوزن نفس الأعمال، فهي وإن كانت أعراضاً إلا أن الله يقلبها يوم القيامة أجساماً وقيل: يوزن صاحب العمل كما صحَّ عنه ﷺ أنه قال: «يؤتى يوم القيامة بالرجل العظيم السمين، فيوضع في الميزان، فلا يزن عند الله جناح بعوضة»، قال واقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾.

ونقول: لا غرابة في وزن الأعمال، ووزن الحسنات والسيئات بالذات، فإذا كان العلم الحديث قد كشف لنا في هذا العصر، عن موازين للحرارة، والبرودة، ولقياس ضغط الدم، وموازين لضغط الهواء، وموازين لاتجاه الرياح والأمطار، وموازين لقياس حرارة البدن، أفيعجز القادر على كل شيء، عن وضع موازين لأعمال البشر؟ بلى إنه على كل شيء قدير، فلا ينبغي أن يجادل المؤمن في مثل هذه الأمور، بل يسلم إلى الحكيم الخبير.

(١) حديث البطاقة «إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كلُّ سجلٍّ مدُّ البصر، ثم يقول: أتُنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتني الحافظون؟... وفيه: فتخرج بطاقة فيها «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله...» الحديث رواه الترمذي، والحاكم، والبيهقي، وأحمد في المسند.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، ورواه ابن أبي حاتم بلفظ «يؤتى بالرجل الأكول، الشروب، العظيم، فيوزن بحبة فلا يزنها، وقرأ ﷺ «فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً».

«عداوة إبليس لبني آدم»

ثم تنتقل السورة لتحدثنا عن قصة أب البشرية آدم عليه السلام، فقد حذر الله جلَّتْ عظمته ذرية آدم من كيد عدوهم الأكبر «إبليس»، ونبَّههم إلى ضرورة الحذر منه، حيث نشأ على عداوتهم من قديم الزمن، فهو الذي أغرى أبانا «آدم» عليه السلام، بالأكل من الشجرة، حتى أوقعه في الزلَّة والمخالفة لأمر الله، وكان ذلك سبباً لخروجه من الجنة.

ولقد بدأت القصة في هذه السورة، بعرضٍ مسبقٍ لبدء الخليقة، وتكريم الله لهذا النوع الإنساني، ممثلاً في أب البشرية «آدم» عليه السلام، الذي خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته.

والتكريم للأصل تكريمٌ للذرية، والنعمة على الآباء نعمة على الأبناء، وفي هذا يقول القرآن الكريم ممتناً علينا بنعمة الخلق والإيجاد، والتكريم والإسجاد ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ^(١)، ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ، فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ. قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ؟ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾.

ولقد ذكر تعالى قصة آدم مع إبليس، في سبعة مواضع من القرآن الكريم: في «البقرة، والأعراف، والإسراء، والكهف، وفي سورة طه، وفي سورة ص». والغرض من هذا التكرير، تنبيهنا نحن البشر من هذا العدو الماكر، الذي قعد لنا بالمرصاد، ليغويننا ويصدنا عن صراط الله، الموصل إلى جنات النعيم.

«إبليس من الجن وليس من الملائكة»

وقد ذكرنا في سورة البقرة، أن «إبليس» عليه اللعنة لم يكن من

(١) أي خلقنا أصلكم - أبابكم آدم - طيناً غير مصوراً، ثم صورناه أبدع تصوير وأحسن تقويم، وإنما ذكر بلفظ الجمع ﴿خلقناكم ثم صورناكم﴾ تعظيماً له لأنه أبو البشر، =

الملائكة، وإنما كان مع الملائكة وفي صفّهم، حين أمروا بالسجود لآدم، وقد توجّه له أمر خاص من ربّ العزة جلّ وعلا، بأن يسجد لآدم مع الساجدين وإن لم يكن منهم، وهذا ما نهتينا إليه الآية الكريمة ﴿قَالَ مَامْنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ فلا حاجة إلى ما زعمه البعض، بأن إبليس كان من الملائكة، وإلا لما كُلف بالسجود لآدم، بدليل الاستثناء في الآية، الخ والجواب أن الاستثناء هنا منقطع ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ وهذا كثير في اللغة العربية، وله شواهد يضيق عن ذكرها المقام، ويكفينا قول الله الكبير المتعال، عن الملائكة الأطهار: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ فلو كان إبليس من الملائكة لما عصى أمر الله تعالى، وقد قال الإمام الحسن البصري - إمام المفسرين من التابعين - «لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين»^(١).

«استكبار إبليس عن السجود»

ولننظر بإمعانٍ إلى جواب الشقي «إبليس» اللعين، حين أمره ربه بالسجود لآدم، ماذا كان جوابه؟ وكيف ردّ على ربه؟ ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ، خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ ظنّ الغبيّ الشقي أن «النار» أفضل من الطين، فلذلك امتنع عن تنفيذ أمر الله، ونظر إلى أصل العنصر، ولم ينظر إلى التشريف والتعظيم، الذي خصّ الله به آدم، حيث خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وخصّه بعلم الأسماء، الذي عجزت عنه الملائكة، وما درى اللعين أن عصيان أمر الله لا يحدث من عاقل، وأنه

= وصيغة الجمع تكون أحياناً بقصد التعظيم كما تقول لشخص تخاطبه: السلام عليكم، وهو واحد.

(١) انظر الأدلة الخمسة على أن إبليس من الجن، في الجزء الأول من كتابنا هذا «قبس من نور القرآن الكريم» ص ٢٠ وكتابنا «النبوة والأنبياء» فقد فصلنا فيه الموضوع أحسن تفصيل.

منتهى السَّفه والحماقة، إذ لو كان عاقلاً لسارع إلى امثال أمر الله، كما فعلت الملائكة الأطهار، وقد بيّن تعالى لنا في هذه السورة، أنه عَامِل إبليس اللعين بنقيض قصده، حيث كان قصده التعاضم والتكبر، فأخرجه الله صاغراً حقيراً ذليلاً، متصفاً بنقيض ما كان يحاوله من العلوّ والعظمة ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾.

«حسدٌ وكبرٌ من الشيطان»

وفي هذا درسٌ لنا وتعليم من الملكِ العليم، أن من أظهر الاستكبار، ألبسه الله الذلُّ والصغار، ومن تواضع لله رفعه، ومن تكبر على الله وضعه، والله درُّ القائل حيث يقول:

تَوَاضَعْ تَكُنْ كَالْبَذْرِ تَبْصُرُ وَجْهَهُ عَلَى صَفَحَاتِ الْمَاءِ وَهُوَ رَفِيعٌ
وَلَا تَكْ كَالدُّخَانِ يَغْلُو بِنَفْسِهِ إِلَى طَبَقَاتِ الْجَوْ وَهُوَ وَضِيعٌ

ثم تتابعت الآيات توضح للناس، أن اللعين إبليس لما طرد من رحمة الله، بسبب امتناعه عن السجود لآدم، وتكبره عن تنفيذ أمر ربه، زاده ذلك حسداً وبغضاً لآدم وذريته، فأقسم بجلال الله وعظمته، على أن يُطغي أهل الأرض جميعاً، ويُبعدهم عن ربهم، لأنه خسر وشقي بسببهم ﴿قَالَ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي بسبب إغوائك وإضلالك لي، لأقعدن لآدم وذريته على طريق الحق، وسبيل النجاة الموصل للجنة، كما يقعد قُطَاع الطريق على معابر التجار والمسافرين ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ، وَمِنْ خَلْفِهِمْ، وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ، وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ أي آتاهم من جميع الجهات لأصدهم عن سبيلك ودينك، وقد جاءه الجواب صريحاً بيناً مقطوعاً ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْهُومًا مَدْحُورًا، لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ

جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٠﴾

اللَّهُمَّ اجعلنا من حزبك وجندك، ولا تجعلنا من أنصار إبليس اللعين، ونجنا من وسوسته وشره يا رب العالمين. !

«تحذير لآدم من كيد إبليس»

وبعد أن أفاضت الآيات في ذكر مكر إبليس وكيدِه وحسده لآدم وتكبره عن السجود له، وتربصه بالبشر لفتنتهم وإغوائهم، وما تبع ذلك من لعنة الله له، وطرده من الجنة، جاءت الآيات هنا لتحذّر «آدم وحواء» من ذلك العدو الماكر، الذي لا يُثنيه عن تنفيذ مخططاته وعظّ ولا إرشاد، ولا أمر ولا نهْي، فهو الذي قعد على طريق الخير، ليصدّ الناس عن طاعة الله، وهو الذي شقي بسبب آدم، فكيف لا يكيد له المكاييد ليوقعه في المهالك؟ وقد أباح الله لآدم وزوجته حواء، الاستمتاع بكل ما في الجنة من فواكه وثمار، بعد أن طُرد منها إبليس، إلا شجرة واحدة، منعه تعالى عن الأكل منها، ابتلاءً وامتحاناً، ولم يذكر القرآن الكريم اسم هذه الشجرة، لأن الغرض من ذكر القصة هي «العظة» و«العبرة» لا مجرد سرد الأخبار، ولهذا أغفل ذكرها القرآن، ومع هذا التحذير فلم ينج آدم وحواء من كيد الشيطان، فقد حسدهما على بقائهما في الجنة بجوار الرحمن، وسعى لهما في الوسوسة والمكر والخديعة، وفي ذلك يقول ربُّنا تقدّستُ أسماؤه: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ، فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا، وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ. فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِهِمَا﴾ أي ليظهر لهما ما كان مستوراً من العورات التي يقبح كشفها ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾.

«خداع إبليس لآدم وحواء»

ولم يكتف اللعين بذلك، حتى حلف لهما بجلال الله وعظمته، أنه لا يريد لهما إلا الخير والنصيحة، وأنهما إذا أكلا من الشجرة خُلداً في جنة النعيم، وصارا مثل الملائكة المُقَرَّبِينَ ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾.

وهذه أول مكاييد إبليس لأبينا آدم، وأول خديعة خُدِعَ بها آدم وحواء، وفي ذلك عظةٌ وعبرةٌ للبشر، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «غُرِّهما باليمين، وكان آدم يظنُّ أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً، فغُرِّهما بوسوسته»^(١) وقد يُخدع المؤمن بالله، لطيب قلبه، وسلامة نيته، روي أن ابن عمر رضي الله عنهما كان إذا رأى من بعض عبيده طاعةً وصلاحاً، وحسن صلاةً وعبادة، أعتقه لوجه الله، فكان عبيده يفعلون ذلك طلباً للعتق، ف قيل له: إنهم يخدعونك، فقال: «من خَدَعَنَا بالله انخدعنا له»^(٢).

إِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا تَشَاءَ خَدَعْتَهُ وَتَرَى اللَّئِيمَ مُجَرَّباً لَا يُخَدَعُ
وهكذا كان الأمر بالنسبة لآدم عليه السلام، خُدِعَ بقسم إبليس فظنَّ منه الصُّدُقَ في اليمين، ودفعه حبُّ الخلود في الجنان، وفي ذلك النعيم، إلى الأكل من الشجرة، قال تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ. فَذَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ، فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا، وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ أي فلما أكلا من الشجرة ظهرت لهما عوراتهما، فجعلا يقطعان من ورق الجنة، ويلصقانه على عوراتهما ليستترا به، بعد أن كانت كسوتهما من حُلل الجنة ﴿وَنَادَاهُمَا

(١) انظر تفسير الطبري وتفسير الحافظ ابن كثير، وكتابنا «صفوة التفاسير» ٤٣٩/١.

(٢) انظر تفسير «غرائب القرآن ورغائب الفرقان» للنيسابوري.

رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ، وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠﴾ .

وهذا درس آخر من كيد إبليس ومكره، ذكره لنا القرآن لنحذر من شره وخبثه، والعاقل من اتَّعَظَ بغيره.

«ندم وتوبة واعتراف بالذنب»

هناك شَعَرِ آدَمَ وحواء بالخطيئة والزلة، فندما على ما حدث منهما، وتابا وأتابا إلى الله ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ .

وهذا درس ثالث لذرية آدَمَ، ألا يقنطوا من رحمة الله، إن وقعت منهم معصية، أو ظلم وعدوان، فإن الله يغفر الذنب ويقبل التَّوْبَ، وعلى العبد أن يتوب إلى ربه، اقتداءً بأبي البشر «آدم وحواء» فقد أرشدهما الله إلى طريق التخلص من الذنوب والأوزار، كما قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ وقد اتفق المفسرون على أن الكلمات التي أوحاها الله إلى آدَمَ، هي هذه الدعوات والكلمات التي ذُكرت في هذه السورة، سورة الأعراف، وهي ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ .

«مخاطبة الله لآدم»

رُوي في بعض الآثار أن آدَمَ لما أكل من الشجرة قال له ربه: يا آدَمُ ألم يكن لك فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة؟ فقال: بلى وعزتك يارب!! ولكن ما ظننت أن أحداً من خلقك يحلف بك كاذباً! فقال له ربه: «فوعِزَّتِي لأهبطنك إلى الأرض، ثم لا تنال

العيش فيها إلا كدًّا» أي بتعب ومشقة^(١) فذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ، قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ، وَفِيهَا تَمُوتُونَ، وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ وهذه الآية تدل على أن سبب التعب والشقاء، الذي يناله الإنسان، إنما هو العصيان، وطاعة الشيطان، وقد حذرنا الله من مكروه في آيات عديدة منها قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا، إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(٢).

«لباس التقوى خير لباس»

وبعد أن ذكر تعالى في الآيات السابقة، المسالك التي سلكها الشيطان في إغواء أبينا آدم وزوجه حواء، حتى أكلا من الشجرة، وأخرجا من الجنة وبدت منهما العورات، ذكر تعالى ما امتنَّ به على ذرية آدم، من الرياش واللباس، والمتاع، ممَّا يتزيَّنون به ويسترون عوراتهم، ولم يتركهم كالبهائم السارحة، لا شيء يزيَّنهما أو يخفي عوراتها وقبائحها، بل أكرمهم بأنواع اللباس الذي خلقه لهم، وعلمهم صنعه فقال سبحانه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوَاتِيَكُمْ وَرِيشًا، وَلِبَاسَ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ، ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ والمعنى قد خلقنا لكم يا أبناء آدم لباسين: لباساً يستر عوراتكم التي أظهرها إبليس من أبويكم، ولباساً يزيِّنكم ويَجْمَلُكم، ويُضفي عليكم حلل البهاء والجمال، وهو الذي عبَّر عنه القرآن بالريش، وهو لباس الزينة، الذي يتجمل به الإنسان، مستعاراً من ريش الطاووس الذي هو زينتته

(١) انظر تفسير النيسابوري وتفسير ابن جرير، وتفسير الحافظ ابن كثير ١١/٢ من المختصر.

(٢) سورة فاطر آية رقم ٥/٥.

ولباسه، ثم نبّه تعالى إلى ما هو أسمى وأكمل من اللباس الظاهر، الذي يستر العورات، ألا وهو «لباس التقوى» لباس الورع واتقاء معاصي الله، فذلك خير لباس وأجمل زينة ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ فلا خير في الإنسان إذا لم يكن متسربلاً بالتقوى والخشية من الله، فطهارة الباطن أهم من جمال الظاهر، والتحلي بالفضائل والأخلاق، خير من التحلي بالملابس، والثياب، والحلل الزاهية، وقد أحسن القائل حين قال:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَلْبَسْ ثِيَابًا مِنَ التَّقَى تَقَلَّبَ «عُرْيَانًا» وَإِنْ كَانَ كَاسِيًا
وَحَيْرٌ لِبَاسِ الْمَرْءِ «طَاعَةُ رَبِّهِ» وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ كَانَ لِلَّهِ عَاصِيًا

«تكرير النداء لبني آدم»

ثم كرّر تعالى النداء لبني آدم، تحذيراً لهم من مكائد ووساوس الشيطان، لئلا يُخدعوا به ويغترون بنصائحه، فهو عدو باطن، يتقمص ثوب الصديق، وتعلّب مكار يتظاهر بالوفاء، والنصيحة والإخاء، وفي ذلك يقول القرآن الكريم ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ، يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاتِهِمَا، إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ، إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فقد وضحت هذه الآية الكريمة، أن الشيطان أخطر عدو للإنسان، يزيّن له القبيح والسوء، ويغويه بالشر والفساد، بطريق الوسوسة والإيحاء، يرى بني آدم من حيث لا يرونه، ومن كان بهذه المثابة كان عظيم الكيد، وكان جديراً بأن يُحترس منه أبلغ احتراس، ومعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ أي يراكم هو وجنوده وأعوانه وأنصاره، من حيث لا ترونه أنتم، فهو لكم بالمرصاد، فاحذروا كيده ومكره.

«هدفٌ خبيثٌ من وراء كشف العورات»

ولنقف قليلاً عند هذه الآية عند قوله تعالى: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاتِهِمَا﴾ ولنتمعن فيها لنرى هدف «إبليس» اللعين من وراء كشف العورات، فإنه هدفٌ واضحٌ جليٌّ، يجري وراءه بكل ما أوتي من قوة، إنه يريد أن يُعرِّينا من الملابس، ليهتك عنا ستر الحياء، ويوقعنا في الفحشاء، وقد سمى العرب العورة «سَوَاةً» لأن العاقل يسوءه كشفها، فهو عملٌ مزرٍ مخلٌ بالمروءة والشرف، فمن دعا إلى التعري، وبخاصةٍ تعري النساء - وشجّع على ذلك، كما هو حال من يزعم التقدمية في زماننا، من بعض دعاة السوء، يدعون المرأة المسلمة إلى نزع الحجاب، وإلى الكشف والتعري، بدعوى الحرية والمساواة بين الجنسين، فإنما هو عدوٌ للمرأة، ومن أعوان وأنصار الشيطان، لأن الهدف واحد، وهي دعوة سافرةٌ مكشوفة، غايتها التفسخ والانحلال الخلقي، الذي يهدم الأسر والبيوت، ويلحق الإنسان بالحيوان، فالحيوان خُلِقَ عارياً وبقي عارياً، وقد كَرَّمَ الله الإنسان باللباس، الذي هو سترٌ لعورة الرجل والمرأة، وإخفاء لقبايح الجسد، وليست «التقدمية» بالكشف، والتعري، والتشبه بالحيوان الذي لا يسترُ جسده شيء، ولكنها بصيانة الشرف والعفاف، والله در القائل حيث يقول:

يَا ابْنَتِي إِنْ أَرَدْتَ آيَةَ حُسْنٍ وَجَمَالاً يَزِينُ جِسْمًا وَعَقْلاً
فَانْبِذِي عَادَةَ «التَّبَرُّجِ» نَبْذاً فَجَمَالُ «النَّفُوسِ» أَسْمَى وَأَعْلَى
يَصْنَعُ الصَّانِعُونَ وَرَدّاً وَلَكِنْ وَرْدَةُ «الرَّوْضِ» لَا تُضَارِعُ شَكْلاً

وصدق الله العظيم ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاتِهِمَا﴾ هذا هو هدف الشيطان، وأعوان الشيطان، من دُعاة التحرُّر والإباحية.

«طواف المشركين حول البيت عرة»

وبمناسبة ذكر السوءات والعورات، فقد جاءت الآيات، تذكر لنا بعض الأخبار العجيبة، التي كان عليها أجدادنا العرب، والتي دخل عليهم بها الشيطان، بطريق الوسوسة والتزيين لقبيح الأفعال، فقد جاءهم إبليس اللعين، بصفة الناصح الأمين، وَجَدَهُمْ يَطُوفُونَ حَوْلَ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ، بملابسهم التي اعتادوها، فأراد أن يُفسد عليهم عبادتهم وطوافهم، فقال لهم: كيف تطوفون في ثياب عصيتم فيها ربكم؟ اخلعوا هذه الثياب وطوفوا لربكم عُرَةً، لتكون عبادتكم أقرب إلى القبول، فاستجابوا لنصحه وإرشاده، فخلعوا عن أجسامهم الثياب، فكان الرجال يطوفون بالنهار عُرَةً، كما ولدتهم أمهاتهم، ينظر بعضهم إلى عورة بعض، والنساء يطفن بالليل عَرَايَا، لا يستر أجسادهنَّ شيء، وتضع الواحدة يديها على فرجها وتقول:

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ فَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ

وقد قصَّ علينا القرآن الكريم هذا الخبر المدهش العجيب، وكيف تلاعب الشيطان بعقول أجدادنا، باسم العبادة والدين، فقال عزَّ شأنه: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا، قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟.

وقد اتفق المفسرون على أن المراد بالفاحشة في الآية هي الطواف حول البيت عرة، قال ابن عباس فيما رواه عنه مسلم والنسائي «كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عُرْيَانَةٌ فتقول: من يُعيرني تَطَوُّافاً - أي شيئاً من الثياب - تجعله على فرجها وتقول:

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ . فَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ»^(١)

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، والنسائي في سننه، وانظر صفوة التفاسير ٤٤٣/١.

«حجة المشركين الفاسدة»

احتج المشركون على ذلك الفعل القبيح بأمرين: أولهما: التقليد للآباء، والثاني: الافتراء على الله عز وجل، في أنه أمرهم بخلع الثياب والتجرد منها عند إرادة الطواف ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا، وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ وقد ردَّ الله عليهم هذا الافتراء والبهتان بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ؟﴾.

أي هذا محض كذبٍ وافتراء على الله عز وجل، فإن الله منزَّه عن النقص، لا يأمر عباده بقبائح الأفعال، فكيف تكذبون عليه، وتنسبون إليه القبيح، دون علم قاطع أو نظر ساطع؟

وهكذا زَيَّن لهم الشيطان أعمالهم، فصَدَّهم عن السبيل فهم لا يهتدون! . نسأله تعالى أن يجنبنا مزالق الشيطان ووساوسه، وأن يحفظنا من مكروهه وكيدِهِ، ويصرف عنا السوء والفحشاء.

«أخذ الزينة عند كل صلاة»

وبعد أن ذكر تعالى قصة آدم عليه السلام، وما وسوس له به الشيطان، وذكر ما امتنَّ به على بنيه، وما أنعم به عليهم من اللباس الذي يستر العورات، ويخفي القبائح...

أمر سبحانه بعد ذلك بأخذ الزينة والتجمل في المناسبات، وفي الأعياد والجماعات، فقال عزَّ شأنه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾.

والمراد بالمسجد في الآية ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي عند كل صلاة أو طواف، أطلق المكان تعظيماً له، لأن المسجد مكان أداء الصلاة، والمسجد الحرام «مكان الطَّواف» حول البيت العتيق، وقد كانوا في

الجاهلية يخلعون ملابسهم حين يريدون الطواف، ويقولون: لا نطوف بثياب عصينا فيها الله، فأمرهم تعالى بأخذ الزينة عند إرادتهم للصلاة أو الطواف، تعظيماً لشعائر الله.

قال طاووس: «لم يأمرهم بالحرير والديباج، وإنما أمرهم بستر العورات، ولبس ما يليق في حضرة الله، وكان أحدهم يطوف عرياناً ويدع ثيابه وراء المسجد، وإن طاف وعليه ثياب، ضُرب وانتزعت منه، لأنهم قالوا: لا نطوف في ثياب أذنبتنا فيها»^(١).

وقد أرشدت الآية الكريمة إلى أمر آخر، ألا وهو ترك الإسراف في الطعام، والشراب، واللباس، وسائر الأمور فقال سبحانه: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ولعمري الحق إن هذه الآية جمعت فأوعت، فقد دعت إلى الأخذ من لذائذ الحياة، من مأكلي، ومشرب، وملبس، وأمرت بالاعتدال في كل أمر من الأمور، التي يحتاج إليها الإنسان، فالآية إذاً أصل من أصول التربية السليمة، التي تتوقف عليها سلامة الإنسان، وسلامة الأبدان، كما أنها قاعدة من أهم القواعد الصحية التي ينصح بها الأطباء.

«قصة الطبيب النصراني»

يُحكى أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق، فقال ذلك الطبيب لأحد علماء المسلمين: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، والعلم علمان: علم الأبدان، وعلم الأديان!! فقال له الشيخ العالم: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه، قال: وما هي؟ قال قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾.

(١) انظر تفسير «جامع البيان» للإمام ابن جرير الطبري، وتفسير النيسابوري.

فقال النصراني: ولا يؤثر عن رسولكم شيء في الطب! فقال له العالم: قد جمع رسولنا الطب في ألفاظ يسيرة، قال: وما هي؟ قال قوله ﷺ: «مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وَعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ، بِحَسَبِ ابْنِ آدَمَ لَقِيمَاتٍ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مُحَالَةَ فَاعْلَاءً، فَثُلُثٌ لَطْعَامِهِ، وَثُلُثٌ لَشْرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفْسِهِ»^(١) فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً.

«الإسلام دين الحياة»

والإسلام دين واقعي، لم يكلف الناس أن يترهبوا، أو أن ينقطعوا عن شهوات الحياة، بل دعا إلى إعطاء حق الجسد، كما دعا إلى إعطاء حق الروح، ووفق بين متطلبات الدنيا، ومتطلبات الآخرة، فأمرنا بأن نعمل لدنيانا وآخرتنا مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ ودعانا إلا الاستمتاع بجميع أنواع الزينة، من الملابس، والمراكب، والحلي، وكل ما يستلذ ويستطاب، من المآكل والمشارب، والطيب والنساء، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ؟ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وقد نزلت الآية رداً على المتنطعين، الذين أرادوا أن يترهبوا، وينقطعوا عن شهوات الحياة، فنزلت تقول لهم: من حرم عليكم التجميل بالثياب التي خلقها الله لنفعمكم؟ والمستلذات من المآكل والمشارب؟ قل لهم يا محمد: إن هذه الزينة والطيبات إنما خلقها الله للمؤمنين - فهم وإن شاركهم فيها الكفار في الدنيا - فستكون خالصة لهم يوم

(١) أخرجه الترمذي في الزهد وقال: حديث حسن صحيح، ورواه ابن حبان وابن ماجه والحاكم، وقد ذكر هذه القصة القاسمي في تفسيره «محاسن التأويل» ٢٦٦٤.

القيامة، لا يشاركون فيها أحد، لأن الله تعالى حرّم الجنة على الكافرين.

«قصة سلمان وأبي الدرداء»

روي أن النبي ﷺ آخى بين «سلمان الفارسي» و«أبي الدرداء» فزار سلمان أخاه في الله أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء مبتدلة - أي تلبس ثياب المهنة تاركة ثياب الزينة - فقال: ما شأنك؟ قالت: أخوك «أبو الدرداء» لا حاجة له في الدنيا، يصوم النهار ويقوم الليل، فجاء أبو الدرداء فلما رآه فرح به وصنع له طعاماً وقدمه بين يديه وقال له: كُلْ فإنني صائم، فقال له سلمان: ما أنا بآكلٍ حتى تأكل، فأفطر وأكل معه، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم الليل، فقال له سلمان: نم الآن، فنام، ثم ذهب ليقوم فيصلي الليل، فقال له: نم، فلما كان آخر الليل قال سلمان لأبي الدرداء: قُمْ الآن لنصلي، فصلّياً جميعاً، فقال له سلمان: «إن لربك عليك حقاً، وإن لنفسك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً، فأعطِ كل ذي حقٍّ حقه» فأثنى أبو الدرداء النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال عليه الصلاة والسلام: صدق سلمان^(١).

«الأمور التي حرّمها الله تعالى على عباده»

وبعد هذا البيان الساطع الواضح، جاءت الآيات لتبين الأشياء المحرّمة التي حرّمها الله على عباده، وحصرها في خمسة أنواع وهي العدوان على «العفة، أو العقل، أو النفس، أو المال، أو الدين» فقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ، وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، وذكره الإمام النووي في كتابه «رياض الصالحين» ص ٨٠ من حديث أبي جحيفة وهب بن عبد الله رضي الله عنه.

سُلْطَانًا، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَالًا تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ وهذه الأشياء هي التي تُسَمَّى بالكَلِيَّات الخمس، التي حرَّمتها جميع الأديان، فالجناية على الفروج حرام وقد أشار إليها بالفواحش، والجناية على العقل حرام، وقد ذكر منها شرب الخمر، وأشار إليها بالإثم، والجناية على النفوس والأموال والأعراض أشار إليها بالبغي، والجناية على الدين أشار إليها بالإشراك بالله بدون برهان، وهكذا جمعت هذه الآية الكريمة أصول المحرَّمات، التي حرَّمتها الشرائع السماوية، وفي مقدمتها شريعة الإسلام، حفاظاً على كرامة الإنسان.

«بعثة الرسل لهداية البشرية»

وبعد أن بيَّن تعالى القبائح والمنكرات التي حرَّمها على عباده، وبيَّن ما أحلَّ لهم من اللذائذ والطيبات، ذكر بعدها أن الناس أمام هداية الله، وتكليفه وتشريع، فريقان: مهتدٍ، وضال، أو مؤمنٌ، وكافر، فمن استمسك بشرع الله، ودينه القويم، وقَبِل دعوة الرسل الكرام، فاستنار قلبه، واستضاء لبُّه بنور الهداية والإيمان، فهو التقيُّ السعيد، الناجي من أهوال يوم القيامة، الذي لا يلقي فرعاً ولا هولاً، ولا يناله شدةٌ ولا كرب، لأنه أخذ بأسباب النجاة.. ومن أعرض عن هداية الله، ورفض دعوة الرسل الكرام، فهو الخاسر الشقي، الذي خسر سعادته، وعرض نفسه للعذاب والدمار، والخلود في دركات النار، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ أي إن يجثكم يا أبناء آدم رسلي، الذين أرسلتهم لهدايتكم، يبيّنون لكم الأحكام والشرائع، ويرشدونكم إلى طريق السعادة ﴿فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي فمن اتقى ربه، وأصلح عمله، بفعل الطاعات وترك المحرمات، فلا خوف عليهم في الآخرة، ولا

هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وهكذا جعل الله الميزان في سعادة الإنسان وشقاوته، وفي فلاحه أو خسارانه، إنما هو اتباع الرسل الكرام، الذين بعثهم الله لهداية البشرية، فمن سلك طريقهم نجا، ومن أعرض عن اتباعهم والاهتداء بهديهم هلك، ويا له من خسران وشقاء!!

«طريق الأشقياء وخسارتهم»

ثم تابعت الآيات في سورة الأعراف، توضّح طريق الأشقياء الذين تنكبوا عن السير في طريق الرشاد، وأمعنوا في الغي والضلال، يسيرون مع الأهواء والشهوات، ويعبدون ما لا يضر ولا ينفع من أحجار وأشجار، ويزعمون أنهم شفعاء لهم يوم القيامة، حتى إذا جاء ذلك اليوم العصيب، ظهرت لهم الحقائق، وانكشفت عن أبصارهم الغشاوة، فعرفوا أنهم كانوا في سَفَه وضلال، وأيقنوا عند معاينة أهوال الموت وسكراته مغبة ذلك الإجرام، فتحسروا وندموا، ولكن هيهات أن ينفع ندم أو توبة، لأنه قد فات الأوان، وذهب وقت الإيمان، وعن هؤلاء الأشقياء تحدث الآيات الكريمة وفي ذلك يقول ربنا تقدّست أسماؤه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ، أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي يصيبهم حظهم ونصيبهم ممّا قدر الله لهم، من الأرزاق، والأعمال، والآجال، وما كتب لهم من الشقاوة والسعادة، ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ، قَالُوا أَإِنَّا مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَا مِنْ دُونِ اللَّهِ؟﴾ أي حتى إذا جاءتهم ملائكة الموت لقبض أرواحهم، قالوا لهم على سبيل التوبيخ والتبكي: أين الآلهة التي كنتم تعبدونهم وتدعونهم عند الشدائد؟ أَدْعُوهُمْ لِيُخَلِّصُوكُمْ مِنَ الْعَذَابِ ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا، وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ أي قال الأشقياء المكذبون:

لقد غابوا عنا وذهبوا، ولم ننتفع بهم بشفاعَةٍ أو وساطة، وأقروا واعترفوا على أنفسهم بالكفر والضلال، وإنما قالوا ذلك على سبيل التحسّر والندم، قال تعالى مبيناً عاقبة أمرهم، ونهايتهم المشؤمة التي وصلوا إليها: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ، كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً﴾ أي تلاحقوا واجتمعوا في النار جميعاً ﴿قَالَتْ أَخْرَاهُمْ لَأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ، قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي ضاعف لهم يا رب العذاب، فإنهم تسببوا في كفرنا وضلالنا، وزينوا لنا طاعة الشيطان ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأَخْرَاهُمْ﴾ أي قال القادة والرؤساء للضعفاء الأتباع، الذين قلدوهم على العماية والضلالة ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ، فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ وهكذا تنتهي المحاوراة بين الرؤساء والأتباع، بخلود كل في نار جهنم المتقدّة، وبمضاعفة العذاب لكل منهما ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

«استحالة دخول الكفار الجنة»

ثم يأتي التعقيب المباشر، بتقنيط هؤلاء الفجار من دخولهم جنة النعيم، وخروجهم من دركات الجحيم، وبأسلوب التمثيل الرائع، الذي يأخذ بالألباب في جماله، وحسنه، وروعة تصويره، يؤكد القرآن الكريم استحالة دخول هؤلاء الأشقياء جنة الخلد، كما يستحيل - في العقل - دخول الجمل الكبير في ثقب الإبرة الصغير، فيقول الله تقدّستُ أسماؤه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا، لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ. لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ، وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

«أهل السعادة في جنان الخلد»

وفي مقابلة هؤلاء الأشقياء المجرمين، يأتي الحديث عن الأتقياء المؤمنين، فيقول الله تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا، أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا، وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ، لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ، وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وهكذا تكون المفارقة الكبيرة، بين مصير أهل الشقاوة، وأهل السعادة، وبين الأبرار والفجار، على عادة القرآن الكريم في المقارنة بين المؤمنين والكافرين، والمتقين والمجرمين، بطريق الترغيب والترهيب.

«المناظرة بين أهل الجنة والنار»

وبعد أن تناولت الآيات الحديث عن مآل الأشقياء الفجار، ومصير المتقين الأبرار، جاءت الآيات بعدها لتتحدث عن المناظرات التي تدور بين الفريقين: فريق أهل الهدى، وفريق أهل الضلال، وذلك بعد أن استقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، وإنه لمشهد من مشاهد يوم القيامة، يتحدث عنه القرآن بأسلوبه المعجز، وبيانه المنير. . . مشهد سوف يشهده العالم، يوم البعث والجزاء على الحقيقة، دون تمثيل ولا تخيل، يتجلى فيه ما يكون من شماتة أهل الحق، بالمبطلين من أصحاب النار، وينطلق صوت علوي قدسي، ليسجل على الكفار الخزي واللعنة والدمار ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي نادى مناد، وأعلن معلن بين الفريقين ﴿أَنْ لَعْنَةُ

اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ، الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾.

وهذا النداء إنما يكون بعد انتهاء الحساب، واستقرار أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، وإنما عبّر عنه بصيغة الماضي ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ لتحقيق وقوعه، لأن المستقبل الذي يخبر عنه الربُّ جلَّ وعلا، كائنٌ لا محالة، فهو حقٌّ ويقينٌ لا يتخلف، فهو من حيث الوقوع كالماضي، الذي حدث وأخبر عنه الإنسان، كما قال تعالى عن القيامة ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فهو خبر عن الماضي يراد به المستقبل، فإنَّ ما وعد به الرحمن، حقٌّ لا شك في حصوله ووقوعه.

«من هم أهل الأعراف؟»

ثم تابعت الآيات الكريمة، تصوّر لنا تلك المحاورة والمناظرة، التي تكون بين أهل الجنة وأهل النار، وكأننا نعيشها ونلمسها، وقد ضرب بين الفريقين بسور شاهق ضخم، يمنع وصول أحد الفريقين إلى الآخر، على أعالي هذا السور رجال قد وقفوا عليه، يعرفون كلاً من أهل الجنة وأهل النار بعلامتهم، التي ميّزهم الله بها، أما أهل الجنة فوجوههم بيضاء ناضرة، ضاحكة مستبشرة، وأما أهل النار فيعرفونهم بسواد وجوههم، وزرقة عيونهم ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ، وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ أي لم يدخل أصحاب الأعراف الجنة بعد، وهم يطمعون في دخولها ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ، قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

أما أصحاب الأعراف فهم قوم مؤمنون، ولكنهم مقصرون في

الأعمال الصالحة، قد استوت حسناتهم وسيئاتهم، فلم يكونوا من السابقين لدخول الجنة، ولا من المستحقين لدخول جهنم، فيُحْبَسُونَ هناك على السُّور، المطلّ على أهل الجنة وأهل النار، حتى يقضي الله فيهم بقضائه العادل، فإذا نظروا إلى أهل الجنة فرحوا واستبشروا فسَلَّمُوا عليهم، وإذا نظروا إلى أهل النار فزعوا واضطربوا، ودعوا ربهم ألا يجعلهم منهم، ولا يدخلهم في عدادهم، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ دليل على أن أكثر أحوالهم النظر إلى أهل الجنة، وإنما ينظرون إلى أهل النار للعظة والاعتبار، فهم لا يفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم، وإنما تُصرف وجوههم في بعض الأحيان دون إرادتهم، ويُحْمَلُونَ على النظر إلى أهل النار حملاً، فإذا رأوا ما هم عليه من العذاب والشقاء، استغاثوا بربهم واستجاروا من أن يجعلهم معهم، ثم تكون نتيجتهم أن الله يكرمهم بدخول الجنة دار النعيم، ويلحقهم بالسابقين الأولين.

«بين أصحاب الأعراف وأهل النار»

وتمضي الآيات تتم لنا سرد أخبار تلك المحاورة والمناظرة، التي تكون بين أصحاب الأعراف وأهل النار، وهم فزعون مشفقون من أن تكون نهايتهم مشؤومة، كنهاية أولئك الفجار، وفجأة يبصر أهل الأعراف رجالاً من أكابر الأَشْقِيَاء، كانوا في الدنيا عظماء، من ذوي الغنى والثراء، ومن أصحاب الجاه والسلطان، يعرفهم أصحاب الأعراف بعلامتهم، فينادونهم نداء شماتة وتوبيخ، وتجري بينهم المحاورة الآتية كما نصَّ بها علينا القرآن ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي ما الذي نفعمكم جمعكم للمال، واستكباركم عن الإيمان؟ وأي فائدة جنيتموها من وراء

إعراضكم عن الحق، واستهزائكم بالناس؟ ﴿أَهْؤَلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ أي يقولون لأولئك المجرمين: أهؤلاء المؤمنون الضعفاء، الذين كنتم في الدنيا تسخرون منهم، وتحلفون أن الله لا يدخلهم الجنة، وتأنفون من مشاركتهم في الدين، لقلة حظوظهم من الدنيا؟ ثم يقولون للمؤمنين: ادخلوا الجنة رغم أنوف الكافرين! وكأنهم بهذا الكلام يريدون إغاطة الكفار والشماتة بهم، جزاء سخريتهم واستهزائهم بهم في الدنيا.

وتختتم الآيات الكريمة في هذا الموطن المهيب، تلك المناظرات، بما يقطع الفؤاد حزناً وألماً، حيث يستغيث أهل النار بقراباتهم من أهل الجنة، يطلبون منهم أن يغيثوهم بشيء قليل من الماء، ليسكنوا به حرارة النار والعطش، ولكن يأتيهم الجواب الذي يقطع أملهم بالخيلة والحرمان ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي أغثونا بشيء من الماء أو غيره من الأشربة، فقد قتلنا العطش ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ. الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ﴾ (١) كما نسوا لقاء يومهم هذا، وما كانوا بآياتنا يَجْحَدُونَ ﴿قال ابن عباس: لما صار أصحاب الأعراف إلى الجنة، طمع أهل النار بفرج بعد اليأس، فقالوا: ربنا إن لنا أقرباء من أهل الجنة، فأذن لنا أن نراهم ونكلمهم، فأمر الله الجنة فزخرفت، ثم نظر أهل النار إلى أقربائهم في الجنة، وما هم فيه من البهجة والنعيم فعرفوهم، فنادوهم

(١) النسيان من صفات النقص، وهو مستحيل على الله عز وجل، فكيف قال سبحانه «فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ»؟ والجواب أن المراد بالنسيان هنا: الترك أي نتركهم في النار، ونعاملهم معاملة من نسي وأهمل شأنه، مثل نسيانهم لقاء الله، وهذا خلاصة قول مجاهد وابن عباس والسدي، وانظر مختصر ابن كثير ٢٤/٢ وصفوة التفاسير ٤٤٨/١.

أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، فيقول الله لهم: أجيئوهم
«قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ».

«الكتب السماوية لهداية الإنسانية»

وبعد أن ذكر تعالى تلك المناظرات، التي تكون بين أهل الجنة
وأهل النار، وما ينتهي إليه حالهم وجدالهم، حيث يستقر المؤمنون في
جنات الخلد والنعيم، ويستقر الكافرون في دركات السَّعِير والجحيم،
عَقَّب القرآن الكريم بهذا البيان الشافي، فقد أرسل الله الرسل، وأنزل
الكتب، لهداية البشرية، فلم يعد لأحدٍ من الخلق حجة أو عذر ﴿وَلَقَدْ
جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ، هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. هَلْ
يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ؟ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ
رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا؟ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي
كُنَّا نَعْمَلُ؟ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

ومعنى هذه الآيات البينات: أن الله تعالى قد أنزل على أهل مكة
هذا القرآن العظيم، هداية ورحمة وسعادة لمن آمن به، وما ينتظر هؤلاء
إلاَّ عاقبة ما وعدوا به من العذاب، ويوم القيامة يقول الذين تركوا العمل
بالقرآن، وضيعوا معالم الإيمان: لقد جاءتنا الرسل بالأخبار الصادقة،
حول الحشر والنشر، والحساب والجزاء، فلم نؤمن بهم ولم نتَّبِعهم،
فهل لنا اليوم شفيع يُخَلِّصنا وينجيننا من سخط الله وعذابه؟ أو نردُّ إلى
الدنيا لنعمل صالحاً غير ما كنا نعمله من المعاصي وقبيح الأعمال؟ قال
تعالى رداً عليهم ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

«الأدلة على قدرة الله ووحدانيته»

وبعد هذا البيان الشافي الوافي، عن أحوال الكفرة المجرمين، عادت

(١) انظر تفسير الطبري ٤٧٨/١٢ ومختصر تفسير ابن كثير ٢٤/٢.

الآيات الكريمة لتقييم الأدلة والبراهين على وجود الخالق الحكيم، والدلائل الدالة على القدرة والوحدانية، وكمال العلم والحكمة، والعظمة والجلال، فقال تقدست أسماؤه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فقد ذكر تعالى في هذه الآية من دلائل قدرته ووحدانيته.

أولاً: خَلَقَ السمواتِ السبع الطباق، وهي آية في الإبداع والإعجاز، فإن السماء على اتساعها وعظمتها، واقفة بقدرة الله تعالى بدون أعمدة، لا يمسكها إلا الله، وهي ليست سماء واحدة، بل هي سبع سماوات، محكمة البناء، كل واحدة بالنسبة للأخرى كالقبة لغيرها. وذكر ثانياً: عرش الرحمن الذي لا تحيط به سماوات ولا أرض، ولا يستطيع الخيال أن يتصور عظمتها، لأن الكرسي بالنسبة للعرش، كحلقه ملقاة في صحراء، والكرسي فضلاً عن العرش لا تسعه السماوات كلها ولا الأرضون كما قال سبحانه: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ فكيف بالعرش العظيم؟ واستواؤه تعالى حقيقة تؤمن بها ولا نعرف كيفيتها كما قال إمام أهل السنة والجماعة، الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: «نؤمن بأن الله على العرش، كيف شاء، وكما شاء، بلا حد ولا صفة يبلغها واصف، أو يحدثها حادث، نقرأ الآية والخبر، ونؤمن بما فيهما، ونترك الكيفية في الصفات إلى علم الله عز وجل»^(١).

وذكر تعالى ثالثاً: الكواكب والأفلاك «الشمس، والقمر، والنجوم» كلها تحت قهره، ومشيبته، وتسخيره، تسبح في هذا الفضاء الواسع، لا

(١) راجع تفسير آية الاستواء في ابن كثير ٢٥/٢ وكتابنا صفوة التفاسير ٤٥٠/١.

يصطدم نجم بنجم، ولا يخرج كوكب عن مداره، ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ، وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(١) ولأمر ما أكثر الله سبحانه في كتابه العزيز، من الاستدلال على العلم والقدرة، والوحدانية، والحكمة، بخلق السموات والأرض، وتعاقب الليل والنهار، وكيفية تبدل الضياء بالظلام وبالعكس، وبأحوال الشمس والقمر والنجوم، فسبحان الحي القيوم!!

وقد ختم الله الآية بهذا الختم الرائع ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وفيها منتهى الإيجاز والإعجاز، فإذا كان الإله بهذه القدرة الباهرة، فكيف يترك العاقل دعاءه، والالتجاء إليه، ويدعو من لا يسمع ولا ينفع؟ ويلتجئ إلى من لا حول له ولا طول، من بشرٍ أو حجرٍ، أو شجرٍ؟ ولهذا جاءت الآيات تأمر بعبادة الواحد الأحد، ودعائه بتذللٍ وخشوع، لأنه هو المتصرف في الأكوان، المدبر لشؤون الخلق، ذو العظمة والجلال ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ، وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا، وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ومعنى قوله «تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً» أي بتذللٍ وخشوع وخضوع، مع السر والإخفاء.

«تسخير الرياح لنزول الأمطار»

وبعد ذلك جاءت الآيات تتحدث عن مظاهر قدرة الله تعالى، في تسخير الرياح التي تسوق السحاب من مكان إلى مكان، ثم نزول الأمطار، وخروج الفواكه والثمار، وكلها دلائل باهرة على قدرة الله

(١) سورة يس آية رقم ٤٠/.

ووحدانيتها ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ أي مبشرة بهطول الأمطار التي تحمل الخير للناس ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا ثِقَالًا ﴾ أي حتى إذا حملت الرياح سحاباً ثقیلاً بالماء ﴿ سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَاهُ بِهِ الْمَاءَ، فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ أي سقناه لأجل إنعاش أرضٍ مجدبة ميتة، لا نبات فيها ولا زرع، فأنزلنا عليها الماء، فأخرجنا به من جميع أنواع الفواكه والثمار. ثم قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي كما أحيينا هذه الأرض الميتة بوابل المطر، كذلك نحیی الموتى من قبورهم، ونخرجهم أحياء كما نُخرج الزرع، لتذكروا عظمة الله وقدرته، فتوحِّدوه، وتشكروه على نِعَمه وإفضاله.

«إحياء الأموات كإحياء الأرض المجدبة»

وقد أكثر القرآن الكريم من ضرب الأمثال بإحياء الأموات بعد الفناء، بالأرض الفاحلة المجدبة، التي تدبُّ فيها الحياة بنزول المطر كما قال سبحانه: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ، إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى، إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١).

وكقوله سبحانه ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ، كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا؟ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢).

ثم ختم الله هذه الآيات بتمثيل رائع، للمؤمن والكافر، ممثل لهما بالأرض الطيبة التي تُخرج النبات وافياً زاهياً، والأرض السبخة التي تؤذي ولا تنفع، فقال سبحانه: ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ، وَالَّذِي خَبَثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾.

(١) سورة فصلت آية رقم ٣٩/.

(٢) سورة الروم آية رقم ٥٠/.

أي والأرضُ الكريمةُ التربةُ، يخرج فيها النباتُ حسناً غَضّاً زاهياً،
غزير النفع والثمر، بمشيئته تعالى وتيسيره، والأرض إذا كانت خبيثة
التربة، رديئة المكان، مثل الأرض السبخة، والمستنقع الآسن، لا يخرج
النبات فيها إلا قليلاً رديئاً، وبعسرٍ ومشقة، لأنها أرض غير صالحة
للزراعة..

وقد ضرب تعالى ذلك مثلاً للمؤمن والكافر، فالمؤمن كالأرض
الطيبة التربة، والكافر كالأرض الصلبة أو الأرض السبخة المالحة، التي
لا تصلح لنبات ولا زرع، وإنما هي مستنقع للحشرات والديدان، قال ابن
عباس رضي الله عنهما: «هذا مثلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر، فالمؤمن
طَيِّبٌ، وعمله طَيِّبٌ، كالأرض الطيبة ثمرها طيب، وتربتها طيبة،
والكافر خبيثٌ، وعمله خبيثٌ، كالأرض السبخة المالحة، لا يُنتفع بها»^(١).

«من هدي النبوة»

ومن روائع الهدى النبوي الشريف، ما ضربه الرسول ﷺ في ذلك
المثل الرائع الذي مثل فيه للعلم، والهدى، والإيمان، بتشبيهه عليه
السلام للعلم والهداية التي جاء بها من عند الله، بالمطر المدرار، ينزل
على الأرض الطيبة، والأرض البوار فقال صلوات الله عليه «مثلُ ما
بعثني الله به من العلم والهدى، كمثل الغيث الكثير، أصاب أرضاً،
فكانت منها نقيّةً، قبلت الماء، فأنبت الكلاً والعُشبَ الكثير، وكانت
منها أجادبٌ - أي أراضٍ صحراوية مجدبة - أمسكت الماء، فنفع الله بها
الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفةٌ أخرى، إنما هي
قيعانٌ - أي أراضٍ سبخة مالحة - لا تمسك ماءً ولا تُنبِتُ كلاً، فذلك
مثلُ من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من

(١) انظر جامع البيان للطبري ٤٩٧/١٢.

لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هُدى الله الذي أُرسلتُ به»^(١).

«الحكمة من قصص الأنبياء»

ونلاحظ أن السورة الكريمة - إلى جانب تقرير أصول الدعوة الإسلامية - قد تناولت بالتفصيل قصص الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وذلك كنموذج للدعاة الذين يريدون أن يشقُّوا بكفاحهم وجهادهم الطريق الموصل إلى الله، وقد ابتدأت بشيخ الأنبياء «نوح» عليه السلام، وما لاقاه من قومه من جحود وعناد، وتكذيب وإعراض، حتى نصره الله النصر المبين، وأغرق قومه الطغاة المستكبرين. . . وسُمِّي نوحُ شيخَ الأنبياء، لأنه أطولهم عمراً، وأشدَّهم محنةً وبلاءً، فقد مكث في قومه قرابة ألف عام، وهو يدعوهم إلى الإيمان، ولم يجد منهم إلاَّ الصُّدود والإعراض، والتكذيب والاستهزاء، وما آمن معه في هذه الفترة الطويلة إلا قليل، لا يتجاوز عددهم الثمانين كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾^(٢).

وهذه السورة هي أول سورة تعرض بالتفصيل، لقصص الأنبياء والمرسلين، صلواتُ الله وسلامه عليهم أجمعين فلم تسبقها سورة تحدثت عن قصص الأنبياء، وفي ذكر هذه القصص فوائد عديدة متنوعة:

١ - منها أولاً تسليَةُ الرسول ﷺ عما يلقاه من الأذى، وذلك بالتنبيه على أن إعراض الناس عن قبول هداية الله، عادةٌ معتادة، فما من نبيٍّ بعثه الله، إلا وكذَّبه قومه، ونالوا منه.

٢ - ومنها بيان سوء عاقبة المستكبرين، وحُسنُ عُقبَى المطيعين،

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه وهو من رواية أبي موسى الأشعري.

(٢) سورة العنكبوت آية رقم ١٤.

تقوية لقلوب الدعاة المؤمنين.

٣ - ومنها التنبيه على أن الله سبحانه وتعالى، لا يهمل الظالمين المبطلين، وإن كان يمهلهم فترةً من الحين.

٤ - ومنها الدلالة على صدق نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، من حيث إخباره بالغيب، وهو أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب.

٥ - ومنها العظة والاعتبار للبشر، كما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى، وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(١).

«قصة نوح عليه السلام»

وأول ما تناولته السورة من قصص الأنبياء قصة «نوح» عليه السلام وقصته مع قومه درسٌ من أبلغ دروس المحنة والصبر، وفيها رمزٌ للبطولة والكفاح، فنوحٌ عليه السلام شيخ المرسلين، وهو أول نبيٍّ بعثه الله بعد إدريس، ولم يلق نبيٌّ من الأذى مثل ما لقيه نوح، وقد اتهمه قومه بالسَّفه والضلال، والجنون، وهذَّوه بالقتل رجماً بالحجارة، وهو صابرٌ دائمٌ محتسب، لم تُثنِ عزمته المواعيدُ ولا التهديدات، بل استمر يدعو إلى الله تسعمائة وخمسين سنة، ويتحمل في سبيل ذلك ضروب الأذى وأنواع البلاء، ولنستمع إلى الآيات البينات، وهي تسرد علينا أخباره وأنبياءه ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ، فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ، مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ دعاهم نوح عليه السلام إلى عبادة الله، ثم أمرهم بتوحيده، ثم حذَّره عذاب يوم عظيم هو يوم القيامة، أو عذاب الطوفان، فماذا كان جواب أولئك السفهاء المجرمين؟ ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ المَلَأُ:

(١) سورة يوسف آية رقم ١١١/.

الأشراف والسادة من قومه، سُمُوا مَلَأَ لأنهم يملأون الأعين مهابةً وجلالاً، حَكَمَ هؤلاء الرؤساء عليه بالسَّفَه والضلالة، وكان حكمهم عليه قاطعاً، مؤكداً بأنواع من التأكيدات ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي أنت يا نوح في ذهابٍ عن طريق الحق والصواب، واضح بين، وكان جوابه عليهم مُتَزَنًا سَدِيداً ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ، وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ. أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي، وَأَنْصَحُ لَكُمْ، وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ لم يقل «ليس بي ضلال» وإنما قال: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ ليكون أبلغ في عموم السلب، كأنه قال ليس بي نوع من أنواع الضلالة، أو خصلة من خصال الضلالة، فضلاً عن أن أكون متمكناً في طريق الغي والضلالة غاية التمكن، فما نسبتموني إليه زور وبهتان، ثم بعد أن نفى عن نفسه العيب الذي نُسب إليه، وصف نفسه بأشرف الصفات وأجلّها، واستدرك قائلاً ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وهذا الاستدراك في علم البيان يسمى «تأكيد المدح بما يُشبه الذم».

وفي ذلك بيانٌ لفرط جهالتهم وعتوهم، حيث وصفوا من هو به المنزلة من الهدى والاستقامة، بالضلال الظاهر، الذي لا ضلال بعده.

«الغاية من بعثته عليه السلام»

ثم نبههم إلى الغاية والمقصود الأسمى من بعثته عليه السلام، وهو أمران:

الأول: تبليغ الرسالة.

والثاني: تقرير النصيحة.

فقال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي، وَأَنْصَحُ لَكُمْ، وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أبلغكم أوامر ربي، ثم أرشدكم إلى الأصلح والأصوب، وأدعوكم إلى ما دعاني الله تعالى إليه، وأحبُّ لكم ما أحبُّ لنفسي،

وأعلم من أمور الغيب ومن صفات الله وجلاله ما لا تعلمونه أنتم.. وهكذا شأن الناصح الأمين، والرسول المرسل المبين، أن يكون مبلغاً، فصيحاً، ناصحاً، أميناً، عالماً بالله، لا يدركه أحد من الخلق في هذه الصفات الجليلة.. والعجب من هؤلاء السفهاء أنهم نسبوه إلى الضلال هنا، وفي مكان آخر رموه بالجنون فقالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾^(١) أي ما هو إلا رجل مجنون، فانتظروه زمناً قصيراً حتى يفاجئه الأجل، ونخلص من شره.

«استبعاد المشركين أن يكون الرسول بشراً»

ثم إن نوحاً عليه السلام أنكر عليهم تكذيبهم لرسالته، واستبعادهم لأن يكون الله قد أرسل إليهم رسولاً من البشر، إذ كانوا يقولون «لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً» فخاطبهم بالرأي الرشيد، والمنطق السديد، ليزيل عنهم تلك الشكوك والأوهام فقال: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنَّ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ، وَلِتَتَّقُوا، وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؟ وكأنه يقول لهم: لا تعجبوا أن يبعث الله إليكم رجلاً من جنسكم من البشر، فإن هذا ليس بعجيب، بل هو مقتضى الحكمة، ليتمكنكم الأخذُ عنه، والافتداء به، ولو كان الرسول من الملائكة لما استطعتم أن تتلقوا عنه الوحي، ثم الغاية من الرسالة الإنذار، والتقوى، والفوز برحمة الرحمن ﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وإنه لترتيب أنيق، لأن المقصود من البعثة الإنذار، ومن الإنذار التقوى، ومن التقوى الفوز برحمة الله.. وقد ختم الله قصته ببيان طغيان قومه، واستكبارهم عن قبول دعوته، واستمرارهم في التكذيب، حتى أهلكهم الله بالطوفان.

(١) سورة المؤمنون آية رقم ٢٥/.

كما قال تقدست أسماؤه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ، وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾.

أي عميت قلوبهم عن الحق فهم لا يُبصرونه، ولا يهتدون له، قال ابن عباس: «عميت قلوبهم عن معرفة التوحيد، والنبوة، والمعاد»^(١).

«المغزى من القصة»

وقد بين تعالى في هذه القصة، أنه انتقم لأوليائه من أعدائه، وأنجى رسوله والمؤمنين، وأهلك أعداءهم الكافرين، وهذه سنة الله في عباده في الدنيا والآخرة، أن العقابة والنصر والظفر فيها للمتقين، يبتلي عباده المؤمنين ليختبرهم ويمتحنهم، ثم تكون الغلبة والظفر لهم، ويُهْلِكُ عدُوهم كما أهلك قوم نوح بالغرق، ونجَّى نوحاً وأصحابه المؤمنين.

وكان قوم نوح قد ضاق بهم السهل والجبل، فأهلكهم الله بالطوفان نتيجة الكفر والعصيان، قال ابن أسلم: «ما عَذَّبَ الله قوم نوح بالغرق، إلا والأرض ملأى بهم، وليس بقعة من الأرض إلا ولها مالك وحائز»^(٢).

«قصة نبي الله هود عليه السلام»

وبعد أن تحدثت السورة عن قصة شيخ الأنبياء «نوح عليه السلام» وذكرت ما لاقاه من قومه من تكذيب وعناد، وصدود وإعراض، حتى أهلكهم الله بالطوفان. انتقلت الآيات الكريمة لتتحدث عن نبي الله «هود» عليه السلام، الذي بعثه الله إلى قبيلة «عاد» وكانت مساكنهم بالأحقاف باليمن، وقد كان هؤلاء القوم أشداء أقوياء، وبلغ من عتوهم وجبروتهم أن اغتروا بقوتهم، فقالوا ما حكاه عنهم القرآن ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي

(١) انظر تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٣٢٣/٤.

(٢) راجع مختصر تفسير ابن كثير للصابوني ٢٨/٢.

الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً؟ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١﴾.

وهذه هي القصة الثانية في سورة الأعراف من قصص الأنبياء الكرام، جاءت بعد قصة نوح عليه السلام، ذلك لأن نوحاً سبق منه في الوجود، وتكاد تكون القصتان متشابهتين، في أسلوب الدعوة والتبليغ، لكنهما مختلفتان في التعبير والبيان، وذلك سرٌّ من أسرار إعجاز القرآن، يقول الله تقدست أسماؤه في قصة سيدنا هود عليه السلام ﴿وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؟ أي وأرسلنا إلى قوم عاد نبينا هوداً وبعثناه إليهم من عشيرتهم وقبيلتهم، ليكونوا أعرف بحاله، وأقرب إلى أتباعه، فقال لهم بأسلوب سديد رَشِيدٍ: يا قوم اعبدوا الله وحده، فليس لكم إله غيره، ثم حذَّره عقاب الله وعذابه فقال: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي أفلا تخافون عذابه وانتقامه، إن خالفتُم أمره؟ أفلا تخشون أن يحلَّ بكم ما حلَّ بقوم نوح؟.

«اتهمهم له بالسَّفه والكذب»

وماذا كان جوابهم لنبيهم الذي أسدى لهم النصيح والإرشاد؟ ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ، وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي قال السادة والأشراف من قومه الجاحدين لوحداية الله: إِنَّا نَرَاكَ يَا هود في خِفةٍ حِلْمٍ، وسخافة عقل، وإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ في دعوى الرسالة.. ما أقبحه من ردٍّ، وأسفهه من جواب!! يصفون نبيهم بالسَّفه، وخِفةَ العقل، وهم - على حد زعمهم - العقلاء النابهون، «أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ»!!.

(١) سورة فصلت آية رقم ١٥/.

«جوابه المحكم السديد»

وتمضي الآيات تذكر لنا جوابه السديد المحكم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي ليس بي شيء من السفاهة وخفة العقل، بل أنا بحمد الله في الغاية القصوى من الرشد والأناة، والصدق والأمانة، لأنني مرسل إليكم من رب العالمين، والله لا يرسل إلى عباده، إلا من كان في غاية العقل، والكمال، والرشاد. . وفي قوله لهم «يا قوم» استعطاف واستمالة لقلوبهم نحو الحق، فهم أهله وقومه وعشيرته، فكيف لا يقدم لهم النصح؟ وكيف لا يسعى لتخليصهم من عذاب الله؟. ثم زادهم في التذكير والإرشاد فقال: ﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ أي أبلغكم أوامر الله، وأنا ناصح لكم فيما أدعوكم إليه، أمين على الوحي لا أكذب فيه. . ولنلاحظ سراً من أسرار الكتاب العزيز، فقد ورد في قصة نوح قوله: ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ وفي قصة هود قوله ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ﴾ فما هو وجه المغايرة بين العبارتين؟ والجواب أن نوحاً عليه السلام، كان من عادته العود إلى تجديد تلك الدعوة، في كل يوم وفي كل ساعة، وصيغة المضارع ﴿وَأَنْصَحُ﴾ تدلُّ على تجدد نصيحته لهم، ولهذا قال في مكان آخر ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً﴾ وأما «هود» عليه السلام فكان ثابتاً على النصح، غير مجدد له لحظة بعد لحظة، كما كان يفعل نوح، ولهذا ورد اللفظ بصيغة اسم الفاعل ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ﴾ لأنها تفيد الثبات والاستمرار، دون التجدد في التذكير والإنذار، فتدبر أسرار القرآن، فإنه معجز في بيانه، كما هو معجز في أحكامه!!

«تذكيرهم بنعم الله جلّ وعلا»

وتمضي الآيات في سرد قصة هود عليه السلام مع قومه الجاحدين

فيقول القرآن عنه: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ؟ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ، وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً، فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ ذكرهم «هود» بالغاية من بعثته عليه السلام وهي الإنذار، الذي فائدته حصول التقوى الموجبة للرحمة، ثم نهبهم إلى فضل الله في عظيم نعمة عليهم، وهي استخلافهم في الأرض بعد قوم نوح، حيث أورثهم أرضهم، وديارهم، وأموالهم، ثم زيادتهم في الأبدان قوة وضخامة، فقد كانوا أضخم الناس أجساماً، وأشدّهم بأساً وقوة، فلم يكن في زمانهم مثلهم في عظم الأجسام، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ ودعاهم إلى شكر الله على ما خصّهم به من النعم ﴿فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾.

«جحود ونكران لنعم الرحمن»

ومن عجيب أمرهم أنهم قابلوا هذا الفضل والإنعام، بالجحود والنكران، فقالوا مستهزئين بدعوة هود ما أخبرنا عنه القرآن ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا؟ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي أجئتنا يا هود تتوعدنا بالعذاب؟ لكي نعبد الله وحده، ونهجر عبادة الآلهة والأصنام، التي كان يعبدها آبائنا؟ فأتتنا بالعذاب الذي تتوعدنا به فلن نؤمن لك!!.

ذكرهم نبيهم نعم الله عليهم ليرجعوا إلى عقولهم، فيعلموا أن العبادة نهاية التعظيم، ولا تليق إلا بالخالق الذي صدرت عنه نهاية الإنعام والإحسان، وليس للأصنام على العباد شيء من النعم، لأنها جماد، والجماد لا قدرة له أصلاً، فلم يكن للقوم جواب عن هذه الحجة، إلا التقليد الأعمى للآباء، ويا له من غباء! ﴿أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا؟﴾.

وبعد هذا البيان الساطع القاطع، الذي أفحمهم به هود عليه السلام، وإصرارهم على الكفر والضلال، جاءت نهاية القصة لتضع حداً للطغيان ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رَجْسٌ وَغَضَبٌ، أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ، مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ؟ فَاَنْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ أي أننا نأظرونني وتخاصمونني في أصنام لا تضر ولا تنفع، ليس لها من صفات الألوهية، إلا محض الأسماء، التي اخترعتموها وزعمتم أنها آلهة، فانتظروا سوء عاقبتكم، إني معكم من المنتظرين لما يحلُّ بكم؟ وهذا غاية الوعيد والتهديد، قال تعالى مبيناً نهايتهم المشؤومة: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا، وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وهكذا كانت نهاية الكفر والطغيان.

«قصة صالح عليه السلام»

لا نزال نلقي الأضواء على «سورة الأعراف» لنستجلي ما فيها من إشراقات وأنوار، وقد تناولت الآيات السابقة قصة نبي الله الكريم «هود» عليه السلام، وما نال قومه المكذبين من الهلاك والدمار. ثم انتقلت الآيات لتحدث عن نبي الله «صالح» عليه السلام مع قومه ثمود، وكانت مساكنهم بالحجر، بين الحجاز والشام إلى وادي القرى، وكانوا في رفاهة ورخاء، وفي أمن واستقرار، يتنقلون بين المروج النضرة، والحدائق الزاهية، وقد غمرتهم الخيرات، وتوفرت لهم أسباب العيش الرغيد، ولكنهم لم يشكروا الله على نعمه، ولم يعرفوا قدر الرسالة، فأهلكهم الله بالزلزلة، ودمرهم عن بكرة أبيهم.

«الناقة معجزة نبي الله صالح عليه السلام»

وقصة سيدنا «صالح» هي القصة الثالثة من قصص الأنبياء في هذه السورة الكريمة، وقد خصَّه الله بالمعجزة الباهرة «معجزة الناقة» التي

خلقت من صخر أصم، وفيه يقول القرآن الكريم ﴿وَالِإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ، قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ، هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ، فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ، وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾.

وخلاصة قصة هؤلاء القوم، أن عاداً لما أهلك بالريح الصَّرصر العاتية، عَمَرَتْ ثمود بلادها وخلفوهم في الأرض، فكثروا وعمَّروا أعماراً طويلة، حتى إن الرجل منهم كان يبني البناء المحكم، فينهدم في حياته لطول عُمره، فنحتوا البيوت من الجبال، لتظل مساكن لهم، وكانوا في سعة ورخاء من العيش، فعتوا عن أمر الله، وأفسدوا في الأرض، وعبدوا الأوثان والأصنام، فبعث الله إليهم صالحاً عليه السلام، فدعاهم إلى الله عزَّ وجلَّ، فلم يتَّبعه إلا قليل منهم مستضعفون، فحذَّره وأنذرهم، فسألوه معجزة تدل على صدقه، فقال: أيَّ معجزة تريدون؟ قالوا: تخرج معنا يوم عيدنا، فندعو آلهتنا، وتدعو إلهك، فإن استجيب لك اتَّبعناك، وإن استجيب لنا اتَّبعنا، فأجابهم صالح عليه السلام إلى ما طلبوا، فخرج معهم ودعوا أوثانهم، وسألوها الاستجابة لهم فلم تجبهم، فقال سيدهم وزعيمهم «جندع بن عمرو» يا صالح أدع ربك، أن يُخرج لنا من هذه الصَّخرة الصَّماء ناقةً عُشراء - أي حاملاً والناقة هي أنثى الجمل - وأشار إلى صخرة عظيمة بجانب الجبل، فإن أجبتنا إلى ما طلبنا صدَّقناك واتَّبعناك، فأخذ عليهم نبيُّ الله «صالح» العهود والمواثيق، على أن يؤمنوا به ويتَّبعوه إن أجابهم إلى ما طلبوا، فصلَّى ودعا ربَّه، فتمخَّضت الصخرة ثم انصدعت عن ناقةٍ عُشراء، وكانت في غاية العظم، فأمن به «جندع» ورهط من قومه، وأما الأكثرون فكذبوه وزعموا أنه ساحر، وكانت الناقة ولدها ترعى الشجر، وتشرب

الماء كما قال سبحانه: ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ (١).

«عقرهم الناقة»

ومع هذه الآية الباهرة، والمعجزة القاطعة، عصى أولئك القوم نبيهم، فعقروا الناقة وطبخوها وأكلوا لحمها، فأوعدهم نبيهم بالعذاب، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ، وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾.

وتمضي الآيات في سورة الأعراف، تذكر ما جرى بين صالح وقومه، من المحاوراة والمجادلة، فقد خوفهم نبيهم مغبة الكفر والعصيان، وذكّرهم بفضل الله عليهم ليشكروه فقال لهم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ، وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي جعل لكم مسكناً وموطناً في أرض الحجر ﴿تتخذون من سهولها قصوراً، وتنحتون الجبال بيوتاً﴾ أي تبون في سهولها قصوراً رفيعة وتنحتون الجبال لسكناكم ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي اشكروا ربكم على إنعامه وإفضاله، ولا تتصرفوا في الأرض بالفساد.

«طغيان وجبروت»

ولكنّ القوم كانوا في جبروت وعناد، فقد استهزؤوا من دعوته، وسخروا منه ومن أتباعه، ووقفوا في وجه المؤمنين يتوعّدونهم ويهدّدونهم، ليرجعوا إلى دين قومهم، من عبادة الأوثان والأصنام ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ، أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ؟ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾.

وتمضي الآيات تبين طغيان أولئك القوم، فقد أقدموا على عقر

(١) سورة الشعراء آية رقم ١٥٥/.

الناقة، وتمردوا على ربهم، وعصّوا رسوله، وطلبوا من صالح أن يأتيهم بالعذاب، وكان قد توعدّهم بأنهم إذا قتلوا الناقة، فسوف يمكثون بعد قتلها ثلاثة أيام، ثم يصبّحهم العذاب فلا يبقى منهم أحد، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ - أَي قتلوها ونحروها - وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ قالوا ذلك استهزاءً به وتعجيزاً، قال تعالى إخباراً عما حلّ بهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ أي أخذتهم الزلزلة الشديدة، ونزلت بهم صيحة العذاب، فقطعت قلوبهم فماتوا، فأصبحوا في منازلهم هامدين ساكنين، لا حراكَ بهم، وروي أن عقرهم للناقة كان يوم الأربعاء، ونزل بهم العذاب صبيحة يوم السبت^(١).

«أسف صالح على قومه»

وروي أن صالحاً لما خرج بالمؤمنين تاركاً ديار الظالمين، كان يبكي حزناً على قومه، فالتفت فرأى الدخان ساطعاً منتشراً في عنان السماء، فعلم أنهم قد هلكوا فذلك قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ وكانت منازلهم - كما بينت - في الحجر، وقد ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ حين مرّ بالحجر في «غزوة تبوك» قال لأصحابه: «لا يدخلن أحد منكم القرية، ولا تشربوا من مائها، ولا تدخلوا على هؤلاء المعذّبين إلا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم ما أصابهم»^(٢).

وهكذا أهلك الله ثمود ودمّرهم، ولم يبق لهم أثر، وجعلهم عبرة لمن اعتبر، اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، ونجنا قبل ذلك، برحمتك يا أرحم الراحمين.

(١) انظر تفصيل القصة في مختصر تفسير ابن كثير ٣٢/٢.

(٢) الحديث أخرجه الشيخان، وانظر مختصر ابن كثير ٣١/٢.

«قصة نبي الله لوط عليه السلام»

وتمضي السورة تحدثنا في آياتها البينات عن قصص الأنبياء والمرسلين، فبعد أن ذكرت الآيات السابقة قصة «نوح» و«هود» و«صالح» ذكرت بعدها قصة «لوط» عليه السلام، وهي القصة الرابعة في هذه السورة الكريمة.

و«لوط» عليه السلام هو أحد الرسل الكرام، أرسله الله عز وجل إلى أهل «سدوم» وهو «لوط بن هاران» ابن أخي إبراهيم الخليل، كان في أرض بابل من العراق مع عمه إبراهيم، ثم هاجر إلى فلسطين ونزل بالأردن، وهناك بعثه الله إلى أهل سدوم، وكان أهلها فُسَاقاً فُجَّاراً، لا يخجلون من فعل القبيح، ولا يترددون عن عمل الفاحشة، وهي «اللواط» التي انتشرت في زمانهم، حيث كانوا يأتون الذكور في أدبارهم، وهو عمل قبيح مستقذر، مخلٌ بالمروءة والشرف، تنفر منه طبائع الحيوانات والبهائم، فضلاً عن الإنسان الذي كرمه الله بالفهم والعقل، وقوم «لوط» هم أول من اخترع وابتكر هذا العمل المنكر، وأول من فعل هذا الفعل القبيح، فلم تكن اللواط معروفة أو مشهورة قبل زمانهم^(١)، وقد بعث الله لهم نبيه الكريم «لوطاً» عليه السلام ليرشدهم إلى

(١) قال عمرو بن دينار: «ما نَزَا ذَكَرٌ عَلَى ذَكَرٍ، حتى كان قوم لوط» ولهذا قال سبحانه «مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ» وقال بعض السلف: «لولا أن الله عز وجل قص علينا خبر قوم لوط، ما ظننت أن ذَكَراً يعلو ذَكَراً» أقول: هذه هي البهيمية تعود اليوم باسم «الحرية الشخصية» فقد اتخذ البرلمان الإنجليزي قانوناً بمشروعية اللواط، وعدم اعتبارها رذيلة، تطبيقاً لنظام الحرية، وفي أمريكا وحدها ٢٠٠ / ألف شخص من الخَوَل، ينكح الرجل الرجل، ويتخذه كزوجة له يفرشه وينزو عليه كما ينزو الكلب على الكلب، دون حياء وخجل، وقد رفع أحدهم دعوى أمام القضاء يطالب فيه بتعويض كبير، يقارب نصف مليون دولار، لأن الشخص الذي نزا عليه ونكحه حمل إليه مرض «الإيدز» كما نقلت إلينا الأخبار.. وعش رجياً ترى عجباً!!.

الله، ويزجرهم ويكفهم عن ذلك العمل القذر، الذي انحدروا إليه، وصار وصفاً لهم ملازماً، يُعرفون به ويُشهرون، وفي ذلك يقول القرآن الكريم ﴿وَلَوْ طَآءَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ؟ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾

«لماذا سميت اللواط فاحشة؟»

وقد أجمع المفسرون على أن المراد بالفاحشة في الآية هنا «الواط» بدليل قوله تعالى بعدها ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ وقوله في سورة الشعراء: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ؟ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ؟ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾.

وسُمِّيت اللواط «فاحشة» لأنها عمل قبيح، قد تنهى في القبح والشناعة، ولما كان هذا الفعل القبيح، معهوداً في الأذهان قبحه، ومركزاً في العقول فحشه، أتى القرآن به معرباً بالالف واللام ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ؟﴾ وقد استحکم ذلك المنكر في نفوسهم، حتى فعل بعضهم ببعض، قال الحسن: «كانوا ينكحون الرجال في أدبارهم، ويتركون نكاح النساء» ولما دعاهم نبيهم إلى التنزه عن هذا الفعل القبيح، وأنكر عليهم بطريق التوبيخ مثل هذا العمل الحيواني، ووصفهم بالخسة والدناءة، والإسراف في ذلك الصنيع، ثاروا عليه وغضبوا، وتوعدوه بالطرد والإبعاد، والإخراج من البلاد، فقالوا كما قصَّ القرآن الكريم عنهم ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

«الفضيلة في نظرهم رذيلة»

والعجيب من أمر هؤلاء السفهاء، أن يعدوا التنزه عن ذلك الفعل

الشنيع، نقيصة يستحق صاحبها الطرد والإبعاد عن الأوطان، ويفتخروا بما هم عليه من النجاسة والخسة، كأن الطهارة - في نظرهم - صارت عبئاً، فيقول بعضهم لبعض ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ أي اطرّدوا لوطاً ومن معه من المؤمنين من بلدتكم، ثم يعلّلون سبب ذلك بقولهم ﴿إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي يتطهرون ويتنزّهون عمّا نفعله من إتيان الرجال في الأدبار، عابوهم بما يُمدح به الإنسان، وقالوا ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء، كأن الفضيلة صارت رذيلة، والرذيلة أضحت فضيلة، يفخر بها الإنسان!.

هذا هو منطق السفهاء في كل زمان ومكان، يسخرون ممن يتنزّه عن مقارفة الموبقات والمعاصي، ويعدّونه «رجعياً» متأخراً، لا يساير ركب الرقيّ والتقدم، وأما من غرق في الفسوق والمجون إلى الأذان، وانحطّ إلى درجة الحيوان، فهو الإنسان «التقدمي» الألمعي، الذي يُشار إليه بالبنان، وما أكثر ما نسمع في زماننا ممّن يسخر بالشباب المسلم، المستمسك بدينه، الذي أبى الانجراف مع الشهوات الدنيئة، من خمور، وفجور، ونساء، وسفّه، ويعدّونهم من البُلّه الذين لم يعرفوا طعم الحياة، ويصفونهم بأوصاف منحطة يقولون عنهم: «رجعيّون»، متأخرون، متزمتون» تماماً كما قال قوم لوط عن المؤمنين الطاهرين ﴿إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ فما أشبه الليلة بالبارحة!!.

«عقوبة قوم لوط»

وتمضي السورة الكريمة لتخبرنا عن العاقبة الوخيمة، التي حلّت بأولئك الأقوام المجرمين، فقد دمر الله ديارهم، وقلب بهم مساكنهم، فجعل عاليها سافلها، وأرسل عليهم حجارة من السماء، كالمطر الزاخر، فأهلكهم عن بكرة أبيهم، فلم تبق منهم عينٌ تطرف، ولم يبق لهم أثر أو

خبر، وجعل الله عذابهم عبرةً لمن اعتبر، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ. مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ - أي معلّمة كل جمرة فيها بعلامة صاحبها - وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ وقال تعالى هنا ﴿ فَانْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ أي بقيت مع الهالكين، لأنها كانت كافرة ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي أنزلنا عليهم نوعاً من المطر عجيباً، هو حجارة من سجيل منضود، أرسلناه عليهم كالْمَطَرِ الدافق، فانظر أيها السامع كيف كانت عاقبة أولئك المجرمين؟ ألم تكن فظيعةً شنيعة؟ وانظر نظر تفكر وتدبر، إلى نهايتهم المشؤومة.

«عظة واعتبار»

وهكذا تنتهي أخبار أولئك المفسدين، وتكون عقوبتهم أفظع وأشنع عقوبة، جزاءً وفاقاً، لأنهم ارتكبوا أقبح وأشنع جريمة، ألا وهي «اللواط»، وقد كانت بلادهم بين الشام والمدينة، وحين قُلبت بهم الديار، وأمطرت عليهم الأحجار، هلكوا وصُرعوا، وبقيت آثارهم شاهدةً بدمارهم، منبئةً عن أحوالهم، وكأنها تتحدث عن نهاية أولئك الطغاة المفسدين، كما قال تعالى عنهم في سورة الصافات مخاطباً كفار قريش: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾؟ ولما كانت اللواط من أقبح الجرائم، كانت عقوبتها في الإسلام من أشد العقوبات، ألا وهي القتل والحكم بالإعدام، حرقاً، أو هدماً، أو رجماً بالحجارة، أو إلقاء من أعلى شاهر جبل، ليكون عبرة للمعتبرين، وقد اختلف فقهاء المسلمين في كيفية القتل، فبعضهم قال: تحزُّ رقبته كالمرتد، وبعضهم قال: يُرجم بالحجارة حتى الموت، وبعضهم قال:

يُلْقَى مِنْ أَعْلَى شَاهِقِ جَبَلٍ، وَبَعْضُهُمْ قَالَ: يُهْدَمُ عَلَيْهِ جِدَارٌ، وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ رُويَتْ عَنِ السَّلَفِ الصَّالِحِ، عَمَلًا بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ وَجَدْتُموه يَعْمَلُ عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ، فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ»^(١). وَإِنَّمَا ذَكَرُوا هَذِهِ الْوُجُوهُ لِأَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ قَوْمَ لُوطٍ بِكُلِّ ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾.

«قِصَّةُ شَعِيبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ»

ثُمَّ تَحَدَّثَتِ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ عَنْ قِصَّةِ نَبِيِّ اللَّهِ الْكَرِيمِ «شَعِيبٍ» عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ قَوْمِهِ «أَهْلِ مَدِينٍ» وَهِيَ الْقِصَّةُ الْخَامِسَةُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ.

و«مَدِينٍ» تَطْلُقُ عَلَى الْقَبِيلَةِ وَعَلَى الْمَدِينَةِ، وَهِيَ الَّتِي بِقَرَبِ «مَعَانَ» فِي شَرْقِ الْأُرْدُنِّ، وَهُمْ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ، وَكَانُوا فِي حَدَائِقِ وَبَسَاتِينِ، وَأَشْجَارِ كَثِيرَةٍ مُلْتَفَةٍ، وَلِذَلِكَ سَمَوْا أَصْحَابَ الْأَيْكَةِ، وَقَدْ كَانَ قَوْمُ «مَدِينٍ» مَشْهُورِينَ بِالْبَخْسِ وَالتَّطْفِيفِ فِي الْمِيزَانِ، فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ نَبِيَّهُ الْكَرِيمَ «شَعِيبًا» عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَنْهَاهُمْ عَنْ هَذَا الْفِعْلِ الْمُنْكَرِ، وَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ، وَيَحذِّرُهُمْ مِنْ عَصْيَانِ أَمْرِهِ، وَالصَّدِّ عَنْ دِينِهِ، لِثَلَا يَحُلَّ بِهِمْ مَا حُلَّ بِالْأُمَمِ السَّابِقِينَ، وَلَكِنَّ أَهْلَ مَدِينٍ كَانُوا عِتَاءً فَاسِقِينَ، خَالَفُوا أَمْرَ نَبِيِّهِمْ، وَاسْتَمَرُّوا فِي عَصْيَانِهِمْ، وَكَانَتْ عَاقِبَتُهُمْ الْخُسْرَانُ وَالْهَلَاكُ، وَفِيهِمْ يَقُولُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ ﴿وَالِىَ مَدِينَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ، مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، قَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ، فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ، وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَمْشِيَهُمْ، وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا، ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. وَلَا تَقْعُدُوا

(١) الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ أَصْحَابُ السَّنَنِ، وَانْظُرْ جَامِعَ الْأَصُولِ لِابْنِ الْأَثِيرِ ٥٤٩/٣.

بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا، وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكُثِرْكُمْ، وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠﴾.

أمرهم نبيهم «شعيب» عليه السلام بخمسة أشياء:

أولاً: أمرهم بعبادة الله، ونهاهم عن عبادة الأوثان، وهو أصل في جميع الشرائع والأديان، وإليه الإشارة بقوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أي وحدوا الله، ولا تشركوا به، فما لكم إله مستحق للعبادة غيره تعالى.

ثانياً: أمرهم بالتصديق بنبوته والإيمان برسالته، وإليه الإشارة بقوله ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي معجزة تدل على صدقي.

ثالثاً: دعاهم إلى وفاء الكيل والميزان، حيث كانوا مشهورين بالتطفيف، إذا كالوا للناس أو وزنوا، طففوا لهم في المكيال والميزان، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾، وظلم الناس بإنقاص الكيل والوزن من الكبائر، كما قال سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ. وَإِذَا كَالُواهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ. أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ؟ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقد اشتهر قوم شعيب بهذا العمل القبيح.

رابعاً: نهاهم عن الظلم والعدوان، وعمم اللفظ ليشمل جميع أنواع الظلم، كالغصب، والسرقة، وأخذ الرشوة، وانتزاع أموال الناس بوجوه الاحتيال، وإليه الإشارة بقوله ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ وهذا اللفظ شامل لجميع أنواع الفساد، في الأموال، والأعراض، والنفوس، وكان من عادتهم العدوان على الناس، وأكل أموالهم بالباطل.

خامساً: حذرهم من قطع الطريق على الناس، والصد عن دين الله، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ، وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ فقد كانوا يجلسون على طرق الناس ومراصدهم - كما كانت تفعل قريش بمكة - يخوفون من آمن بشعيب بالقتل، ويقولون للناس: إنه كذاب فلا يفتنكم عن دينكم، وهكذا تفننوا في البغي والإفساد.

وبعد هذا التذكير والإنذار، حذرهم أن يحل بهم ما حل بمن سبقهم من الكفرة الفجار فقال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكُتِرْكُمْ، وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي انظروا ماذا حل بالأمم السابقة، حين عصوا الرسل، كيف انتقم الله منهم بأنواع الانتقام، واعتبروا بهم.!

«توعدهم لشعيب والمؤمنين بالطرد من الأوطان»

ولنستمع إلى جواب أولئك الأشرار من قوم شعيب، كيف استقبلوا نصيحة نبيهم، وما كان منهم من البغي والضلال ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ، لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا، أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ هكذا بمتهى الصراحة والوقاحة يتوعدون نبيهم وأتباعه المؤمنين، بالطرد والإخراج من الأوطان، أو بالعودة إلى عبادة الأوثان، فيجيبهم شعيب عليه السلام بقوله: ﴿قَالَ أَوْلَوْكُنَا كَارِهِينَ﴾؟ أي أتجبروننا على العودة إلى دينكم وملتكم، ولو كنا كارهين لذلك؟. ثم شرع ينبههم إلى فساد ما هم عليه من معتقد، بطريق حكيم غير مباشر، ليلفت أنظارهم إلى قبح وفساد ما هم عليه، من عبادة من لا يسمع ولا ينفع، ولا يغني عن صاحبه شيئاً، فقال لهم في معرض الرد: ﴿قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا،

وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا، وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا، رَبُّنَا افْتَحَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿١﴾ أَيِ احْكُمَ واقض بيننا وبين هؤلاء الكافرين بحكمك العادل، وقضائك المبرم الذي لا جور فيه ولا ظلم.

«الرؤساء جمعوا بين الضلال والإضلال»

ثم تمضي الآيات لتبين لنا أن الرؤساء والأشراف من قوم شعيب، لم يقتصروا على الضلال، بل بادروا إلى إضلال الآخرين، فجمعوا بين الضلال والإضلال، ودعوا قومهم إلى عدم الإيمان بشعيب عليه السلام، وأكدوا لجماعتهم أن في اتباع شعيب الخسران والضلال المبين، وأرادوا بذلك تنفير الناس عن الإيمان به ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَتِئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ ما أجراهم على الله! وما أكذبهم على رسوله!! جعلوا اتباع الناصح الأمين خسراناً وضلالاً، والإيمان به وتصديقه في دعوى النبوة سفهاً وجهالة، وهم العقلاء النابهون؟! وكانت النتيجة هي صيحة العذاب والدمار قال تعالى ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ أي أخذتهم الزلزلة العظيمة فأصبحوا صرعى ميتين ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي كأنهم لم يقيموا في ديارهم منعمين، ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ. فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي، وَنَصَحْتُ لَكُمْ، فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ وهكذا يسدل الستار، بهلاك أولئك الفجار، وينصر الله رسله وجنده المؤمنين^(١)!!.

«سنة الله في إهلاك المكذبين»

وبعد أن ذكر تعالى قصص الأنبياء الكرام، قصة (نوح، وهود،

(١) انظر تفصيل قصة شعيب عليه السلام في كتابنا النبوة والأنبياء ص ٢٦٠/.

وصالح، ولوط، وشعيب) صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وذكر ما حلّ بأقوامهم المكذبين من العذاب والدمار، حينما لم تنفع فيهم الموعظة.. ذكر تعالى بعدها سنته الإلهية، في الانتقام ممن كذب أنبياءه، وذلك بأخذهم بالتدرج معهم بالبأساء والضراء، ثم بالنعمة والرخاء، ثم بالبطش والنكال، إن هم استمروا في السير في طريق الغي والضلال، وفي ذلك يقول جلّت عظمتة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ أي عاقبناهم بالفقر والبؤس والحرمان، لكي يتوبوا ويخضعوا ويتضرعوا لربهم في كشف البلاء ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ، حَتَّى عَفَوْا، وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ، فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي ثم أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من الفقر والضر، السعة والصحة، وأبدلناهم بالشدة والبلاء: النعمة والرخاء ﴿حَتَّى عَفَوْا﴾ أي حتى كثروا ونموا، وتقبلوا في الترف والنعيم ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ﴾ أي نسوا نعمة الله فقالوا: هذه عادة الدهر، يوم صفاء، ويوم بلاء، ويوم منحة ويوم محنة، وقد مَسَّ آبَاءنا مثل ذلك من المصائب، قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي أخذناهم بالهلاك والعذاب فجأة، من حيث لا يدرون ولا يعلمون..

والمراد أنهم لم ينتفعوا بتدبير الله تعالى فيهم، من رخاء بعد شدة، وأمن بعد خوف، وراحة بعد شقاء وعناء، بل أمعنوا في الفساد والعناد، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

«قلة الخيرات بشؤم المعاصي»

ثم بين تعالى أن الجذب والمحل، وقلة الخيرات والبركات، إنما سببه العصيان، فلا تكون ضائقة اقتصادية، ولا تحدث هزة أرضية، ولا

يَصِيبُ النَّاسَ ضِيقٌ فِي مَعَايِشِهِمْ وَأَرْزَاقِهِمْ، إِلَّا بِسَبَبِ الْكُفْرِ وَالْجُحُودِ، فَالْعَصِيَانِ هُوَ سَبَبُ الْحَرَمَانِ مِنْ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فالناس إنما يُحْرَمُونَ الرِّزْقَ بِشَوْءٍ أَعْمَالِهِمْ، وكثرة معاصيهم.

«عقابُ الله وانتقامه من المكذِّبين»

وبعد هذا الإيضاح والبيان، جاء دور التخويف والإنذار ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ؟ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ؟ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ، فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

فلقد خَوْفَهُمُ الله عذابه وانتقامه، أن يَأْتِيَهُمُ العقابُ في أوقات الراحة، في ظلمة الليل، أو في وَضَحِ النهار، وكأنه تعالى يلفت الأنظار إلى شدة العذاب من ناحيتين: أولاً أن يَأْتِيَهُمُ في وقت الراحة وهم نائمون غافلون عنه، وثانياً أن يَأْتِيَهُمُ فجأةً وبغته، وكلما حدث الأمر من حيث لا يتوقع الإنسان، كان أشدَّ وأفظع على النفس، والمراد بقوله تعالى: ﴿بَيَاتًا﴾ أي ليلاً يقال: بَيَّتَ الْعَدُوُّ أَي أَوْقَعَ بِهِمْ وَأَغَارَ عَلَيْهِمْ لَيْلاً.

عن الربيع بن الخيثم، أن ابنته قالت له: مالي أرى الناس ينامون، ولا أراك تنام؟ قال: يا بنتاه إن أباك يخاف البَيَاتِ، يشير إلى قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ وما أحسن قول الشاعر:

أَيَا رَاقِدَ اللَّيْلِ مَسْرُوراً بِأَوَّلِهِ إن الحوادثَ قد يَطْرُقْنَ أسْحَاراً

«مصارع الغابرين»

ثم تمضي الآيات وهي تلفت الأنظار إلى مصارع الغابرين، ممن طغى وبغى وأفسد في الأرض، ليعتبر بذلك من خلفهم من الأمم، ويحذروا ما حلَّ بالسابقين ﴿أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَأْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ والمعنى أو لم يتضح ويتبين، للذين يخلفون الأرض بعد هلاك أهلها الذين كانوا يعمرونها قبلهم، أننا لو أردنا لأهلكتناهم بسبب ذنوبهم كما أهلكنا من قبلهم، ولختمنا على قلوبهم فلا يقبلون موعظة ولا تذكيراً!.

إنها تخويف من الله وإنذار، للكفرة الفجار، أن يحلَّ بهم ما حلَّ بمن سبقهم من المكذبين الأشرار.

«الحكمة من ذكر قصص الأنبياء»

ثم بين تعالى الغرض والحكمة من ذكر قصص السابقين، وأنبياء المتقدمين، تسلياً لسيد المرسلين فقال عزَّ شأنه ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا، وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ، فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾.

وكان الآية تقول يا محمد لا تحزن لتكذيبهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، فذلك طريق من سبقهم من الطغاة المتجبرين، اغتروا بطول الإمهال، ثم أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر. وتختم الآيات الكريمة ببيان سبب الفجور والطغيان، ألا وهو الفسوق والعصيان فتقول: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ، وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾

«قصة موسى عليه السلام»

لا تزال السورة الكريمة تتابع ذكر قصص الأنبياء والمرسلين، وقد تقدمت معنا قصة «نوح» و«هود» و«صالح» و«لوط» و«شعيب» صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وما جرى لهم مع أقوامهم المكذبين، ثم جاءت السورة لتتحدث عن قصة نبي الله الكريم «موسى بن عمران» عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم، وهي القصة السادسة في هذه السورة الكريمة.

وقد بسط تعالى وفصل في هذه القصة، ما لم يذكره في غيرها من القصص، لأن جهل قومه كان أعظم وأفحش من جهل سائر الأقسام، ولذلك كانت معجزاته - عليه السلام - أقوى وأظهر من معجزات من تقدمه من الأنبياء، ولنستمع إلى بدء القصة وما فيها من الأنباء العجيبة في هذه السورة الكريمة يقول تقدست أسماؤه: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، فَظَلَمُوا بِهَا، فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾.

والمراد بالآيات هنا: المعجزات الباهرات، والحجج الساطعات التي أيد الله بها موسى عليه السلام، وهي «معجزة العصا» و«معجزة اليد» التي سيأتي الحديث عنها في الآيات التالية ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ. حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أي جدير بي وحق علي، ألا أخبر عن الله إلا بما هو حق، لأنني رسوله، والرسول لا يكذب، ثم قال: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي قد جئتكم بحجة قاطعة وبرهان نير، يدل على صدقي، فخلّ سبيل بني إسرائيل، حتى يذهبوا معي إلى الأرض المقدسة، التي هي وطن آبائهم.

«سبب سكنى بني إسرائيل مصر»

وكان سبب سكنى بني إسرائيل بمصر - مع أن أباهم كان بالأرض المقدسة - أن الأسباط أولاد يعقوب عليه السلام، جاءوا إلى مصر لمّا اشتد القحط بالبلاد من أجل الميرة، ومكثوا مع أخيه يوسف، وهناك كثروا وتناسلوا في مصر، فلما ظهر فرعون استعبدهم واستعملهم في الأعمال الشاقة المهينة، فأحبّ موسى أن يخلصهم من هذا الأسر، ويذهب بهم إلى الأرض المقدسة، وطنهم ومولد آبائهم، ولهذا قال موسى عليه السلام ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

«فرعون يهزأ من موسى»

ولما عرض موسى على فرعون رسالة ربه، وطلب منه أن يُطلق سراح بني إسرائيل، وأن يتخلّى عن دعوى الربوبية، وعن الظلم والطغيان، أراد فرعون أن يهزأ منه ويسخر، فقال له على سبيل السخرية والتعجيز: ﴿قَالَ إِنْ كُنْتُ جِئْتُ بِآيَةٍ، فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ والمعنى إن كنت يا موسى صادقاً في دعوى النبوة، فأتنا بمعجزة تدل على صدقك، إن كان ما تقول حقاً أن الله أرسلك!!

وهناك ظهر ما لم يكن في الحسبان، حيث قلب موسى العصا إلى ثعبان، وأخرج يده من فتحة صدره، فإذا هي نور ساطع يضيء ما بين السماء والأرض ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ. وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ قال ابن عباس: «لما ألقى العصا تحوّلت إلى حية عظيمة، فاعرّة فاها، مسرعة نحو فرعون» فوثب فرعون عن سريره وهرب^(١).

(١) انظر تفسير جامع البيان للطبري، وتفسير ابن كثير، وكتابنا صفوة التفاسير ٤٦٣/١.

وروي أنه لما طلب فرعون من موسى «المعجزة البينة» أخرج له يده وقال «ما هذه»؟ فقال: هذه يدك، ثم أدخلها في جيبه - أي فتحة ثوبه - ثم أخرجها، فإذا هي بيضاء بياضاً نورانياً غريباً، يغلب شعاعها شعاع الشمس، فذلك قوله تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ ولا تكون بيضاء للناظرين، إلا إذا كان بياضها عجباً خارجاً عن العادة، اجتمع الناس للنظر إليها، كما يجتمعون لمشاهدة العجائب.

«فرعون يستشير أصحابه»

ولما رأى فرعون وجماعته هذه الغرائب المدهشة، وخاف الطاغية أن يؤمن الناس بموسى، ويذهب مُلْكُ فرعون وجبروته، تشاور هو والقوم فيما بينهم في أمر موسى، وكيف يبطلون دعواه، فقالوا ما حكاه عنهم القرآن الكريم من محاورة ومناظرة ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ، يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾؟.

أي قال الرؤساء والأشراف من جماعة فرعون، وهم أصحاب مشورته وخاصته: إن هذا عالم بالسحر، ماهرٌ فيه، قد بلغ الغاية في علم السحر وفنونه، فبأي شيء نقاومه؟ وماذا نصنع في أمره؟ فقال لهم فرعون عند ذلك: «فَمَاذَا تَأْمُرُونَ».

أي بأي شيء تشيرون عليّ؟ والظاهر - والله أعلم - أن هذه الجملة من كلام فرعون، يطلب منهم أن يشيروا عليه في أمره، ولهذا أجابوه بقولهم: ﴿قَالُوا أُرْجِهْ وَأَخَاهُ، وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ. يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ أي قالوا لفرعون: أخر النظر في أمرهما حتى ترى رأيك فيهما، وابعث في أنحاء البلاد من يأتي لك بالسحرة من كل

بلدٍ وقطر، ومن كل ساحرٍ ماهر في السحر.

وفي الآية دلالة على كثرة السحرة في ذلك الزمان، ولهذا كانت معجزة موسى من جنس ما اشتهر في زمانه، فكانت العصا واليد، كما أن الطبَّ لمَّا كان غالباً على أهل زمان عيسى، كانت معجزته بإحياء الموتى وإبراء الأعمى، ولمَّا كانت الفصاحة والبلاغة غالبية في عصر نبينا ﷺ كانت معجزته العظمى القرآن المعجز البليغ.

ثم تتابع الآيات الكريمة سرد أحداث القصة «قصة موسى» عليه السلام مع الطاغية فرعون ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ، قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ؟ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أغراهم بالعطايا والمال، وبالمنصب والسلطان، بقصد أن يُبطلوا دعوة موسى، بما جاء به من الآيات الساطعات.

«موسى عليه السلام مع السحرة»

وتتابع السورة سرِّد أحداث قصة موسى عليه السلام، مع الطاغية الجبار فرعون اللعين، فبعد أن استدعى فرعون السحرة، وأغراهم بالمال والإكرام، وأن يجعلهم من خواصَّ الرجال المقربين لديه، وحضر موسى عليه السلام، دعوه إلى المنازلة والمصاولة، ولكنهم راعوا حسن الأدب معه، فخيروا موسى أولاً، وقَدَّموه في الذكر ثانياً، وتلطفوا معه في الخطاب ثالثاً ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُثْلِقِينَ﴾ أي اختر إما أن تلقي عصاك أولاً، أو نبدأ نحن فنلقي عصيتنا؟ كما هو دأب المتناظرين والمتصارعين؟. قالوا ذلك اعتزازاً بالنفس، ووثوقاً بالغلبة عليه، ظناً منهم أن ما سيأتي به موسى من قبيل السحر، وفي قولهم

﴿وَأَمَّا أَنْ نَكُونَ نَخْنُ الْمُلقِينَ﴾ ما يدل على رغبتهم في أن يُلقوا قبله، فأجابهم موسى عليه السلام بقوله: ﴿قَالَ الْقُوا، فَلَمَّا الْقُوا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ، وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾.

والمعنى فلما ألقوا العصي والحبال، خيلوا للناس ما لا حقيقة له، وسحروا أعينهم، وأفزعوهم وأرهبوهم إرهاباً شديداً، حيث خيلوها حياتٍ تسعى، حتى هرب الناس من هؤل ما رأوا وشاهدوا.

قال ابن إسحق: صُفِّ في ذلك اليوم خمسة عشر ألف ساحر، مع كل ساحر حباله وعصيته، وفرعون في مجلس مع أشرف مملكته، فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصرَ فرعون وبصرَ موسى، ثم أبصارَ الناس، ثم ألقى كل رجل منهم ما في يده من العصي والحبال، فإذا بها حياتٌ كأمثال الجبال، قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً فذلك قوله تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ، وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾^(١).

«إلقاء موسى للعصا»

في ذلك الجو الرهيب، الذي أذهل عقول الناس، وسلب إحساسهم وأبصارهم، حتى خيل إلى موسى عليه السلام أن تلك الحبال والعصي، أصبحت حياتٍ مثل عصاه، أوحى الله إليه بطريق الإلهام أن يقذف بعصاه، فقف بها فإذا هي تبتلع بسرعةٍ عجيبة ما زُوروه من الباطل والبهتان ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ وفي قوله: ﴿تَلْقَفُ﴾ ما يدل على السرعة في الابتلاع والالتقام، قال ابن عباس: كانت لا تمرُ بشيء من حبالهم وخشبهم التي

(١) ذكر هذه الرواية الإمام الطبري في تفسيره ٢٨/١٣.

ألقوها إلا التقمته، فلما أخذها موسى عادت عصا كما كانت من غير تفاوت في المقدار والحجم قال تعالى: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ أي غلب فرعون وقومه في ذلك المجمع العظيم، وصاروا ذليلين مهينين ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ. قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾.

«إيمان السحرة وسجودهم لله»

لم يتمالك السحرة أنفسهم أن يخروا ساجدين لرب العالمين، لأن الحق بهرهم، وعرفوا حق اليقين، أن ما أتى به موسى لو كان من قبيل السحر، لبقيت الحبال والعصي ولم تُفقد، ولانتفخت الحية حين ابتلعت تلك الحبال، فلما لم يجدوا أثراً للحبال، عرفوا أن ذلك ما هو إلا بأمر رباني، من خلق الله وتقديره، فخروا ساجدين لرب العالمين ولم يبالوا بالتهديد والوعيد.. قال المفسرون: لما قالوا آمنا برَبِّ العالمين، قال فرعون: إِيَّايَ يعنون، فلما قالوا: «رَبِّ موسى وهارون» سقط في يده، وعرف الحاضرون أنهم آمنوا بإله السماء، وكفروا بفرعون الكاذب الجبار.

«خذلان فرعون الجبار أمام الناس»

ولما شعر فرعون بالخذلان والخسران، أمام أتباعه وأنصاره، ورأى أن السحرة - وهم أعلم الناس بالسحر - قد أقرُّوا بنبوة موسى وآمنوا بالله بمحض جمعٍ عظيم، خاف أن يصير ذلك حجة عليه، فألقي في الحال شبهة ولكنها أوهى من بيت العنكبوت، زعم فيها أن هناك تواطؤاً وتآمراً بين السحرة وموسى، مع علم الجميع أن موسى لم يَلتَقِ السحرة قبل ذلك

اليوم ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ؟ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

وقوله: ﴿ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ دلالة واضحة على تناقض فرعون في ادعائه الألوهية، لأنه لو كان إلهاً كما زعم، لما جاز له أن يأذن لهم في أن يؤمنوا بغيره، وهذا من جملة الخذلان الذي يظهره الله على لسان المبطلين دون شعور.

«فرعون يهدد السحرة»

ولما عجز فرعون عن دفع الحجة بالبرهان، عدل إلى البطش والفتك بالسنان فقال: ﴿ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ، ثُمَّ لَأَصْلَبُنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ومعنى قوله: «من خلاف» أي أن يقطع من أحدهم يده اليمنى ورجله اليسرى، أو يقطع يده اليسرى ورجله اليمنى، فيخالف بين العضوين في القطع. . ومع هذا التهديد والوعيد، لم تؤثر فيهم مقالة فرعون، بل زادتهم إيماناً وثباتاً ﴿ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ، وَمَا نُنْقِمْ مِنْهَا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ . عند ذلك نفذ فرعون بهم ما أوعدهم به، فنالوا الشهادة في سبيل الله، ورأوا قصورهم من الجنة، قال قتادة: كانوا في أول النهار كفاراً سحرة، وفي آخره شهداء برة. . وهكذا شأن الإيمان يصنع الأعاجيب، فإن هؤلاء السحرة لما عرفوا الحق، ووضح لهم صدق موسى عليه السلام، آمنوا به واتبعوه، وتحملوا القتل والصَّلب في سبيل العقيدة والإيمان، وبذلك استحقوا دخول الجنان.

«إغراء فرعون بقتل موسى»

وبعد أن آمن السحرة، وأعلنوا العبودية والخضوع لله رب

العالمين، ونفذ فيهم فرعون ما أوعدهم به من الصلب والقتل، ولم يتعرض فرعون لموسى بأخذٍ أو حبس، لأنه كان كلما رآه يخافه أشدَّ الخوف، لما جعل الله له من المهابة والجلالة، وقد زاد خوفه برؤية الآيات الباهرات، التي كانت سبباً في إيمان السحرة.. ولكن قوم فرعون كانوا يُغرون فرعون بقتل موسى، وأنصاره من بني إسرائيل، خشية أن يزول ملك فرعون، وتكون العزة والكبرياء لموسى وأتباعه المؤمنين ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ، وَيَذَرَكْ وَلِئِهَتَكَ﴾؟ أي قال الأشراف لفرعون: أترك موسى وجماعته ليفسدوا في الأرض - أرض مصر - بالخروج عن دينك، وترك عبادة آلهتك!! وفي هذا إغراء لفرعون بموسى وقومه، وتحريض له على قتلهم وتعذيبهم.

والغريب في الأمر أن يصبح «المصلح» مفسداً، ويُعدَّ «التقيُّ» شقياً، وأن تنقلب الأمور، وتتغير الموازين، فيصبح موسى ومن معه من المؤمنين، مفسدين مخربين، ويصبح فرعون وأتباعه أمناء مصلحين، وهذا شأن الطغيان في كل زمانٍ ومكان، يُتهم الحقُّ وأنصاره بالتخريب والإفساد، وأهل الباطل يوصفون بالإصلاح والرشاد، كما قال زبانية فرعون للطاغية الجبار ﴿أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ، وَيَذَرَكْ وَلِئِهَتَكَ﴾؟.

وهنا يُستفز فرعون ويستثار، وتلهب عواطفه ومشاعره، فيصدر حكم الإبادَةِ والتقتيل لجند الرحمن المؤمنين ﴿قَالَ سُقَتْلُ أَبْنَاءَهُمْ، وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ، وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ يقول فرعون لجماعته: لن نترك موسى وقومه يفسدون ويُخربون، ويفعلون ما يشتهون، بل سنضع حداً لبغيهم وفسادهم، وذلك بأن نقتل أبناءهم الذكور، ونستبقي

نساءهم للاستخدام، كما كنا نفعل بهم ذلك من قبل، وإنا فوقهم عالون بالقهر والسلطان.

وكان فرعون يقول: إن موسى إنما يمكنه الإفساد، بواسطة الرهط والأنصار، فنحن نسعى في تقليل رهطه وشيعته بتقتيلهم، بما أوتينا من القوة والسلطان، ولنا السيطرة والغلبة عليهم على الدوام.

«موسى يدعو قومه للصبر والاستعانة بالله»

ولما بلغ موسى والمؤمنين، ما عزم عليه فرعون اللعين، من البطش والإرهاب، أراد موسى أن يطمئن قومه، إلى أن العاقبة لهم، وأن النصر لمن خاف الله واتقاه، فأمرهم بالصبر والاستعانة بالله ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا، إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

ولكن بني إسرائيل خافوا وفزعوا من تهديد فرعون، فشكوا إلى موسى مستعجلين طلب النصر ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا، قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ، وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ وكأنهم يقولون لموسى: إن المحنة لم تفارقنا أبداً، فنحن في العذاب والبلاء، من قبل أن تأتينا بالرسالة ومن بعد ما جئنا بها، وهذا منهم ضعف وخور، لا يليق بالمؤمن الواصل بنصر الله، الذي يعلم أنه لا مدبر للعالم إلا الله، فيبده سبحانه العز والنصر، وبيده التمكين والتدبير، ولهذا أجابه موسى إجابة المؤمن الواصل بنصر الله ﴿قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ، وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ، فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

سلك موسى طريق الأدب مع الله، وساق الكلام مساق الرجاء، فقال: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ وعرضه تحريضهم على طاعة

الله، وقد حقق الله رجاء موسى، فأغرق فرعون الجبار، وزبانيته وأتباعه الفجار، وملك بني إسرائيل أرض مصر، فحقق الله لهم الأمل والنصر.

«ما أصاب فرعون وقومه من البلياء والنكبات»

ثم تتابعت الآيات تذكر ما نزل بفرعون وآله، من المحن والبلياء، بشؤم التكذيب، والتمرد، والطغيان، فقد ابتلاهم الله عز وجل بالقحط والجذب، والظوفان والجراد، وبأنواع من النكبات لعلهم ينزجروا عن الغي والضلال ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ أي ابتليناهم بالجذب والقحط، وبإذهاب الثمار بسبب كثرة الآفات، لكي يتعظوا فترق قلوبهم، فإن الشدة تجلب الإنابة، والخشية، ورقة القلب.

ثم بين تعالى أنهم مع تلك المحن والشدائد، لم يزدادوا إلا تمرداً وطغياناً ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ، وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ والمعنى أنه إذا جاءهم العُشب، والخِصب، والثمار، والرخاء، قالوا هذا ببركتنا وسعدنا، ونحن مستحقون لهذا الفضل والإنعام. . وإذا جاءهم القحط والجذب والشدة، تشاءموا بموسى والمؤمنين، وقالوا: هذا البلاء إنما جاءنا بشؤم موسى وبني إسرائيل^(١)، قال تعالى رداً عليهم ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائَرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ما يصيبهم من خير أو شر، فبتقدير الله وقضائه، وليس بشؤم موسى وأتباعه، ولكنهم قوم جهلة ولذلك يقولون ما يقولون.

(١) أصل التطير في اللغة: زجر الطير لمعرفة ما قُدر لهم من الخير والشر، فإذا طار جهة اليمين تفاءلوا بالخير والسعد، وإذا طار جهة اليسار تشاءموا بالبلاء والشر، وهذه من العادات التي انتشرت عند العرب، وهذا معنى قوله تعالى «يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ» أي يتشاءموا به وبأتباعه وأنصاره.

«الآيات التسع التي حَلَّتْ بقوم فرعون»

لا تزال السورة الكريمة «سورة الأعراف» تطالعنا بالقصص الممتع، والأحداث العجيبة، التي زخرت بها السورة الكريمة، حول أخبار وأنباء رسل الله المكرمين، مع الطغاة المفسدين، في شتى الأزمان والعصور، وقصة موسى الكليم، كانت من أبرز القصص القرآني، في هذه السورة الكريمة، حيث جاءت تسرد لنا أخباره مع الطاغية فرعون، بالتفصيل والإسهاب، وما حلَّ بقوم فرعون من النكبات والبلايا، وما ابتلاههم الله به من القحط والجذب، نتيجة إصرارهم على الكفر، وتكذيبهم بآيات الله ومعجزات موسى الباهرات، ومع كل هذه الخوارق والمعجزات، التي أتاهم بها نبيُّ الله موسى عليه السلام، عاندوا وكذبوا، واستمروا في الغيِّ والضلال، فأرسل الله عليهم الطوفان، وكثرة الأمطار المتلفة للزروع والثمار، والجراد الذي حصد البقل والنبات، وأكل الورق والشجر، والقُمَّل وهو «السوس» الذي ينخر الحبوب، ويتلف المدَّخر من الطعام، من قمح، وذرة، وعدسٍ، وسائر أنواع الحبوب، كما أرسل تعالى عليهم الضفادع حتى ملأت بيوتهم ومسكنهم، وإذا تكلم أحدهم وثبت الضفدع إلى فمه، وجعل الله مياههم التي يشربونها تنقلب إلى دم قانٍ، فما يستقون من بئرٍ ولا نهرٍ إلَّا وجدوه دمًا تنفر منه النفس، وكانت هذه البلايا الخمس، مؤشراتٍ على سخط الله وغضبه عليهم، وآياتٍ باهراتٍ، تدل على صدق موسى عليه السلام، فيما جاءهم به من عند الله، ومع كل هذه الدلائل والبراهين، كفروا وعاندوا، ولنستمع إلى آيات الله البينات، وهي تقصُّ علينا أنباء الأقباط من قوم فرعون، وما لاقوه من أنواع المصائب والنكبات ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ . فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ

الطُّوفَانَ، وَالْجَرَادَ، وَالْقُمَّلَ - وهو السوس - وَالضَّفَادِعَ، وَالْدَّمَ، آيَاتٍ مُفْصَّلَاتٍ، فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١﴾.

«تسميتهم الآيات البيئات بالسحر»

وإمعاناً منهم في الضلال، سَمُّوا ما جاءهم به موسى عليه السلام، من الآيات والنُّذُرِ، شعوذةً، ودَجَلًا، وعدُوهُ من قبيل السَّحَرِ، تهكمًا وازدراءً، فقالوا قولتهم الشنيعة ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا، فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ قال ابن عباس: «إن القوم لما قالوا ما قالوا، وكان موسى رجلاً حديداً - سريع الغضب - دعا عليهم، فأرسل الله عليهم الطوفان وهو مطر السماء الغزير، الذي تسببت عنه السيول الجارفة، فامتألت بيوت القبط ماءً، حتى غاصوا في الماء إلى الركب، ومنعهم من الحرث والبناء والتصرف، فاستنجدوا بموسى وطلبوا منه أن يدعوربه لينقذهم من ذلك الكرب والبلاء»^(١)، ثم تابعت عليهم النُّذُرُ من إرسال الجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم، وفي كل مرة يستنجدون ويستغيثون، فإذا كُشف عنهم البلاء، عادوا إلى السَّفَه والجهل والعناد، وفي ذلك يقول الله جلَّ ثناؤه ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ - أي العذاب - قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ أي بما أوحى إليك من النبوة والرسالة ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ، وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال تعالى مخبراً عن كذبهم وسفاههم، وسوء صنيعهم، ونقضهم للعهود التي قطعوها على أنفسهم ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْعُوهِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ. فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا، وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾.

(١) انظر أقوال السلف في أنواع البلاء الذي حلَّ بقوم فرعون في جامع البيان للطبري، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير، وفي تفسير القرطبي والألوسي.

«توريثُ بني إسرائيل ملك فرعون»

ثم تمضي السورة الكريمة لتخبرنا عن نعمة الله العظمى على بني إسرائيل «اليهود» حيث نجاهم من بطش فرعون، وأنقذهم من طغيان الأقباط، الذين استذلّوهم وأهانوهم، وسَخَّرُوهم في أَرْدَلٍ وأَبْشَعِ الأعمال، فأنقذهم الله من ذلك البلاء، وملّكهم دورهم وقصورهم، وجعلهم أعزّة بعد أن كانوا في الذل والهوان ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا، وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرُشُونَ﴾.

«نعم الله الجليلة على بني إسرائيل»

والى هنا تنتهي - أيها الإخوة - قصة فرعون وقومه، وما كان من نتيجةهم المخزية، التي بقيت عظة وعبرة على مدى الأزمان، وابتدىء الحديث عن بني إسرائيل، وما أغدق الله عليهم من النعم الجسام، وأراهم من الآيات العظام، تسليّة للمؤمنين وللرسول عليه الصلاة والسلام، وتذكر ما قابل به اليهود نِعَمَ الله وإفضاله، من سوء الفعل والصنيع، وذلك كبرهان واضح على لَجَاجِهِم وعنادهم، وتلك هي طبيعة اليهود، المتأصلة في نفوسهم، من التمرد والعناد، وفيهم يقول الباري تقدست أسماؤه: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ، فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ، قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ، قَالَ: إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ. إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبَرِّ مَا هُمْ فِيهِ وَيَاطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

يا للّعجب العُجَاب من صنيع هؤلاء اليهود، أغرق الله عدوهم فرعون وقومه، ونجّاهم مما كانوا فيه من الظلم والاضطهاد، وأورثهم ديار الظالمين، فعادوا إلى اللّجّاح والعناد، يطلبون من نبيهم موسى أن

يصنع لهم أصناماً يتقربون بعبادتها إلى الله، وإنه لمتهى الحمافة والسُّفه، ولهذا ذكَّره موسى بأسلوب التعجب والاستنكار لمثل هذا الطلب العجيب، ممَّن يدَّعي الإيمان والتوحيد ﴿قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾؟.

«تذكير بني إسرائيل بنعم الرب الجليل»

ثم تتابعت الآيات وهي تطالعنا بأسلوبها العجيب عن أخبار بني إسرائيل، وما أكرمهم الله به من أنواع النعم، حيث أنقذهم من طغيان فرعون وجبروته، وما كان يفعله معهم من ضروب البطش والتنكيل، فقد استعبدهم واستذلَّهم، وقتل أبناءهم، واستحيا نساءهم، إلى أن أهلكه الله وقومه، ونجَّى بني إسرائيل من ذلك العذاب المهين، وقد جاءت الآيات تذكَّره بتلك النعم الجليلة، ليشكروا ربهم عليها، ويستجيبوا لدعوة نبيهم موسى عليه السلام، الذي بعثه الله رحمة لهم، ومنقذاً لهم من الكرب والضيق، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ، وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ، وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

«وعد الله لموسى بإنزال التوراة عليه»

وتتابعت الآيات تسردُّ على مسامعنا الأحداث الجليلة، التي حدثت لنبيِّ الله الكريم، «موسى بن عمران» عليه أفضل الصلاة والتسليم، فقد وعده الله أن ينزل عليه كتاباً، يكون دستوراً لبني إسرائيل، يسيرون على منهاجه في حياتهم الدنيا، ليسعدوا بتطبيق شريعة الله، بعد أن عاشوا رذحاً طويلاً من الزمان، في العبودية والذل والهوان ﴿وَوَاعَدْنَا

مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ، فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي، وَأَصْلَحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١﴾ روى أن موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وهو بمصر، إن أهلك الله عدوهم، أن يأتيهم بكتاب من عند الله، فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب، فأمره بصوم ثلاثين يوماً، وهي شهر ذي القعدة، فلما أتم الثلاثين أنكر خلوف فمه - أي تغير رائحته - فتسوّك، فأوحى الله تعالى إليه: أما علمت يا موسى أن خلوف فم الصائم، أطيب عندي من ريح المسك؟! فأمره الله أن يزيد عليها عشرة أيام^(١)، فذلك قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾ أي وعدنا موسى لمناجاتنا بعد مضي ثلاثين ليلة، وأكملناها بعشر ليالٍ، فتمت المناجاة بعد أربعين ليلة.

«شوق موسى الكلیم لرؤية ربه الجليل»

ثم وضحت الآيات ما كان في ذلك اللقاء، بين العلي الكبير، وبين عبده ورسوله موسى الكلیم، حيث إنه بعد أن سمع كلام الجليل، اشتاق إلى رؤية ربه، فطلب من الله جلّ وعلا أن يريه ذاته المقدسة، - يعني بالبصر - لأن التلذذ بسماع كلام الحبيب، يزيد في الشوق إليه والحنين، فهو قد سمع الكلام دون وساطة المَلَك، فأحب أن يتم له السرور برؤية المولى الجليل ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا - أي للوقت الذي حدّدناه له - وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ، قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ، قَالَ: لَنْ تَرَانِي، وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ، فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ، تُبَّتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ والمعنى: لما ظهر وبان من جلال الله

(١) ذكره المفسرون: الطبري، والقرطبي، وابن كثير، والألوسي وغيرهم من المفسرين.

ونوره على جبل الطور شيء يسير، اندك الجبل وتفتت وتطاير، وسقط موسى مغشياً عليه مغمىً، من هول ما رأى وشاهد، قال ابن عباس: ما تجلّى منه سبحانه للجبل إلا قدر الخنصر، فصار الجبل تراباً مهياً، وخرّ موسى مغشياً عليه^(١).

«رؤية الله في الدنيا ممنوعة وفي الآخرة مشروعة»

وموضوع رؤية الله جلّ وعلا في هذه الدنيا ممنوعة، حتى على الأنبياء والرسل الكرام، لأن الطاقة البشرية في هذه الحياة محدودة، وأما في الآخرة فلا حدود ولا قيود، وهي للمؤمنين في دار الخلد والنعيم مقطوع بها كما قال سبحانه ﴿وَجُودَ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ وهذا هو مذهب أهل السنة قاطبة، أن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة، رؤية بصرية، ويعطيهم الله من الطاقة والقدرة ما يؤهلهم لتلك الرؤية، وأنكرت بعض الطوائف رؤية الله عزّ وجلّ مطلقاً، وقالوا لا يرى الله، لا في الدنيا ولا في الآخرة، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾ وهو مذهب المعتزلة، وليس لهم في هذه الآية متمسك، بل هي دليل لأهل السنة والجماعة، على إمكان الرؤية، لأنها لو كانت مُحالاً لم يسألها موسى الكليم، وهو نبيّ من أولي العزم، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، يعلمون ما يجوز على الله وما يستحيل، ولو كانت الرؤية مستحيلةً لكان في الجواب له زجرٌ وإغلاظٌ، كما قال تعالى لنوح عليه السلام ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ولو كانت الرؤية غير ممكنة في الآخرة، لما كان هناك فائدة من حجب الكفار عن رؤية الجبار ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾.

(١) ذكر هذا الأثر الحافظ ابن كثير في تفسير ٤٨/١٥ وكذلك ابن الجوزي والألوسي.

«عدم الرؤية لضعف البنية البشرية»

فهذا المنع من رؤية الله إنما هو في الدنيا، لضعف البنية البشرية عن ذلك، قال مجاهد: إن الله قال لموسى حين طلب رؤيته «لن تراني» لأنك لا تطيق ذلك، ولكن سأتجلى للجبل، الذي هو أقوى وأشد منك، فإن استقر وأطاق الصبر لهيتي وجلالي، أمكن لك أن تراني، وإن لم يُطق الجبل، فأحرى ألا تطيق أنت»^(١) وعلى قول مجاهد فقد جعل الله الجبل مثلاً لموسى، ولم يجعل الرؤية مستحيلة على الإطلاق، وقد جاء في الخبر أن نبينا ﷺ رأى ربه ليلة المعراج بعين الرأس^(٢)، وفي ذلك دليل على أفضليته على موسى، وكانت رؤية في عالم غير هذا العالم، لأنها كانت في الملأ الأعلى، وشتان بين من اتخذه الله لنفسه حبيباً، وقربه إليه بلطفه تقريباً، وبين من ضرب له الحجاب، وخرَّ صعقاً من جلال ربّ الأرباب!!.

«نزول التوراة فيها الحلال والحرام»

لا تزال السورة الكريمة تتحدث في آياتها البينات، عن قصة موسى الكليم مع قومه من بني إسرائيل، وقد أفاضت هذه السورة في ذكر الأحداث التي وقعت لموسى عليه السلام، مع بني إسرائيل كنموذج لبيان ما انطوت عليه نفوس هؤلاء الأقوام، من جحود وعصيان، وبغي وإجرام، فمع كثرة النعم، وترادف المنن العظيمة التي خصهم الله بها دون سائر الخلق، قابلوها بالاستكبار والعناد، سفهاً منهم وجهلاً، والآيات الكريمة تتحدث عن إكرام الله لبني إسرائيل بإنزال التوراة، فيها كل ما يحتاجون إليه من المواعظ، والإرشادات الإلهية، والأحكام الشرعية المفصلة للحلال والحرام، وموقفهم من هذا الكتاب المقدس، الذي

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٤٩/١.

(٢) هذا قول ابن عباس وإليه ذهب بعض العلماء.

نزل لسعادتهم ، فجعلوه وراءهم ظهيراً ، واختاروا طريق الغي على طريق الهدى والرشاد ﴿ وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ ، فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ، وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ، سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ . سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ . وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ ، حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

«عبادة بني إسرائيل للعجل»

ثم تمضي السورة تطالعنا على ما كان من بني إسرائيل من فسادٍ وإجرام ، وكفر وعدوان ، فقد اتخذوا لهم إلهاً صنعوه بأيديهم من الحليّ والجواهر ، وصوّروه بصورة عجل من البقر ، وانكبوا عليه يعبدونه من دون الله ، في غيبة نبيّهم موسى عليه الصلاة والسلام ، والعجب من أمر هؤلاء السفهاء ، كيف عبدوا العجل واتخذوه إلهاً ، مع أنه ليس فيه شيء من صفات الإله القادر ، الخالق الرّازق ، فهو لا يملك قدرة الكلام ، ولا قدرة هدايتهم إلى سبيل السعادة والنجاة ، فكيف يُتخذ إلهاً من دون الله؟! ولكن إذا عرفنا أن طبيعة هؤلاء اليهود هو حبُّ المادية ، الذي سيطر على قلوبهم وأسماعهم ، زال العجب ، فهم أناسٌ قد انتكسوا إلى درجة الحيوانية ، من تقديس المال وعبادة الذهب ، فنفسهم وضيعة مهينة ، لم تَسْمُ إلى العلياء ، ولم تتخلّص من القاذورات والأدران ، فلا عجب أن يعبدوا عجلاً من البقر له خوار ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُورٌ ، أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً ؟ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ والاستفهام في قوله «أَلَمْ يَرَوْا» للتقريع

والتوبيخ، أي ألم يدركوا بعقولهم مهانة هذا الإله المزعوم، الذي لا قدرة له على الكلام، ولا على النفع والضرر؟ فكيف اتخذوه إلهاً وعبدوه من دون الله؟! .

«قصة موسى والسامري»

قال المفسرون: جمع رجل من المنافقين يسمّى «السامري» الحليّ التي كانت مع بني إسرائيل، وكان رجلاً مطاعاً فيهم ذا قدر ونفوذ - وذلك في غيبة نبي الله موسى الكليم، حين ذهب لمناجاة ربه - ثم صهرها وصاغ منها عجلاً، وجعل ذلك العجل مجوّفاً، ووضع في جوفه أنابيب على وجه مخصوص، ثم وضع التمثال على مهبّ الرياح، فظهر منه صوتٌ شديد، يشبه صوت خوار البقر، فذلك قوله تعالى: ﴿عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورًا﴾ .

وقال الحافظ ابن كثير: يخبر تعالى عن ضلال من ضلّ من بني إسرائيل في عبادتهم العجل، الذي اتخذوه لهم السامريّ من الحليّ، فشكّل لهم منه عجلاً جسداً لا روح فيه، وقد احتال بإدخال الريح فيه حتى صار يُسمع له خوار أي صوت كصوت البقر^(١).

وفي قوله تعالى: ﴿عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورًا﴾ تنبيه على أنه لم ينقلب إلى عجلٍ حقيقي من لحم ودم، وإنما هو عجلٌ من ذهب، يشبه في شكله صورة العجل الحقيقي، فهم يعرفون أنه من ذهب، ليس له من الحقيقة إلا صورة الجسد، ولكنهم فُتّنوا به لصوته الرخيم، لجوّاره وخوّاره، فقالوا: لو لم يكن إلهاً لما كان له هذا الصوت العجيب؟ فانكبوا عليه يعبدونه، ويتضرعون إليه ويستنجّدونه، وقد وبّخهم القرآن وشنّع عليهم على هذا السّفه والضلّال، فقال سبحانه مُزّياً بعقولهم: ﴿أَلَمْ يَرَوْا

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٥١/٢ .

أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١﴾ وكان الآية تقول: من حق الإله أن يكون هادياً، متكلماً، مرشداً إلى سبيل الحق ومنهاجه، فكيف يكون هذا العجل إلهاً وليس له شيء من هذه الصفات؟.

«ندم اليهود على تلك الجناية»

ثم بين تعالى ندم هؤلاء اليهود، وحسرتهم على ما ارتكبوا من جناية، بعد أن عاد إليهم نبيهم موسى، وبين لهم ضلال ما فعلوه فقال سبحانه: ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي ندموا على جنايتهم واشتدَّ ندمهم ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ويا لها من سقطة هوى بها بنو إسرائيل إلى أسفل سافلين، بعبادتهم ذكر البقر ألا وهو «العجل»، ولكن الجنس يألفه الجنس، فلو لم يكونوا من صنف البقر، ما عبدوا عجلاً له خوار؟! وحين رجع موسى إلى بني إسرائيل، ورأى ما رأى من ضلال قومه، طرح الألواح من يده التي فيها أحكام التوراة، من شدة الغضب وفرط الضجر، غضباً لله، وأخذ برأس أخيه هارون يجره من شعره، ظناً منه أنه قد قصر فلم ينههم عن ذلك الضلال، قال ابن عباس: «لما عاين قومه وقد عكفوا على عبادة العجل، ألقى الألواح فكسرها غضباً لله، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وكان ﷺ رجلاً حديداً أي سريع الغضب لانتهاك محارم الله»^(١) وإلى ذلك تشير الآيات البينات ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا - أي شديد الحزن - قَالَ بِشْمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي؟ أَعْجَلْتُمْ

(١) انظر تفسير الطبري، وابن الجوزي، والنيسابوري، وقد ورد في الحديث الذي أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس مرفوعاً أن النبي ﷺ قال: «يرحم الله موسى، ليس المعابين كالمُخْبِر، أخبره ربه عز وجل أن قومه فُتِنوا بعده، فلم يلتقي الألواح، فلما رآهم وعابنهم ألقى الألواح».

أَمَرَ رَبُّكُمْ وَالْقَى الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ، قَالَ ابْنَ أُمٍّ إِنَّ
الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ، وَلَا تَجْعَلْنِي
مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ
أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠﴾

«توبيخ لمن عبدوا غير الله»

تحدثت الآيات السابقة عن أمر عبادة اليهود للعجل، في غيبة نبيهم
موسى عليه الصلاة والسلام، ولا تزال الآيات الكريمة تفرع بحججها
الدامغة، آذان أولئك الضالين، فقد أعجبهم منظر ذلك العجل، وسحروهم
صوته وخواره، فانكبوا عليه يعبدونه من دون الله، وذلك من أوضح
البراهين على أن «الوثنية» كانت متأصلة في نفوسهم، حتى وهم في حياة
نبيهم، ما انفكوا عن عبادة البقر والجماد، وفيهم يقول الله سبحانه وتعالى
مُزْرِيًّا بِعَقُولِهِمْ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ، سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ
وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ ومع ذلك الضلال الذي
وقع فيه بنو إسرائيل، ومع إغراقهم في الوثنية وعبادة الأحجار والأبقار،
فقد فتح الله تعالى أمامهم أبواب الرحمة، ليرجعوا إلى ربهم، ويُنْبِئُوا
إِلَيْهِ، وَيَقْبَلُوا عَلَيْهِ بِقُلُوبٍ خَاشِعَةٍ مَنكسرة، ليغفر لهم ما اقترفوه من أوزار
وأضرار ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا بِرَبِّهِمْ مِنْ
بَعْدِهَا لَغُفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وفي هذه الآية إعلام من الباري جلَّ وعلا لعباده،
بأن الذنوب وإن جَلَّتْ وَعَظُمَتْ، فإن رحمة الله وعفوه أعظم وأجلُّ،
حتى لا يقنط عبدٌ من رحمة مولاه، وما أحسن قول القائل:

يَا رَبِّ إِنَّ عَظُمَتْ ذُنُوبِي كَثْرَةً فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
إِنْ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ فَبِمَنْ يَلُودُ وَيَسْتَجِيرُ الْمُجْرِمُ؟

«غضب موسى وتكسيره للألواح»

وتتلاحق الآيات الكريمة، وهي تصوّر لنا حالة نبيّ الله موسى الكليم، وهو يرى قومه بني إسرائيل وهم يعكفون على عبادة عجل من البقر، فتتحرك في نفسه ثورة الغضب لله جلّ وعلا، فيلقي الألواح التوراة من يديه، ويُقبل على أخيه يجرّه من شعر رأسه، ظناً منه أنه قد قصّر معهم، ثم بعد أن تهدأ عاصفة الغضب، يرجع إلى الألواح التي كان قد ألقاها فيحملها، وفيها أوامر الله ونواهيه، وهُداة وبيّانه ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نُسخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِربِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾.

ولننظر - أيها الإخوة - إلى روعة البيان في إعجاز القرآن، فقد شبّه الغضبَ بشخصٍ يزمرجر ويُرعد، طالباً الانتقام ممن عصى أمر الرحمن، ثم اختفى ذلك الصوت فلم يعد يُغريه، فترك النطق والكلام، وهذا ما يسمى في قانون البلاغة العربية بالاستعارة التبعية، ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ ولم يقل: ولما ذهب عنه الغضبُ أو زال عنه الغضب، وهذا التعبير في أعلى ذروة الفصاحة البيانية، التي اختصّ بها القرآن.

«اختياره سبعين رجلاً من بني إسرائيل»

وتنتقل الآيات بنا بعد ذلك، إلى مشهد آخر في دعوة موسى عليه السلام مع قومه، تكشف لنا طبيعة هؤلاء اليهود، وعتوّهم وعنادهم، وإغراقهم في البغي والعدوان، فقد أمر تعالى موسى، أن يختار من قومه سبعين رجلاً من بني إسرائيل، من أفاضلهم وأعيانهم، ويذهب بهم إلى جبل الطور، ليعتذروا عن عبادتهم للعجل، عند مكالمته لربه، فاختار منهم ذلك العدد، وأمرهم أن يتطهّروا ويطهّروا ثيابهم، ثم خرج بهم إلى طور

سيناء، فلما أتوا ذلك المكان، وأوحى الله إليه ما أوحى، قالوا له يا موسى لقد كلمك ربك، فاطلب لنا منه أن نراه ونرى جلاله، فحذّرهم نبيهم عاقبة ذلك الطلب فقالوا له «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً» فنزلت عليهم صاعقة من السماء، فهلكوا وماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: ربّ ماذا أقول لبني إسرائيل وقد أهلكت خيارهم؟ أتهلكنا بما فعل السفهاء منا؟ وإلى ذلك تشير الآيات الكريمة في قوله سبحانه: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا - أَيِ اللّوْقَتِ الَّذِي حَدَدْنَاهُ وَعَيْنَاهُ لَهُ - فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ - أَيِ فَلَمَّا رَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ وَصُعِقُوا - قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ، أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا، إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي ما هذه المحنة إلا ابتلاء منك لعبادك وامتحان ﴿تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ، أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ واستمر نبي الله موسى الكليم، يدعو ربه الرحيم، ليكشف عن قومه البلاء، بهذا الدعاء الخاشع المنيب ﴿وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ﴾ أي تبنا ورجعنا إليك من جميع الذنوب والمعاصي ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ، وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ، وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ - أَيِ يَرْفَعُ عَنْهُمْ التَّكَالِيفَ الشَّاقَّةَ الَّتِي تَشَبَّهُ الْأَغْلَالَ - فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ، وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ، وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وهكذا تكشف لنا الآيات عن طَرَفٍ من أخلاق اليهود، وسيرتهم المنحرفة عن طريق الهداية مع الله ورسله، فإذا كان هذا حال الأخيار فيهم، طلبوا من

نبيهم رؤية الله، فكيف بحال الأشرار والفجار؟ صرف الله أذاهم عن الإنسانية، وقطع دابرهم، إنه سميع مجيب الدعاء.

«نبع عيون الماء من الحجر»

لقد تحدثت سورة الأعراف بالتفصيل عن أخبار بني إسرائيل، بما حوته من قصص ممتع، في ذروة الفصاحة والبيان، ولا تزال الآيات تكشف لنا عن طبائع اليهود من بني إسرائيل، وتحكي لنا صوراً عن مآسيهم ومخازيهم، وتمردهم وعصيانهم لأوامر الله، فقد قابلوا النعم الجليلة، بالجحود والكفران، وذلك حين كانوا في الصحراء في أرض التيه مع نبيهم موسى عليه السلام، واشتد بهم العطش والجوع، فطلبوا من نبيهم أن يدعو ربه لينقذهم من الهلاك، فأمره تعالى أن يضرب لهم الحجر، فتفجّر لهم منه عيون الماء، وأرسل الله عليهم المنّ والسلوى من السماء، وظلّلهم من وهج الشمس بالغمام، فكان ذلك لهم آيات باهرة، على إنعام الله وإفضاله عليهم، ومع ذلك لم يشكروا ربهم على هذه النعم، بل أمعنوا في الغي والضلال، فسلبهم الله تلك النعم، وفي ذلك يقول القرآن الكريم ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ أي صيّرناهم فرقاً وقبائل شتى، وميّزنا بعضهم من بعض، كيلا يتحاسدوا ويتباغضوا ويقع بينهم الفتن والهرج، وجعلناهم اثنتي عشرة قبيلة ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ، فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ أي فضربه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً من عيون الماء بعدد القبائل ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ، وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ، وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى، كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ، وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وفي الكلام شيء مقدّر محذوف أي فكفروا نعمتنا ولم يشكروها، وما ظلمونا بهذا الجحود، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

هذه نعم الله تتوالى على اليهود، وهم في الصحراء في أرضٍ مضيقَةٍ، ولكنهم لا يشكرون المنعم على إنعامه وإفضاله، ويكرمهم الله - بدعاء نبهم - بالمنّ والسلوى، ينالونه دون جهدٍ وتعب، والمنّ شيءٌ حلّو ينزل على الشجر، والسلوى طائرٌ لذيد اللحم يسمى «السُّماني» قد أعدّه الله لطعامهم، ولكنهم - لفساد عقولهم ومزاجهم - يطلبون أن يُبدلهم الله به العدس، والبصل، والثوم، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ، فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا، وَفُومِهَا، وَعَدَسِهَا، وَبَصِلِهَا، قَالَ أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ؟ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ..﴾ (١) الآية.

«دخولهم بيت المقدس يزحفون على المقاعد»

ثم تمضي السورة تكشف لنا وجهاً آخر من مخازي اليهود، وتطالعنا بصفحة جديدة من طغيانهم، وعدوانهم، واستهزائهم بأوامر الله، فقد أمروا بأن يدخلوا «الأرض المقدسة» أرض بيت المقدس، ساجدين شاكرين، وأن يقولوا عند دخولها: اللهم حطّ عنا ذنوبنا، ليغفر الله لهم كل خطيئة، فماذا فعل أولئك السفهاء؟ لقد غيروا أوامر الله، فدخلوا يزحفون على أستاذهم - أي مقاعدهم - بدل أن يدخلوا خاشعين ساجدين لله رب العالمين، وقالوا في دعائهم: حَبَّةُ حِنْطَةٍ بدل أن يقولوا «حِطَّة» سخريّة واستهزاءً، فأرسل الله عليهم عذاباً من السماء هو الطاعون، فمات منهم في ساعة واحدة ما يزيد على أربعة وعشرين ألفاً كما ذكر المفسرون، وإلى ذلك تشير الآيات الكريمة ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ، وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ، وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي حطّ عنا (١) سورة البقرة آية رقم ٦٢/.

ذُنُوبِنَا يَا رَبِّ ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا، نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ، سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ. فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ - أَيِ عَذَابًا مِنَ السَّمَاءِ - بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾.

«قصة أصحاب القرية»

ثم تتابعت الآيات تذكر لنا قصة عجيبة «قصة أهل القرية» التي كانت على شاطئ البحر، وهي قرية «أيلة» كانت سكنى لليهود، على طرف بحر القلزم، وأراد الله أن يمتحنهم في يوم السبت الذي حُرِّمَ عليهم فيه الصيد، هل يمثلون أمر الله، أم أنهم يعبدون المادة والمال؟ فكان سبحانه يرسل لهم الحيتان والأسماك يوم السبت بكثرة ووفرة، بحيث لكثرتها لا يكاد يرى الماء، وفي غير يوم السبت لا تأتيهم تلك الحيتان، ابتلاءً من الله وامتحاناً، ولكن اليهود - وهم أناس قد برعوا في المكر والاحتيال، وعبادة المال - تظاهروا بالطاعة والانقياد، فلم يصطادوا يوم السبت، ولكنهم صنعوا حيلةً مأكرة، فبنوا أحواضاً كبيرة، فإذا كان يوم السبت وأقبلت الحيتان نحوهم، وضعوا حواجز لها لئلا تستطيع العودة، ثم يأتون فيأخذونها يوم الأحد، ويحتالون في صيدها وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ﴾ أي قرية من البحر وعلى شاطئه ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ أي يعتدون يوم السبت باصطيادهم فيه، ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعاً﴾ أي حين كانت الأسماك تأتيهم يوم السبت كثيرة ظاهرة على وجه الماء ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ أي وفي غير يوم السبت تغيب عنهم وتختفي ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي نبتليهم ونمتحنهم بسبب فسقهم وانتهاكهم حرمة الله.

«انقسامهم إلى ثلاثة أقسام»

وحين خالفوا أمر الله، واحتالوا على اصطياد السمك، إمعاناً منهم في الغي والضلال، انقسم أصحاب القرية إلى ثلاث فِرَقٍ: فرقة عصت فحلَّ بها العذاب، وفرقة نهت ووعظت فنجَّها الله من العذاب، وفرقة اعتزلت فلم تنه ولم تقارف المعصية، وقد سكت عنها القرآن، قال ابن عباس: ما أدري ما فُعل بالفرقة الساكتة أنجوا أم هلكوا؟ قال عكرمة: فلم أزل به حتى عرَّفته أنهم قد نجوا، لأنهم كرهوا ما فعله أولئك فكساني حُلَّة^(١)، وإتماماً للقصة يذكِّرنا القرآن في آياته البينات بما حلَّ بأولئك الأشقياء فيقول تقدست أسماؤه: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مَهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا، قَالُوا مُعَذِّبَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ. فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ، وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ، فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهَوْا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾.

«تسليط المجوس على بني إسرائيل»

ثم تتابع السورة بأسلوبها الممتع؛ فتتحدث عن أولئك الأقوام المتمردين على الله، الذين تفننوا في طرق البغي والإجرام، حتى مسخهم الله قردة وخنازير، كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهَوْا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ وبعد أن ذكرت السورة الكريمة ما حلَّ بأهل القرية، الذين خالفوا أمر الله واصطادوا يوم السبت، ولم تُجد معهم النصائح والمواعظ، ذكر تعالى ما سيحلُّ بأحفادهم أعداء الإنسانية، من ألوان العذاب والتشريد، فإنهم جرثومة الشرِّ، وأساس البلاء في كل زمان ومكان، والأحفادُ على دين الأجداد، في البغي

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره ٥٩/٢.

والفساد، ولذلك فقد توعدّهم الله بتسليط العذاب عليهم إلى يوم القيامة، بأيدي المؤمنين أو الكافرين، ليزيقهم جزاء ما كسبوا من سيّء الأعمال، وعن هؤلاء اليهود تتحدث الآيات ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ومعنى الآية الكريمة: اذكر حين أعلم ربك، علماً يقينياً قاطعاً، أنه سيسلّط على اليهود من يزيقهم أسوأ العذاب، بسبب عصيانهم ومخالفتهم لأمر الله، وانتهاكهم لمحارمه، وقد سلّط الله عليهم «بختنصر» المجوسي فقتلهم وسباهم، وسلّط عليهم النصاري فأذلوهم وقهروهم وضربوا عليهم الجزية، وسلّط عليهم خاتم الأنبياء محمداً ﷺ فطهّر الأرض من رجسهم، وأجلاهم عن الجزيرة العربية، وسلّط عليهم أخيراً «هتلر» النازي فاستباح حماهم، وكاد يبيدهم ويفنيهم، بالقتل والتشريد في الأرض، ولا يزال وعدّ الله بتسليط العذاب عليهم سارياً إلى أن يقتلهم المسلمون في المعركة الفاصلة إن شاء الله، تحقيقاً لما أخبر عنه المعصوم، الذي لا ينطق عن الهوى، محمد بن عبدالله، وذلك فيما رواه مسلم في صحيحه، أن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي وراء الشجر أو الحجر، فينطق الله الشجر والحجر، فيقول: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي ورائي تعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود»^(١).

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه، وتكليم الحجر والشجر حقيقة لا بدّ واقعة، لأنها من علامات الساعة، وهذا الحديث إحدى معجزات الرسول ﷺ عن الأمور الغيبية، وقد ظهرت بشائر هذا النصر، بتجمع اليهود في أرض فلسطين، ليزبحوا على أيدي المسلمين إن شاء الله، وهم يظنون أنها وطنهم، وستكون مقبرة لهم، حسب الوعد النبوي الكريم.

«أكل اليهود للربا والسحت»

وبعد هذا البيان الشافي عن جرائم اليهود، وما كتبه الله عليهم من التشرد والضياع، بسبب بغيهم وإجرامهم، ذكر سبحانه أنه ألزمهم الذل والصغار، وفرّقهم في البلاد طوائف وفرقاً، ففي كل بلدة فرقة منهم، وليس لهم إقليم يملكونه، حتى لا تكون لهم شوكة فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ أي فرقناهم فيها تفريقاً شديداً، فلا يكاد يوجد بلد إلا وفيه منهم طائفة ﴿مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ أي منهم ناس صالحون، وهم الذين تمسكوا بالتوراة في زمن موسى وهم قلة قليلة، ومنهم ناس منحطون أشرار فجّار، وهم الكثرة الغالبة ﴿وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي اختبرناهم بالنعم والنقم، والشدة والرخاء، لعلهم يرجعون عن الكفر والعصيان إلى الهدى والإيمان!!.

«الأبناء على قدم الآباء في الإجرام»

ثم ذكر تعالى أن الأبناء كانوا أتعس من الآباء، وأكثر انحرافاً وفساداً، وأن من جاء بعدهم من الخلف كانوا شرّاً من السلف فقال سبحانه ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ أي جاء من بعد ذلك الجيل من بني إسرائيل، جماعة آخرون خلفوهم في السوء والشر ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ أي ورثوا التوراة عن آبائهم، يأخذون ذلك الشيء الدنيء من حطام الدنيا من حلال وحرام، ويقولون متبجحين: سيغفر الله لنا ما فعلناه، وهذا اغترار منهم وكذب على الله، قال تعالى مبيناً سوء عاقبتهم ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ، أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ،

وَدَرَسُوا مَا فِيهِ، وَالْدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾؟ وكأنه تعالى يزري عليهم تلك الحماسة ويقول: يرجون المغفرة وهم مصرُّون على الذنب؟ كلما لاح لهم شيء من حطام الدنيا سارعوا إليه، لا يبالون أمن حلالٍ هو أم من حرام؟ ألم يأخذ الله عليهم العهد المؤكد في التوراة، أن يقولوا الحق ولا يكذبوا على الله؟ فكيف يزعمون أنه سيُغفر لهم مع إصرارهم على المعاصي وأكل الحرام؟ وقوله تعالى ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ فيه أعظم التسفيه والتوبيخ، أي والحال أنهم درسوا ما في الكتاب، وعرفوا ما فيه المعرفة التامة، من الوعيد على قول الباطل، والافتراء على الله؟ ولم يكونوا جاهلين بالأحكام الشرعية، بل هم أكلوا السحت والحرام، عن بيّنة وعلم تام، وقد ختم الله الآية بقوله: ﴿وَالْدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ أي وما أعدّه الله للمؤمنين الأتقياء، خيرٌ من هذه الحياة الفانية، ولو كانوا عقلاء لما آثروا الفانية على الباقية، ثم أثنى تعالى على من حافظ على العهد، وتمسك بأحكام التوراة من بني إسرائيل، وأصلح سيرته وعمله، فقال تقدست أسماؤه ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ وهكذا يذكر الله الأخيار والأشرار، والمتقين والفُجَّار، ليحذّرنا من سلوك طريق اليهود، الذين نقضوا العهود، وأكثروا في الأرض الفساد، ويرفع قدر من استمسك بالهدى والرشاد، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب.

«اقتلاع جبل الطور ورفع فوق رؤوسهم»

وبعد أن أفاضت السورة الكريمة في الحديث عن بني إسرائيل، أولئك الذين كتب الله عليهم التشرّد والضياع، بسبب ما اقترفوه من موبقات وآثام، وبعد أن حكى تعالى عنهم ما جرى لهم على

يدي فرعون، من التقتيل والتنكيل، وما أكرمهم به من التمكين في الأرض، وإنزال التوراة عليهم نوراً وهداية، ذكر تعالى هنا تمرّدهم على تنفيذ أحكام الله، وعدم قبولهم لشرائع التوراة، حتى أمر الله جبريل عليه السلام أن يقتلع جبل الطور، ويرفعه فوق رؤوسهم، فإن رضوا بحكم التوراة وإلاّ سحقهم به، فذلك قوله سبحانه ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ، وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ، خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ، وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قال المفسرون: روي أن اليهود أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة، لثقلها وشدتها عليهم، فرفع جبريل عليهم الطور فوق رؤوسهم، حتى صار كأنه سقيفة أو ظلّة غمام، وقيل لهم: إن قبلتموها بما فيها وإلاّ ليقعنّ عليكم الجبل، فلما نظروا إلى الجبل خرّ كل واحدٍ منهم ساجداً على حاجبه الأيسر، وهو ينظر بعينه اليمنى خوفاً من سقوطه، فلذلك لا ترى يهودياً يسجد إلا على حاجبه الأيسر، ويقولون: هي السجدة التي رُفعت عنا بها العقوبة، ومعنى قوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أي خذوا التوراة بجدّ وعزيمة، وطبّقوا أحكامها كما أمركم الله بإيمانٍ صادق ويقين، وإلاّ سحقكم الله بهذا الجبل.

«أخذ العهد على ذرية بني آدم»

وإلى هنا ينتهي الحديث عن أخبار بني إسرائيل، وما فيها من الأحداث العجيبة التي تدعو إلى الدهشة والاستغراب، وبعد هذا البيان المستفيض، ذكر تعالى ما يجري مَجْرَى تقرير الحجة على جميع المكلفين، فقد أخذ الله على ذرية آدم العهد والميثاق، على أن يؤمنوا به جلّ وعلا، ويصدّقوا بوحدانيته، وهم في أصلاب آبائهم، وأرحام أمهاتهم، فأقرّوا وأذعنوا، واعترفوا لله بالربوبية والوحدانية، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ

ذَرَيْتَهُمْ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا، أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ، وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ، أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ. وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٠﴾ وللمفسرين في هذه الآية قولان:

أحدهما: أن الله لما خلق آدم، أخرج ذريته من صلبه وهم مثل الذر - أي صغار مثل النمل - وأخذ عليهم العهد بأنه ربهم، فأقروا وشهدوا بذلك.

والثاني: أن هذا من باب «التمثيل والتخييل» والمعنى أنه سبحانه نَصَبَ لعباده الأدلة على ربوبيته ووحدانيته، وشهدت به عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم، وجعلها مميّزة بين الضلالة والهدى فكانه تعالى قرّرهم فاعترفوا وآمنوا وقالوا بلى أنت ربنا. . قالوا وباب التمثيل واسع في كلام العرب كقول القائل: قال الحائط للمسمار لم تشقني؟ قال: سل من يدقني، قالوا والحائط لا يتكلم، والمسمار لا يجيب، إنما هو من باب التمثيل، والبراعة في التصوير، ومثله قول الشاعر: «امتلاً الحوض وقال قطني» وحملوا عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ وقوله سبحانه: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ وهذا الرأي اختاره الزمخشري وأبو حيان وأبو السعود.

وأما القول الأول فقد ذهب إليه كثير من مشاهير المفسرين كسعيد بن المسيّب، وسعيد بن جبیر، والضحاك وهو مروي عن حبر الأمة عبدالله بن عباس رضي الله عنه وأرضاه، وهو الأصح والأرجح.

ويشهد له ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تبارك وتعالى خلق آدم، ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذرية فقال:

خلقت هؤلاء للجنة، ويعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذريةً، فقال: خلقت هؤلاء للنار، ويعمل أهل النار يعملون، فقال رجل يا رسول الله: فقيم العمل؟ فقال رسول الله ﷺ: إن الله إذا خلق العبد للجنة، استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عملٍ من أعمال الجنة، فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار، استعمله بعمل أهل النار، حتى يموت على عملٍ من أعمال أهل النار، فيدخله به النار»^(١).

وهذا الحديث الشريف يقوي مذهب من قال: إن ذلك حقيقة وليس بتمثيل، فالله تعالى قد استخرج من آدم من سينسلون من ذريته، المؤمنين والكفار، وأشهدهم جلّ وعلا على ربوبيته ووحدانيته فأقرّوا وآمنوا وأذعنوا، والله على كل شيء قدير، ومثل هذا لا يمنع أن يحدث على الإنسان، ما قدره عليه خالق الأكوان.

«من غرائب القصص»

وبعد هذا البيان المستفيض، عن الأبرار والفجار، من أهل السعادة أو الشقاوة، ذكرت السورة الكريمة قصّةً من غرائب القصص، قصة ذلك العالم من بني إسرائيل «بلعم بن باعوراء» الذي منحه الله العلم، وأكرمه بمعرفة اسم الله الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، ولكن ذلك الشخص لم ينتفع بعلمه، بل كان العلم شقاءً ووبالاً عليه، لأنه باع الدين طمعاً في حطام الدنيا، وفيه يقول القرآن الكريم ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ

(١) الحديث أخرجه الترمذي في سننه، ورواه أبو داود والنسائي، وقال الترمذي: حديث حسن.

وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴿ ثُمَّ ضَرَبَ لَهُ تَعَالَى مَثَلًا مِنْ أَشْنَعِ وَأَقْبَحِ الْأَمْثَلَةِ، شَبَّهَهُ بِالْكَلْبِ اللَّاهِثِ فَقَالَ ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ، أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ، ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ. سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «هُوَ بَلْعَمُ بْنُ بَاعُورَاءَ كَانَ عِنْدَهُ اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمِ»، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «هُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعَثَهُ مُوسَى إِلَى مَلِكِ مَدْيَنَ، دَاعِيًا إِلَى اللَّهِ، فَرَشَاهُ الْمَلِكُ وَقَرَّبَهُ مِنْهُ عَلَى أَنْ يَتْرَكَ دِينَ مُوسَى، فَفَعَلَ فَضْلًا وَأَصْلًا»^(١)، وَكَفَى بِهَذَا تَصْوِيرًا لِنَفْسِيَةِ الْيَهُودِ فِي تَكَالِبِهِمْ عَلَى الدُّنْيَا، وَعِبَادَتِهِمْ لِلْمَالِ، وَصَدَقَ مِنْ قَالَ:

لَوْ كَانَ فِي الْعِلْمِ مِنْ دُونِ التُّقَى شَرَفٌ لَكَانَ أَشْرَفَ خَلْقِ اللَّهِ إِبْلِيسُ

«الْكُفَّارُ كَالْبَهَائِمِ وَالْأَنْعَامِ السَّارِحَةِ»

وبعد أن ذكر تعالى قصة «بلعم بن باعورا» وما كان من نتيجته المخزية، حيث ارتد عن الإيمان، طمعاً في حطام الدنيا الدنيئة، وهو مَثَلٌ لليهود في تكالِبِهِمْ عَلَى الدُّنْيَا وَعِبَادَتِهِمْ لِلْمَالِ، ذَكَرَ تَعَالَى بَعْدَهَا حَالَةَ الْأَشْقِيَاءِ عَامَّةً، الَّذِينَ وَهَبَهُمُ اللَّهُ الْقُلُوبَ وَالْأَسْمَاعَ وَالْأَبْصَارَ، فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِهَا، فَكَانُوا شَرًّا مِنَ الْبَهَائِمِ وَالْأَنْعَامِ، لِأَنَّ الْحَيَوَانَاتَ تَدْرِكُ مَنَافِعَهَا وَمَضَارَهَا، وَهَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ لَا يُمَيِّزُونَ بَيْنَ الْمَنَافِعِ وَالْمَضَارِ، وَلِهَذَا يُقَدِّمُونَ عَلَى النَّارِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ ﴾ أَي خَلَقْنَا لِنَارِ جَهَنَّمَ خَلْقًا كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لِيَكُونُوا حَطْبًا لَهَا ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا، وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ

(١) انظر أقوال السلف في تفسير الطبري، وابن كثير ٦٥/٢.

أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١﴾ وليس معنى الآية أنهم صمّ بكم عمي لا إدراك لهم ولا إحساس، فإن الله تعالى قد أثبت لهم القلوب والأسماع والأبصار، ولكنهم لما لم يستفيدوا منها كانوا كالبهائم السارحة التي لا تفقه ولا تعي، فالمراد إذاً نفيها عمّا ينفعها، لا نفي السمع والبصر بالكلية، ولهذا شبههم المولى جلّ وعلا بالدواب والأنعام ﴿٢﴾ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿٣﴾ أي الغارقون في الغفلة، لأنهم غفلوا عن سعادتهم وغفلوا عن الغاية التي خلقوا من أجلها، ألا وهي عبادة الله الواحد القهار.

«توحيد الله فيه النجاة والعصمة»

ولما نبّه تعالى على أن الموجب لدخول جهنم، ألا وهو الغفلة عن الله وعن ذكره تبارك وتعالى، ذكر تعالى أن المخلّص للإنسان من عذاب جهنم هو توحيده وذكره، وكلّ من له ذوق سليم يجد من نفسه أن الأمر كذلك، فإن القلب إذا غفل عن ذكر الله، وأقبل على الدنيا، وقع في نار الحرص على الحطام، ولا يزال ينتقل من رغبة إلى رغبة، ومن شهوة إلى شهوة، ومن ظلمة إلى ظلمة، حتى يصل به الحال إلى نسيان ربه الكريم المتعال، فعند ذلك يقع في المتاهات، ويتخبط في الظلمات، ولا نجاة له إلا بالعودة إلى حمى الرحمن، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿٤﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴿٥﴾ أي اتركوا الضالين المعاندين، الذين يميلون في أسمائه تعالى عن الحق إلى الباطل والضلال، كما فعل المشركون حيث اشتقوا لألهتهم أسماء من أسماء الله، فسمّوا «اللات» من الله، و«العزى» من العزيز، و«مناة» من المنان، ثم قال تعالى: ﴿٦﴾ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ أي سينالون جزاء كفرهم وأعمالهم القبيحة في الدار الآخرة.

ولقد شرف الله هذه الأمة المحمدية، بالانتساب إلى رسول الله، والاستقامة على شرع الله، فجعلها خير الأمم، وجعل الخير فيها باقٍ إلى قيام الساعة، تعتصم بدينها، وتستمسك بشريعتها، وفيهم يقول القرآن الكريم ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ أي ومن بعض الأمم التي خلقناها، أمة مستمسكة بشرع الله قولاً وعملاً، يدعون الناس إلى الحق، وبه يعملون ويقضون، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: والمراد في الآية هذه الأمة المحمدية لحديث: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك)^(١) وهذه الطائفة لا تختص بزمان دون زمان، بل هم في كل زمان وفي كل مكان، فالإسلام دائماً يعلو ولا يُعلى عليه، ولو كثرت الفساق وأهل الشر، فلا عبرة فيهم ولا صولة لهم، وفي الحديث الشريف بشارة عظيمة، لهذه الأمة المحمدية، بأن الإسلام في علو شرف، وأهله كذلك إلى قرب الساعة.

«استدراج الكفار في هذه الحياة»

ثم تحدثت السورة الكريمة، عن سنة الله عز وجل في إهلاك الظالمين، بالإمهال ثم بالعذاب والنكال، فالله سبحانه يُمهّل ولا يهمل، ويؤخر العُصاة والمجرمين، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، من حيث لا يعلمون ولا يشعرون، وفي ذلك يقول الله تقدست أسماؤه: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ. وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ ومعنى الاستدراج: أن يعاملهم باللطف والإحسان، مع تماديهم في الغي والإجرام، وذلك بأن تتكاثر عليهم نعم الله تعالى، فيظنوا أنها

(١) الحديث أخرجه الشيخان في الصحيحين.

لطف من الله تعالى بهم، فيزدادوا بطراً وانهماكاً في الغي، حتى تحقق عليهم كلمة العذاب، قال بعض السلف: الاستدراج أن يقربهم إلى ما يهلكهم، ويضاعف عقوبتهم، وذلك أنهم كلما أقدموا على ذنب، فتح الله عليهم باباً من أبواب الخير، فيزدادون بطراً وإمعاناً في الغي والفساد، ثم يأخذهم تعالى أغفل ما يكونون، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ولما كان حال المعرضين عن آيات الله البينات، أنهم لم يفكروا بعقولهم في دلائل الله، وبدائع صنعه، ولم يبحثوا عن حقيقة هذا الرسول، ليعرفوا صدقه، جاءت الآيات تدعوهم إلى التفكير في أمر هذا الرسول، وفي دلائل التوحيد والإيمان بوجود الرحمن وعظمته ولهذا قال تعالى لافتاً أنظارهم ﴿أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ والمراد بصاحبهم محمد ﷺ، لأنه صاحبهم وعاش بين أظهرهم أربعين سنة، قبل دعوى النبوة، فكيف يتهمونونه بالجنون وهو أعقل العقلاء؟ ثم قال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ، وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ، مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

«وقت الساعة لا يعلمه إلا الله»

وبعد أن ذكر تعالى أحوال المشركين، وبالغ في تهديد الملحدين، المعرضين عن آياته، الغافلين عن التأمل في بدائع صنعه وبيناته، ذكر تعالى بعد ذلك موقف المستهزئين من دعوة الرسول، المعاندين للرسول عليه السلام، ولما جاء به من عند ربه، فقد كان أولئك الطغاة

المتجبرون، يسألون الرسول ﷺ عن أمور غريبة، من أجل السخرية والتعجيز، فقد سألوه مراراً ومراتٍ عن الساعة وقيامها، والآخرة وأحوالها، لا بقصد المعرفة والتصديق، ولكن بقصد السخرية والتهكم ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي، لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ، ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً، يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ والساعة هي «القيامة» سُمِّيت بذلك لسرعة وقوعها، وسرعة ما فيها من الحساب، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ ومعنى قوله تعالى: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أي متى وقوعها وحدوثها؟ وفي أي وقتٍ وزمانٍ تكون؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ أي قل لهم يا محمد: لا يعلم وقت حدوثها ووقوعها، إلا الله رب العالمين، فهو وحده جلّ وعلا العالم بوقتها ولهذا قال: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ أي لا يكشف أمرها ولا يظهرها للناس، إلا الرب سبحانه، لا أحد غيره كما قال سبحانه في سورة لقمان: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾.

ثم زاد تعالى في الإيضاح والبيان فقال: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أي عَظُمَتْ على أهل السموات والأرض، حيث يُشفقون منها، ويخافون شدايدها وأحوالها، لا تأتِيكم إلا فجأة، على حين غفلة منكم، ومعنى قوله سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أي يسألونك عن وقتها، كأنك يا محمد كثير السؤال عنها، شديد الطلب لمعرفةا، مهتمٌ أقصى الغاية بالبحث عنها، وقد ختم الله الآية بما يؤكد اختصاص معرفتها بالله جلّ وعلا فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وفي الحديث الصحيح الذي

رواه مسلم ﴿وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلَا يَتْبَاعَانِهِ وَلَا يَطْرِيَانِهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بَلْبَنٍ لِقَحْتِهِ فَلَا يَطْعُمُهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يُلِيطُ حَوْضَهُ - أي يصلح الحوض ويلطخه بالطين - فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته - أي اللقمة - إلى فيه فلا يطعمها﴾^(١).

«الْغَيْبُ مِنْ خِصَائِصِ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى»

ولما كان الحديث عن الساعة، وهي من أمور الغيب التي اختص الله بعلمها، جاءت الآيات بعد ذلك تتحدث عن الغيب عامة، فهو تعالى الذي استأثر بعلم الغيب، فلا يعلم نبي، ولا رسول، ولا ملك شيئاً من أحوال الغيب، إلا ما أطلعه الله عليه، ولما كان المشركون يطلبون من الرسول أن يخبرهم عن بعض أمور غيبية، ويربطون بين تصديقه في دعوى الرسالة وإخباره لهم عن الغيب، جاءت الآيات تأمره أن يعلن العبودية التامة لله رب العالمين، وأنه لو كان أمر الغيب إليه، لحصل منافع الدنيا وخيراتها، ولما أصابه شيء من الأذى والضّر، ولكنه بشر، يصيبه ما يصيب البشر من أحداث الدنيا ومضراتها ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ، وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ، إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

«بَدَأُ الْخَلِيقَةَ وَتَنَاسَلَ الْبَشَرُ»

ثم توالى الآيات تقرر أمر التوحيد، وتذكر الحجج والبراهين على

(١) هذا جزء من حديث طويل رواه مسلم في صحيحه.

بطلان عقيدة المشركين، في عبادة الأوثان والأصنام، وقد ذكر الباري جلّ وعلا قصة بدء الخليقة، قصة «آدم وحواء» وذريتهما، كبرهان ساطع على وحدانية الله، وقدرته وعظيم سلطانه فقال تقدست أسماؤه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا، فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ، فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحاً لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ والآية امتنان على آدم وذريته، بأنه تعالى خلق لهم أزواجاً من أنفسهم، ليصِرْنَ سَكَناً لهم، وأنساً وطُمأنينةً، ورزقهم البنين والبنات، وأكرمهم بما تقرُّ به أعينهم، ولكن ذرية آدم بدل أن يشكروا الله على فضله وإنعامه، جحدوه وأشركوا به، وعبدوا الأصنام والأوثان، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ والمعنى فلما وهب الله للزوجين الولد الصالح، السويّ الخَلقة، جعل الله شركاء من الأشجار والأحجار، عبدوها مع الله، فتنزّه وتقدّس الله، عما ينسبه إليه المشركون من الزوجة والولد.

«الآية تتحدث عن ذرية آدم»

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن الآية في «آدم وحواء» عليهما السلام، وأن الضمير في قوله تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ يعود إليهما، ورَوَوْا في ذلك حديثاً مرفوعاً عن سَمُرَةَ قال: (لما ولدتُ حواءَ طافَ بها إبليسُ، وكانَ لا يعيشُ لها ولدٌ، فقال: سَمِّيه «عبد الحارث» فإنه يعيش، فسَمَّته عبد الحارث فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان) رواه أحمد والترمذي، وهذا القول لا يصحُّ، فإن آدم عليه السلام أحد الأنبياء الكرام، ومن المحال أن يستجيب آدم لأمرٍ يخدش العقيدة، بل هو شرك

بالله، وإنما الصحيح كما قال الحافظ ابن كثير: أَنَّ ذلك كان في ذريته،
 بدليل قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فالآية وردت حكاية
 عن ذرية آدم، ممن رزقهم الله المال والبنين، فأشركوا مع الله، وسمّوا
 أولادهم بأسماء الشياطين، وليست بشأن آدم وحواء، وقد قال الحسن
 البصري رضي الله عنه: كان هذا في بعض أهل المِلَلِ ولم يكن بآدم،
 والله يقول الحق وهو يهدي السبيل^(١).

«التنديد بعبادة الأوثان»

ثم جاءت الآيات تقرع بحججها الساطعة، وبراهينها الدامغة، قلوب
 أولئك الزائغين المشركين، الذين جعلوا لله شركاء وأنداداً، من شجرٍ أو
 حجر، وعبدوها من دون الله الواحد القهار.

وموضوع عبادة الأوثان والأحجار، قديم بقدم الإنسانية، فقد
 ظهرت الوثنية منذ زمن «نوح» عليه السلام، واستمرت إلى زمن إبراهيم،
 ثم فَشَتْ وانتشرت بين كفار مكة، إلى حين بعثة الرسول الأعظم ﷺ . .
 وقد جاءت سورة الأعراف تندّد بعبادة هذه الأوثان، وتُزري بعقول من عبّدها
 من دون الله، فهي حجارة لا تسمع ولا تنفع، ولا تدفع عن عابدها
 شيئاً، فكيف تُعبد من دون الله، ولهذا يقول القرآن الكريم: ﴿أَيْشْرِكُونَ

(١) هذا هو الصحيح الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين، لأن خاتمة الآية يدل عليه،
 فقد وردت بصيغة الجمع حكاية عن ذرية آدم «فتعالى الله عما يشركون» ولو كانت عن
 آدم وحواء لقال «فتعالى الله عما يشركان» وقد ردّ الحافظ ابن كثير الآثار التي وردت
 أنها في آدم وزوجته حواء، فأجاد وأفاد ثم قال: «وهذه الآثار يظهر عليها أنها من آثار
 أهل الكتاب، ونحن على مذهب الحسن البصري في هذا، وأنه ليس المراد من
 السياق «آدم وحواء» وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته، وإنما ذكر آدم وحواء
 أولاً كالتوطئة والاستطراد لما بعدهما من البنين . . » اهـ وانظر مختصر ابن كثير ٧٤/٢
 وكتابنا «صفوة التفسير» ٤٨٧/١ ففيه تفصيل وتوضيح.

مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ. وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا، وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ. وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ، سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١﴾؟

«الْإِلَهِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا»

وكأنَّ الآيات تقول لهم: إنَّ المعبود يجب أن يكون عالماً سميعاً بصيراً، قادراً على إيصال النفع، ودفع الضرر، وهذه الأصنام ليست كذلك، لأنها في غاية العجز والذلة، لا تجيب إذا دُعيت إلى خير أو رشاد، لأنها جمادات، ولا تسمع دعاء من دعاها، وسواءً لديها من دَعَاها ومن دَحَاها، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ، وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ (١)؟.

ثم زاد تعالى في التوضيح والبيان، فقال مخاطباً المشركين من أهل مكة ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أُمَثَلِكُمْ، فَاذْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا؟ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا؟ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا؟ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ، ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ﴾.

ولعمرُ الحقِّ إنَّ هذه الآيات البينات، لتقصم بحججها الساطعة ظهر الباطل، وتترك الخصم صريعاً أمام نور الحق وضيائه، والغرض منها بيان جهل المشركين وتسفيه عقولهم، في عبادة جمادات، لا تسمع ولا تبصر، وليس لها شعور ولا إدراك، لأنها فقدت الحواس والأعضاء، وفاقد الشيء لا يعطيه، بل إنَّ الإنسان المخلوق - مع عجزه وضعفه - لهو أفضل بكثيرٍ من تلك الأصنام، لوجود العقل والحواس فيه، فكيف

(١) سورة مريم آية رقم ٤٢/.

يليق بالأكمل الأشرف، أن يشتغل بعبادة الأخسّ الأذون، الذي لا يُحسُّ منه فائدة أبداً، لا في جلب منفعة، ولا في دفع مضرة، ولننظر إلى أسلوب التهكم والسخرية اللاذع، وهو يخاطب المشركين فيقول ﴿أَلَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا؟ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا؟ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا؟﴾ وكأنه يقول لهم: كيف عبدتم حجارة صماء، ليس لها قدرة على الحركة؟ ولا على النطق والكلام؟ ولا على السمع والمראה، فكيف يليق بالعاقل أن يعبد من هو دونه في القوة والقدرة؟! .

«من غرائب الأخبار»

ومن عجائب أحوال المشركين، في عبادتهم الأوثان، ما حدثنا عنه التاريخ عن أجدادنا العرب، فقد ذُكر أن أعرابياً كان له صنمٌ يُعظّمه ويسجدُّ له، ويعفّر وجهه بين يديه، وكان فلاحاً يشتغل في أرضه وحقله، وكلما انتهى من عمله جاء إلى الصنم، فعبدته وتضرّع إليه، فينا هو ذات يوم يشتغل بفلاحة الأرض، إذ جاء ثعلب فوقف فوق رأس الصنم، وفتح رجله وبال عليه، فنظر الأعرابي فوجد البول ينصبُّ فوق رأس إلهه ومعبوده، وهو لا يُحرّك ساكناً، ولا يدفع عن نفسه الأذى، فجاء نحو الصنم مغضباً، وهوى بالفأس على رأسه، يحطّمه ويُهشّمه، وهو يقول:

أَرَبُّ يَبُولُ الثُّعْلُبَانُ بِرَأْسِهِ لَقَدْ ذَلَّ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثُّعَالِبُ^(١)
وترك عبادة الأوثان والأصنام، وعاد إلى رشده وصوابه، فلم يعبد صنماً بعد.

(١) الثُّعْلُبَانُ: ذكر الثعالب كما في حياة الحيوان للذميري، وقائل هذا البيت هو «غاوي ابن عبد العزّي» وقد أسلم ولحق بالنبي ﷺ فقال له: ما اسمك؟ فقال: «غاوي بن عبد العزّي» فقال له الرسول الكريم: بل أنت «راشد بن عبد ربه» وانظر قصته في المحرر الوجيز لابن عطية ١٠١/١.

«قصة عمرو بن الجموح مع صنمه»

وروى الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره هذه القصة العجيبة قال: أسلم «معاذ بن جبل» و«معاذ بن عمرو بن الجموح» وكانا شائين حديثي السن، فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين، يكسرانها ويتخذانها حطباً، وكان لعمرو بن الجموح - وهو سيد قومه - صنم يعبد به ويطيئه، ويعتني بأمره، فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه، ويلطخان به العذرة - أي النجاسة - فيجيء «عمرو بن الجموح» فيرى ما صنع بإلهه، فيغسله وينظفه ويطيئه، ويضع إلى جواره سيفاً، ويقول له: انتصر لنفسك ممن يريد بك سوء، ثم يعودان لمثل ذلك، ويعود إلى صنيعه، يغسله من النجاسة ثم يطيئه، حتى أخذه مرة فربطاه مع كلب ميت، ودلياه في بئر هناك، فلما جاء «عمرو بن الجموح» ورأى إلهه مربوطاً مع الكلب، علم أن ما عليه من الدين باطل، فأنشد يقول:

تالله لو كنت إلهاً مستدين لم تك والكلب جميعاً في قرن
ثم أسلم فحسّن إسلامه، واعتزل عبادة الأصنام، وقُتل يوم أحد شهيداً^(١).

«تسليّة للرسول عليه السلام»

وبعد أن تحدثت السورة الكريمة عن سفاهة عقول المشركين، وذكرت الحجج والبراهين، على بطلان عبادة الأصنام والأوثان، عادت تأمر الرسول ﷺ بالثبات على المنهج القويم، والصراط المستقيم، الذي جاءه من عند الله عز وجل، وتواسيه وتسليه على ما يلقاه من أذى المشركين، وتدعوه لأن يجابههم بالحق، ولا يُيالي بهم ولا بتهديدهم

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٧٥/٢.

ووعيدهم، فقد كان مشركو مكة يخوفون رسول الله عليه الصلاة والسلام من آلهتهم، إن تعرض لها بسوء، فجاءت الآيات لتشد من عزمته، وتربط على قلبه، فالله جلّ وعلا حافظ له ومؤيد، ومن كان في حفظ الله ورعايته، فلن يضره شيء مهما قوي واشتد، وفي ذلك يقول القرآن الكريم على لسان سيد المرسلين، آمراً ومرشداً ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ، وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ والمعنى إن الذي يتولى حفظي ونصري، ودفع أذيتكم عني، هو الله الذي نزل عليّ القرآن، وهو جلّ وعلا يتولى عباده الصالحين، بالحفظ والرعاية، والنصر والتمكين، وهو وليهم في الدنيا والآخرة.

«الآية حصن لمن اتقى ربه»

وهذه الآية حصن لكل من اتقى الله، وعمل بطاعة مولاه، فالله حافظه وناصره كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾^(١) وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾^(٢) حكى أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، كان ينفق ماله، ولا يدخر لأولاده منه شيئاً، فقيل له في ذلك، أتنفق مالك كله، ولا تترك لورثتك شيئاً ممّا أعطاك الله؟ فقال رضي الله عنه: «لا حاجة لأولادي في مالي، فإنهم إن كانوا من الصالحين، فلن يضيعهم الله، لأنه سبحانه يقول: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ وإن كانوا غير صالحين، فلن أعينهم بمالي على معصية الله، فتباً لهم وهلاكاً، وأنا كما قال موسى عليه السلام: ﴿فَلَنْ أَكُونُ ظَهيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾^(٣) ومن رده

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٥٧/.

(٢) سورة الحج آية رقم ٣٨/.

(٣) سورة القصص آية رقم ١٧/ وانظر القصة في التفسير الكبير للفخر الرازي.

الله، لم أشتغل بإصلاح مهماته»، وهذا منه رضي الله عنه تنبيه وإرشاد،
أَنْ مَنْ حَفِظَ أَمْرَ اللَّهِ فِي حَيَاتِهِ، حَفِظَهُ اللَّهُ فِي ذَرِيَّتِهِ وَأَوْلَادِهِ.

«اقتلاع الوثنية من جذورها»

ثم تعود السورة الكريمة إلى الحديث عن «الوثنية الجاهلية» في
عبادة المشركين للأوثان والأصنام، لتأتي عليها من القواعد، وتقتلع كل
شبهة من أذهان الذين عبدوها من دون الله، فهي حجارة صماء بكماء،
لا ترى ولا تبصر، ولا تسمع ولا تنفع، ولا تستجيب لداعيها ﴿وَالَّذِينَ
تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ، وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ. وَإِنْ
تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا، وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا
يُبْصِرُونَ﴾.

والمعنى: إن دعوت أيها العابد هذه الأصنام إلى الهداية والرشاد،
لا تسمع دعائك فضلاً عن المساعدة والإمداد، وتراها تقابلك بعيون
مصورة كأنها ناظرة، ولكنها جماد لا تبصر، لأن لها صورة الأعين وهي
لا ترى شيئاً، فهل في عبادتها خيرٌ وفلاح؟!.

«التمسك بفضائل الأخلاق»

وتعقبها الآيات تأمر الرسول عليه الصلاة والسلام بالأخذ بمكارم
الأخلاق، والتخلق مع الناس بالخلق الحسن، وترك الغلظة والفظاظة،
وعدم مقابلة السفهاء بمثل سفههم، بل بالحلم والصفح والعفو، وفي
ذلك يقول سبحانه: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ، وَأَعْرِضْ عَنِ
الْجَاهِلِينَ﴾ وهذه الآية الكريمة - على وجازتها - جمعت الفضائل
الإنسانية التي دعا إليها الإسلام، وحذرت من مساوئ الأخلاق، ونهت
عن كل رذيلة، ودعت إلى كل فضيلة، وهذا من أسرار إعجاز القرآن،

فقد أعطي ﷺ جوامع الكلم كما أعطي روائع القرآن.

ولما نزلت عليه هذه الآية الكريمة، جاءه جبريل فقال يا محمد: «إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتُعطي من حرمك، وتصل من قطعك»^(١) وهذا وإن كان خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام، ولكنه تعليم وتأديب لجميع الخلق، ليقنطروا بسيرة سيد الأولين والآخرين.

«التحفظ من شرِّ الشيطان»

ولما كان للشيطان شيء من التسلط على الإنسان، إن هو استجاب لداعي الهوى، ومغريات الحياة، جاءت الآيات تأمره عليه الصلاة والسلام، بالاستعاذة من الشيطان، واللجوء إلى حمى الرحمن، فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان، إلا الله رب العالمين ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ. وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾.

روى عن بعض السلف أنه قال لتلميذه: «ما تصنع بالشيطان إذا سؤل لك الخطايا؟ قال أجاهده بكل قوتي، قال فإن عاد إلى وسوسته؟ قال أجاهده حتى أطرده، قال: إن هذا يطول عليك، ويضيع عليك وقتك!! رأيت إن مررت بغنم، فنبحك كلُّها ومنعك من العبور، ماذا تصنع؟ قال أكابده وأردُّه عني، قال: هذا شيء يطول عليك، ولكن استغث بصاحب الغنم يكفه عنك»^(٢)، فكَذلك من استعاذ بالرحمن من كيد الشيطان ردَّه العليُّ الكبير عنه، وخلصه من شرِّه.

(١) الحديث أخرجه ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم من حديث «أبي بن كعب» وانظر مختصر ابن كثير ٧٦/٢.

(٢) ذكره النيسابوري في تفسيره.

«ختمٌ بديعٌ رائعٌ للسورة الكريمة»

وقد ختم الله هذه السورة الكريمة بتعظيم أمر القرآن، الذي أنزله الله رحمة لعباده، وذلك بتلاوة آياته، وتدبر معانيها، والسكوت والاستماع عند التلاوة، إعظاماً وإجلالاً للقرآن، حتى يخشع القلب، وتدمع العين ويستفيد الإنسان من آياته وبَيِّنَاتِهِ، وفي ذلك يقول الله تقدرست أسمائه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ. وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً، وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ، وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ. إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾.

وهكذا بدأت السورة بتمجيد القرآن، وختمت بالإشادة بمنزلته ومكانته، ليتناسق البدء مع الختام، في أروع صورة وأبدع إحكام.

انتهت دراسة سورة الأعراف

بحمده تعالى وعونه

* * *

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

مَدَنِيَّةٌ وَأَيَّانَهَا خَمْسٌ وَسَبْعُونَ آيَةً

«أهداف السورة الكريمة»

● سورة الأنفال هي إحدى السور المدنية، التي اهتمت بجانب التشريع وبيان الأحكام، وبخاصة فيما يتعلق بأمر «الجهاد في سبيل الله» وقاتل أعداء الله، فهي سورة الجهاد، وسورة البطولة، وسورة الإيمان والتضحية، في سبيل نصره الحق، وإعزاز الدين، ورفع منار الإسلام.

● عالجت هذه السورة الكريمة، بعض النواحي الحربية التي تكشف للمسلمين عقب بعض الغزوات، وتضمنت كثيراً من الإشارات الإلهية، والتشريعات الحربية التي يجب على المؤمنين اتباعها في قتالهم للكفرة المشركين أعداء الله، وتناولت أمور السلم والحرب، وأحكام الأسر، والفداء، والغنائم.

● نزلت هذه السورة الكريمة في أعقاب «غزوة بدر» تلك الغزوة التي كانت فاتحة الغزوات في تاريخ الإسلام، وكانت تاجاً بين سائر الوقائع والغزوات، وبداية العزِّ والنصر لجند الرحمن، حتى سمّاها بعض الصحابة «سورة بدر»، لأنها تناولت أحداث هذه الغزوة بالتفصيل والإسهاب، ورسمت الخُطَّة^(١) التفصيلية للحرب الإسلامية،
(١) الخُطَّة: بضم الخاء أي الطريقة كما في لسان العرب لابن منظور.

وبيّنت ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من البطولة والشجاعة، والوقوف في وجه الباطل بكل بسالة وجرأة، وعزم وحزم، ولولا هذه الدروس التي تلقاها المؤمنون في غزوة بدر، لما كان هناك فتح ولا نصر، ولكنه الإيمان يصنع الأعاجيب، فمن المستبعد الذي يشبه المستحيل، أن ينتصر المؤمنون على قُلَّتْهم، حيث لم يكن عددهم يزيد على ثلاثمائة وأربعة عشر شخصاً، على جيش مؤلف من ألف مقاتل، مدججين بالسلاح، من صناديد الكفر، ورؤساء الضلالة، وهم ثلاثة أضعاف عدد المسلمين، ثم ينتصر المسلمون عليهم انتصاراً كاسحاً، لولا العقيدة والإيمان، التي تدكُّ صروح الكفر والطغيان، وصدق الله حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ، فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

● ومن المعلوم لكل باحثٍ ودارسٍ، لتاريخ الغزوات التي خاضها المسلمون ضد الباطل، أن غزوة بدر كانت في «شهر رمضان» من السنة «الثانية» للهجرة، وكانت هي الغزوة الأولى من جولات الحقِّ مع الباطل، وردِّ البغي والطغيان، وإنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، الذين قعد بهم الضعف في مكة، وأخذوا في الضراعة إلى الله أن يخرجهم من القرية الظالم أهلها، وقد استجاب الله دعاءهم وضراعتهم، فهبأ لهم الظروف لتلك الغزوة المجيدة، التي تمَّ فيها النصر للمؤمنين على قَلَّةٍ في عددهم، وضعفٍ في عددهم، وعدم تهيئتهم للقتال، لأنهم خرجوا ليتعرضوا لقافلة قريش، ولم تكن غايتهم قتال المشركين، ولكنَّ الله - جلَّتْ عظمته - أراد أمراً آخر، فيه عزٌّ للإسلام والمسلمين، أراد أن يُظهر قدرته على نصرة عباده المستضعفين، ليعرف أنصار الباطل، أنَّ البغي مهما طال أمده،

وقويت شوكته، وامتد سلطانه، فلا بدُّ له من يوم يخِرُّ فيه صريعاً أمام جلال الحق، وقوَّة الإيمان، وهكذا أعطت غزوة بدرٍ، دروساً وعبراً على مدى التاريخ الإنساني، فكانت نصراً للمؤمنين، وهزيمة للمشركين، سجَّلها التاريخ في صفحاته الناصعات.

● وفي ثانيا سرد أحداث «غزوة بدر» جاءت النداءات الإلهية للمؤمنين، ستُّ مرات بوصفهم بالإيمان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كحافزٍ لهم على الصبر والثبات، في جهادهم لأعداء الله، وكتذكير لهم بأن هذه التكاليف التي فُرِضت عليهم وأمروا بها، هي من مقتضيات الإيمان الذي تحلَّوا به، وأن النصر الذي حازوا عليه، كان بسبب الصدق والإيمان، لا بكثرة المال والرجال، وصدق الله حيث يقول: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ؟ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

● أما النداء الأول: في هذه السورة الكريمة، فقد جاء ساطعاً واضحاً، فيه الإعذار والإنذار، لأصحاب العقيدة والإيمان، من الفرار من الأعداء، مهما كثر عددهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ. وَمَنْ يُولَّهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ - إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ - فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

● وأما النداء الثاني: فهو توجيه رباني للمؤمنين إلى السمع والطاعة، والاستجابة لأمر الله وأمر رسوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ. وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ. إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ

لَا يَعْقِلُونَ ﴿﴾ فقد شبه الله الكفار بالدواب والأنعام السارحة، التي لا تسمع ولا تعي، ولا تستجيب لدعوة الحق، ويا له من تشبيه بليغ في ذروة البيان!.

● وأما النداء الثالث: فهو لدعوة المؤمنين إلى الاستجابة لله والرسول، وقبول دعوته التي فيها حياة القلوب والأرواح، وبها العزة والسعادة والسيادة في الدنيا والآخرة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ، وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ. وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

● وأما النداء الرابع: فهو للتحذير والإنذار من الخيانة، خيانة الأمانة التي ائتمناها الله عليها، أو خيانة الأمة بإفشاء أسرارها إلى أعدائها، أو خيانة الدين بعدم الاستمسك بأحكامه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ. وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ، وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

● وأما النداء الخامس: بلفظ الإيمان، فقد جاء بالأمر بتقوى الرحمن، وفيه إرشادٌ إلى ثمرة التقوى، التي يجنيها المؤمن، ومن أعظمها ذلك النور الرباني، الذي يفرق فيه الإنسان بين الهدى والضلال، والنور والظلام ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

● وأما النداء السادس: وهو النداء الأخير لمواكب الإيمان وجند الرحمن، فقد وضح الله لهم فيه طريق العزة والنصر، وذلك بالثبات أمام الأعداء، والصبر عند اللقاء، والإكثار من ذكر الله الذي

هو الذخيرة للمؤمن في السراء والضراء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ، وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

«غزوة بدر تاج بين سائر الغزوات»

لقد كانت غزوة بدر أول غزوة خاضها المسلمون في صراعهم مع الباطل، وكانت بحق مفخرة من المفخر، وتاجاً بين سائر الفتوحات والغزوات، فيها تجلّت عناية الله بأحبابه وأوليائه، فنصرهم على الأعداء مع قلة المسلمين وكثرة عددهم، ممّا جعل هذه الغزوة تقلب الموازين في منطق القوة والعتاد والسلاح، وتقيم البراهين على أن النصر للحق وأنصاره، وليس بكثرة العدد والعدد، وصدق الله حيث يقول: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

هذه لمحة خاطفة عن أهداف السورة الكريمة، وفيها خلاصة لما أشارت إليه سورة الأنفال من أسرار وأنوار، وما أرشدت إليه من دروس وعبر، في ظلال تلك الغزوة المجيدة، التي هي إحدى مفاخر الإسلام.

«حكم الغنائم التي غنمها المجاهدون»

ابتدأت السورة الكريمة ببيان حكم الغنائم التي غنمها المسلمون من المشركين في أولى الغزوات، وقد كانت هذه الغنائم سبباً لحدوث بعض النزاع والخلاف بين المجاهدين، فقد رأى البعض أن يختصّ بهذه الغنائم الذين حاربوا فعلاً، ورأى الآخرون أن تُقسم هذه الغنائم بين الذين حضروا بدرًا وشهدوها، قاتلوا أو لم يقاتلوا، فإن من حمى ظهر المقاتلين يُعتبر مشاركاً في المعركة، ويستحق من

الغنيمة مثل ما يستحقه المقاتل، وقد جاء هؤلاء المجاهدون إلى رسول الله ﷺ يسألونه عن حكم الله في هذه الغنائم، فنزلت أولى الآيات تبين الحكم، وتدعو المؤمنين إلى الاجتماع وعدم الاختلاف، وإلى إصلاح ذات البين، وإلى السمع والطاعة لأمر الله ولأمر رسوله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ، فَاتَّقُوا اللَّهَ، وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

«سبب النزول»

روى الإمام أحمد في المسند عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدتُ معه بدرًا، فالتقى الناس، فهزم الله تعالى العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه، وأحدثت طائفة برسول الله ﷺ - أي أحاطت به لحمايته - لا يُصيب العدو منه غرّة، حتى إذا كان الليل، وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم، نحن حويناها - أي جمعناها - فليس لأحدٍ فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحقّ به منا، نحن منعنا عنه العدو وهزمناهم، وقال الذين أهدقوا برسول الله ﷺ: خفنا أن يصيب العدو منه غرّة فاشتغلنا به، فأنزل الله عز وجل ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ: الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين»^(١).

وروى أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما كان يومٌ

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند من حديث عبادة ابن الصامت، وأخرجه الترمذي وابن ماجه أيضاً، وقال الترمذي: هذا حديث صحيح، وانظر مختصر ابن كثير ٨٣/٢.

بدر قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ كَذَا وَكَذَا، وَمَنْ أَسْرَ أُسِيرًا فَلَهُ كَذَا وَكَذَا، فَأَمَّا الْمَشِيخَةُ فَتَبَتُوا تَحْتَ الرِّيَاطِ، وَأَمَّا الشُّبَّانُ فَتَسَارَعُوا إِلَى الْقَتْلِ وَالْغَنَائِمِ، فَقَالَ الْمَشِيخَةُ لِلشُّبَّانِ: أَشْرِكُونَا مَعَكُمْ فَإِنَّا كُنَّا لَكُمْ رِدْءًا، وَلَوْ كَانَ لَكُمْ شَيْءٌ لِلجَأْتِمْ إِلَيْنَا، فَأَبَوْا وَاخْتَصَمُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ...﴾ الْآيَةُ فَقَسَمَ ﷺ الْغَنَائِمَ بَيْنَهُمْ بِالسُّوِيَّةِ»^(١).

«صفات المؤمنين الصادقين»

ثم تتابعت الآيات تذكر المؤمنين بصفات أهل الإيمان، وما ينبغي أن يتحلوا به من السجايا الحميدة، والصفات الكريمة، لأن الإيمان ليس كلمة تُقال باللسان، بل هو عقيدة راسخة في الوجدان، تنبعث منها أفضل الأعمال، وتثمر أطيب ثمار الحب والولاء، لله ولرسوله، وحب الخير لبني الإنسان ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا، وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا، لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

«صفات خمس لكمال الإيمان»

فقد وصفت هذه الآيات البينات المؤمنين الصادقين بصفات خمس، لا يكمل الإيمان إلّا بها، ولا يرقى العبد إلى درجة أهل الفضل والصلاح إلّا إذا تحلى بها، وهي كالآتي:

الوصف الأول: الخشية من الله عز وجل، واستحضار عظمته وجلاله، والاعتقاد بأن الله سبحانه رقيب عليه، مطلع على أعماله،

(١) أخرجه أبو داود، والنسائي، وابن مردويه، وذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٨٣/٢.

ليظل العبد مستقيماً في حياته، وهذه ثمرة الخوف من الله الكبير المتعال، وإليها ألمحت الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي إنما الكاملون في دعوى الإيمان، المخلصون في عبادة الرحمن، هم الذين إذا ذكر اسم الله فزعت قلوبهم وارتعدت، لمجرد ذكره، استعظاماً لشأنه، وتهيئاً من عظمته وجلاله.

الوصف الثاني: فهو زيادة الإيمان عند تلاوة آيات القرآن، فلا يمرون على الآيات عند التلاوة مرور الكرام، بل يقرءونها بخشوع وخضوع، وتدبر وتفكر، فيزيد إيمانهم وتزيد خشيتهم لله، وتسري في عروقهم حلاوة الإيمان، كما تجري الدماء في العروق، وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ أخرج الطبراني عن الحارث بن مالك الأنصاري، أنه مرَّ برسول الله ﷺ فقال له الرسول الكريم: كيف أصبحت يا حارث؟ قال: أصبحت مؤمناً حقاً!!، قال: انظر ما تقول، فإن لكل شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ فقال يا رسول الله: عَزَفْتُ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، فَاسْهَرْتُ لَيْلِي، وَأَظْمَأْتُ نَهَارِي، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي بَارِزاً، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ يَتَضَاغَوْنَ فِيهَا، فقال يا حارث: عرفتَ فالزم، عرفتَ فالزم، عرفتَ فالزم» ثلاثاً^(١).

أما الوصف الثالث: فهو التوكل على الرحمن، والثقة به، والاعتماد عليه، فلا يرجو العبد سواه، ولا يقصد إلاَّ إيَّاه، ولا يلوذ إلاَّ بجنابه، لأنه تعالى بيده الحَوْلُ والطَّوْلُ، وإلى ذلك الوصف أشارت الآية ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي لا يرجون غير الله، ولا يرهبون سواه.

(١) الحديث أخرجه الحافظ الطبراني، وذكره ابن كثير ٨٥/٢ وانظر جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد ٢٥/١.

أما الوصف الرابع: فهو المحافظة على الصلاة بشروطها، وأركانها، وآدابها، وأوقاتها، وخشوعها، وهذا ما نبهت إليه الآية الكريمة ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ فليس المراد أداء الصلاة على أي وجه كان، بل المراد إقامتها على الوجه الأكمل، الذي يرضي الله.

أما الوصف الخامس: فهو الإحسان إلى عباد الله بأداء الزكاة المفروضة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ ثم رتب الله النتيجة على ذلك بقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا، لَهُمْ دَرَجَاتُ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي لهم منازل رفيعة في جنات الخلد والنعيم، ورزق دائم مستمر مقرون بالإكرام والتعظيم.

«جند الرحمن وجند الشيطان»

ثم تتابعت الآيات الكريمة، تسرد أخبار تلك الغزوة المجيدة «غزوة بدر» فقد كانت هذه الغزوة رائدة الغزوات، وكانت ذكرياتها خالدة على مدى الأزمان، لأنها «الغزوة الفاصلة» التي فصلت بين الهدى والضلال، وفرقت بين الحق والباطل، وميّزت بين «جند الرحمن» و«جند الشيطان»، ولهذا كان الذين شهدوها من المسلمين خيرة الصحابة، وفضلهم يعلو كل فضل، لأن على سواعدهم كان النصر المبين للمسلمين، وقد أثنى عليهم رسول الله ﷺ حينما قال لعمر عن أحد الصحابة الذي شهد موقعة بدر: «إنه شهد بدرًا، وما يدريك أن الله أطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»^(١).

(١) هذا الحديث ورد في قصة «حاطب بن أبي بلتعة» حينما أراد عمر قتله، لأنه أفسى سر رسول الله ﷺ وأخبر أهل مكة أن الرسول عليه السلام يريد أن يغزوهم، ولما أطلع الله رسوله على ذلك، دعاه فاعتذر أمامه واعترف بخطئه، فقال عمر يا رسول الله: دعني أضرب عنقه... الحديث وهو مروى في الصحيحين.

«كراهية بعض المسلمين للخروج»

لقد خرج المسلمون لهذه المعركة على غير موعد، وعلى غير استعداد، فإنهم إنما خرجوا يريدون قافلة قريش، ولم يكن قصدهم قتال المشركين من أهل مكة، ولهذا لما دعاهم الرسول ﷺ للقتال كرهوا الخروج، وقالوا يا رسول الله: لو أخبرتنا بأننا سنلقى الأعداء لتهيأنا، وأخذنا عُدَّتنا لحربهم!! وجادلوا الرسول في أمر المعركة من غير استعداد سابق، فجاءت الآيات لتصور حالهم وموقفهم، أمام ذلك النبأ الذي لم يكن له في خاطرهم أيُّ حُسبان، لأنهم خرجوا لطلب القافلة لا للقتال، فكيف يجابهون قوةً طاغيةً غاشمة، قد استعدت كل الاستعداد، ثم هم أكثر من المسلمين في السلاح والرجال وفي ذلك يقول ربنا تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ، وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ. يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ، كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾.

ونكاد نلمح - من جَوِّ هذه الآيات - مبلغ الحالة النفسية التي كان عليها بعض الصحابة، حين دعاهم الرسول إلى القتال، فقد صَوَّرَهم القرآن بصورة من يُسَاق إلى الموت سوقاً، ويُدفع نحوه دفعاً ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾.

قال الإمام البيضاوي: أي يكرهون القتال كراهة من ينساق إلى الموت وهو يرى أسبابه، وذلك لقلَّة عددهم، وعدم تأهُّبهم، وفيه إشارة إلى أن مجادلتهم، إنما كانت لفرط فزعهم ورعبهم.

«استشارة النبي ﷺ لأصحابه»

وتمضي الآيات الكريمة لتطالعنا بمشهد آخر من مشاهد

الاضطراب والفرع، لبعض الصحابة الكرام عليهم من الله الرضوان، حيث استشارهم الرسول عليه السلام في أمر قتال الأعداء، فتشجع البعض وتخاذل البعض، فقد روي أن النبي عليه الصلاة والسلام قال لأصحابه - حين بلغه أن عير قريش أقبلت من الشام بقيادة أبي سفيان ومعها تجارة عظيمة - قال لهم: إِنَّ اللَّهَ وَعَدَنِي إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ: إِمَّا الْعَيْرَ، وَإِمَّا النِّفِيرَ، فاستشار أصحابه فاختراروا العير لخفة الحرب، وكثرة الغنيمة، فلما خرجوا بلغ الخبر أهل مكة، فنادى أبو جهل: يا أهل مكة النُّجَاءُ النُّجَاءُ، عَيْرُكُمْ، أَمْوَالُكُمْ، إِنْ أَصَابَهَا مُحَمَّدٌ فَلَنْ تُفْلِحُوا بعدها أبداً، فخرج المشركون على كل صعبٍ وذلول، يريدون الحرب، ومعهم أبو جهل حتى وصلوا بدرًا، ونجت القافلة فأخبر الرسول أصحابه وقال لهم: إِنْ الْعَيْرَ قَدْ مَضَتْ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، وَهَذَا أَبُو جَهْلٍ قَدْ أَقْبَلَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ - وَهُمْ الْأَكْثَرُونَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ: عَلَيْكَ بِالْعَيْرِ، وَدَعْ الْقَوْمَ، فَإِنَّا لَمْ نَخْرُجْ لِلْحَرْبِ، فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَقَالَ أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ فَتَكَلَّمَ فَأَحْسَنَ الْكَلَامَ، ثُمَّ قَامَ عُمَرُ فَتَكَلَّمَ فَأَحْسَنَ الْكَلَامَ، ثُمَّ قَامَ عُمَرُ بْنُ الْعَمْرِو فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: امْضِ لِمَا أَمَرَكَ اللَّهُ، فَنَحْنُ مَعَكَ، وَاللَّهِ لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿إِذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ وَلَكِنْ نَقُولُ: إِذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا، فسرَّ الرسول ﷺ من كلامه ودعا له بخير، ثم قال: أبشروا أيها الناس، وسيروا على بركة الله، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَاللَّهُ لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ^(١)، وَفِي هَذَا يَقُولُ رَبُّنَا تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا

(١) ذكرها أصحاب السير، وأخرجها ابن أبي حاتم، وانظر تفسير ابن كثير ٨٦/٢.

لَكُمْ، وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونَ لَكُمْ ﴿١٠﴾ أي وتحبون أن تلقوا الطائفة، التي لا سلاح فيها ولا حرب، وهي العير المحملة بالتجارة ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ، وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ. لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾.

«استغاثة النبي بربه سبحانه وتعالى»

وفي بدر التقى الجيشان، جيش الكفر وجيش الإيمان، ودارت المعركة على أشدها بين جند الرحمن وجند الشيطان، وقام الرسول ﷺ يستغيث ويستنجد بربه، ويطلب منه النصر على المشركين، فقد نظر الرسول الكريم إلى المشركين وهم ألف ويزيدون، وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، فاستقبل القبلة، ومدَّ يديه يدعو ربَّه، وعليه إزاره ورداؤه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلن تبعثني في الأرض»، فما زال يستغيث ربَّه ويدعوه، حتى سقط الرداء عن منكبيه، فأخذه أبو بكر، فألقاه على كتفي النبي ﷺ ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبيَّ الله كفاك مناشدتك ربَّك، فإنه سيُنْجِزُ لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُّمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ أي متلاحقين متتابعين يردف بعضهم بعضاً ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى، وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وهكذا حقق الله وعده، ونصر جنده، ورفع راية الحق والإسلام، فانتصر المسلمون في بدر فقتلوا من المشركين سبعين، وأسروا سبعين، وكانت في هذه الغزوة أعظم الدروس والعبر.

«آياتٌ وعِبَرٌ في غزوة بدر»

ولقد ظهرت في هذه الغزوة بعضُ الأحداثِ الجسامِ، والآياتِ الباهرة، والكراماتِ الظاهرة، لجند الله الصادقين، تأييداً من الله لهم، وتثبيتاً لقلوبهم، فلقد كان المسلمون في تلك الغزوة في قلةٍ من العدد، ونقصٍ من العتاد والسلاح، وأعداؤهم المشركون أكثر عدداً، وأوفرَ سلاحاً، وأشدَّ حنكةً ودرايةً بالحروب، لأنهم مارسوها مراتٍ ومرات، ثم لما وصل المشركون بدرأ، سبقوا المسلمين وغلبوهم على الماء، ونزل المسلمون في كثيبٍ أعفر، تسوخُ فيه الأقدام، وليس عندهم ماء، وناموا تلك الليلة، فاحتلم بعضهم، فصلُّوا مجنبيين بدون اغتسال، فوسوس إليهم الشيطان وقال: كيف تُنصرون وقد غلبتم على الماء؟! وأنتم تصلُّون مُحدِّثين مجنبيين، وتزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله؟ فأنزل الله المطر، حتى ثبتت عليه الأقدام، وزالت عنهم وسوسةُ الشيطان، فشرَبوا واغتسلوا وتطهَّروا، وكان نزولُ المطر رحمةً على المؤمنين، ونقمةً على المشركين، حيث أصبحت أقدامُ الأعداء تنزلق، لأنهم كانوا في أرضٍ سَبْخَةٍ، يضرُّها وجودُ الماء، وإلى هذه الآيات والعِبَر، تشير الآيات الكريمة في سورة الأنفال حيث يقول اللهُ تقدست أسماؤه ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ، وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ، وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ، وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ، وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾.

«النعاسُ يغشاهم في المعركة»

وقد ذكرت الآيات من ضمن الكرامات التي حصلت للمؤمنين،

إلقاء النعاس عليهم يوم بدر، أماناً منه تعالى لهم، أَمَّنْهُمْ به من خوفهم الذي حصل لهم، من كثرة عَدُوِّهم وقلة عددهم، ومعلوم أن الخائف لا ينام، ولكنه تعالى أراد للمسلمين أن يستعيدوا نشاطهم وحيويتهم، بعد أيام مضنية من التعب والعناء، والاستعداد للقاء الأعداء، فجعل الواحد منهم ينام وهو آمن مطمئن، كأنه ليس في معركة حرب، وهذه من أعظم المعجزات لرسول الله عليه الصلاة والسلام، أن يغشى جميع الجيش النوم في وقت البأس والخوف، قال علي رضي الله عنه: «ما كان فينا فارسٌ يومَ بدرٍ غيرُ المقداد - أي ليس فينا من يركب فرساً في غزوة بدر غير المقداد بن عمرو - ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسولُ الله ﷺ يصلي تحت شجرةٍ ويبكي، حتى أصبح الصباح» وصدق الله إذ يقول: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ أي يلقي عليكم النعاس والنوم، أماناً من عنده سبحانه وتعالى، لا فزعاً وخوفاً، بل طمأنينةً وأماناً، وهذا من الآيات الباهرة في تأييد الله لعباده المؤمنين، كما حدث أيضاً في معركة أحد، حيث نام المؤمنون بعد طول مشقة وعناء، حتى قال أبو طلحة رضي الله عنه: كنت ممن غشيه النعاسُ يوم أحد، ولقد سقط السيف من يدي مراراً، يسقط وآخذه، ويسقط وآخذه، ولقد نظرتُ إلى القوم يمدون وهم تحت الحَجَفِ»^(١) أي تحت التروس.

«إمداد المؤمنين بالملائكة تقاتل معهم»

ثم تلتها الآيات تذكر ما أيد الله به المؤمنين في بدر، من إمدادهم بالملائكة لنصرة نبيه ودينه، يقاتلون - إلى جانب المؤمنين - أعداء الله، فيضربون الرؤوس، ويحزؤون الرقاب، ويقطعون الأطراف، ويزلزلون قلوب المشركين بإلقاء الرعب فيها، وقد شاركت الملائكة بالقتال فعلاً،

(١) انظر السيرة الحلبية، وسيرة ابن هشام، ففيهما تفصيلٌ لتلك الأحداث.

حتى إن الرجل من المسلمين، كان إذا اقترب من المشرك يريد قتله،
ينفصل الرأس قبل أن يَهْوِي بالسيف عليه، فلا يشعر إلا وقد تدرج
المشرك مضرجاً بدمائه، بقتل الملائكة له، وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه:
﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلَتِي فِي
قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ، فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ
بَنَانٍ﴾ أي فاضربوا منهم الرقاب، واضربوا منهم أطراف الأصابع، وفائدة
الضرب على البنان - وهي أطراف الأصابع - أنَّ المقاتل إذا ضُربت
أصابعه تعطل عن القتال، فأمكن أسرُه وقتلُه، وقد كان يُعرف قتيْلُ
المسلمين، من قتيْل الملائكة، بهذه العلامة، كما قال الربيعُ بن أنس
رضي الله عنه: كان الناسُ يوم بدر يعرفون قتلَى الملائكة بضربِ فوق
الأعناق، وعلى البنان، مثلُ علامةٍ بالنارِ قد أُحرق بها^(١). ثم وضح
تبارك وتعالى السبب في قتل هؤلاء المشركين، فقال تقدست أسماؤه
﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعِقَابِ﴾ والمعنى ذلك العذاب الشديد الفظيع، واقع عليهم بسبب
أنهم عاندوا وحاربوا الله ورسوله، ومن يخالف أمر الله، ويعادي شرعه
ودينه، فإن عقاب الله أليم، وبطشه شديد، وقد كرر الله ذكر العقاب
ردعاً وزجراً للمشركين، وللطغاة المفسدين فقال سبحانه ﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ
وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ أي ذلكم العقاب فذوقوه يا معشر الكفار في
الدنيا، مع أن لكم ما هو أشدُّ وأخزى من هذا العقاب في الآخرة، وهو
عذاب النار، الباقي المستمر الذي لا ينقطع ولا يُخَفَّف عن أهل
الجحيم، اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، ونجنا من عذاب
السعير يا أرحم الراحمين.

(١) ذكر هذا الأثر الحافظ ابن كثير في تفسيره ٩١/٢.

«التحذير من الفرار من المعركة»

كانت هذه المعركة أول غزوات الرسول ﷺ، والتقت فيها الفئة المؤمنة القليلة، مع الطُغمةِ الباغيةِ الكثيرة، ولقد كان المسلمون يهابون لقاء العدو في بادية الأمر، وذلك لقلة عددهم، وعدم استعدادهم، فقد خرجوا يريدون التعرض لقافلة قريش، وما كانوا يحسبون حساب لقاء الأعداء، فلذلك هابوهم وتمنوا أن تكون لهم العير دون النفير كما قال تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾^(١) ولهذا جاءت الآيات الكريمة، تأمرهم بالثبات في الميدان، وعدم الانهزام من المعركة، وقد أذرتهم الآيات بالعذاب الشديد، إن هم آثروا الفرار على الصمود أمام الأعداء، مهما كثر عددهم، وقويت شوكتهم، فإنَّ المؤمن يقاتل لإعلاء كلمة الله، وأمنيته أن ينال الشهادة في سبيل الله، فكيف يفرُّ من الزحف ويهرب من الميدان؟ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ. وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدِ دُبْرَهُ، إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ، أَوْ مُتَحِيزًا إِلَى فِتْنَةٍ، فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

وهذا التصوير الرائع الذي صوَّر به القرآن الكريم جيش الأعداء، صورة فنية من أبدع صور البيان، فقد مثلَّ لكثرتهم ووفرة عددهم، بجيش يزحف على الأرض زحفاً، لا يكاد يرى الإنسان موضع قدم، كأنَّ بعضهم متداخل في بعض، فهم لا يسرون على الأرض سيراً، إنَّما يزحفون زحفاً، كما يزحف الصبيان على الأيدي والأقدام، وهذا هو السرُّ في تعبير القرآن ﴿إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا﴾ ومع هذا الجيش

(١) المراد بقوله تعالى «غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ» أي غير الحرب يعني الطائفة التي لا سلاح لها، وهي العير التي تحمل التجارة، والشوكة: السلاح، وأصلها من الشوك، لأن الحرب فيها ضربٌ وطعن بالسيوف والرماح، كما قال أهل اللغة.

العرمرم الزاحف، فلا يجوز للمسلم أن يهرب أمام العدو، لأن الهرب من المعركة، يُطمع العدو في الإقدام، ويجعل المسلمين يَدُبُّ في قلوبهم الوهن والضعف، وهم يرون إخوانهم يهربون من الميدان، وقد استثنى الله عزَّ وجلَّ حالتين اثنتين فقط، يجوز فيهما الهرب من ساحة القتال وهما كالآتي:

الحالة الأولى: أن يفرَّ أمام العدو مكيدةً له، ليريه أنه خاف منه فيتبعه، ثم يكرُّ عليه فيقتله، وهذا في الحقيقة ليس بهرب، إنما هو ضربٌ من ضروب الخديعة في القتال، و«الحربُ خُدعةٌ»^(١) كما قال النبي عليه الصلاة والسلام، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ أي يفرُّ من أجل أن يكرُّ، ويتظاهر بالهرب ليستدرج عدوّه، فهو عين الشجاعة والبطولة.

الحالة الثانية: أن يترك إحدى الجبهات التي كان يقاتل فيها، لينضمَّ إلى جبهة أخرى قلَّ العدد فيها، أو ركَّز الأعداء عليها، فهي تحتاج إلى عون ونصير، لا سيما إذا استنجدت إحدى فرق المسلمين، فإذا ترك القتال هنا، لينضمَّ إلى إخوانه المؤمنين هناك، فهذا لا يعدُّ هرباً إنما هو صمودٌ وإقدام، حيث يترك العدد الكثير، لينضمَّ إلى العدد القليل، فالخطر عليه أعظم، والبأس منه أشدُّ، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ أي منضمماً إلى جماعة من المؤمنين يقاتل معهم في معركة الصمود والشرف.. وفي غير هاتين الحالتين فقد اعتبر الإسلام الفرار جريمة من الجرائم، وكبيرة من الكبائر، يستحق عليها الإنسان غضب الجبار، والخلود في النار، كما نبّه تعالى على ذلك بقوله: ﴿وَمَنْ

(١) الحديث رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، وهو بفتح الخاء وضّمّها، جامع الأصول ٥٧٥/٢.

يُولِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ، فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبَشَسَ الْمَصِيرُ ﴿١﴾ كما عدَّ النبي ﷺ الفرار من المعركة من السبع الموبقات، وهي الكبائر التي تهلك صاحبها، وتوبقه في نار الجحيم، فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات: قيل وما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، والسُّحْرُ، وقتل النفس التي حَرَّمَ الله إِلَّا بِالْحَقِّ، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف - أي الهرب من المعركة يوم القتال - وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» (١).

«معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ»

ثم تابعت الآيات تذكّر الرسول والمؤمنين، بفضل الله وإنعامه عليهم، حيث نصرهم على الأعداء دون جهدٍ كبيرٍ ولا عَنَاءٍ، بل بقبضةٍ من ترابٍ رماها الرسول على الكفار، فولّوا الأدبار، وكانت إحدى الآيات الباهرة، والمعجزات الظاهرة للرسول عليه السلام ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ، وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. ذَلِكَُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ والمعنى في هذه الآيات البينات: إنكم لم تقتلوهم أيها المسلمون ببدر بقوّتكم وقدرتكم، ولكنّ الله قتلهم، بنصركم عليهم وإلقاء الرعب في قلوبهم، وما رميت أنت يا محمد حين رميت أعين القوم بقبضةٍ من تراب، لأن كفاً من تراب لا يمكن أن تصل إلى عيون الجيش الكبير بأكمله، ولكنّ الله رمى بإيصالها إليهم، حتى ولّوا الأدبار منهزمين، فالرمي في الصورة لك، وفي الحقيقة لله جلّ وعلا، الذي يصنع

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي، وانظر الفتح الكبير للسيوطي

الأعاجيب، في نصرة جنده وأوليائه، روى الحافظ ابن كثير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «رفع رسول الله ﷺ يديه يوم بدر، ودعا ربه فقال: يا ربَّ إن تهلك هذه العصابة فلن تُعبد في الأرض أبداً، فجاءه جبريل فقال له يا محمد: خذ قبضةً من التراب، فارم بها في وجوه المشركين، فأخذ قبضةً من التراب فرمى بها في وجوههم، فما من المشركين أحدٌ إلا أصاب عينيه ومنخره وفمه ترابٌ، من تلك القبضة، فولوا مدبرين، وأقبل أصحاب رسول الله يقتلونهم ويأسرونهم، وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾^(١). وهكذا كانت غزوة بدر، مظهراً من مظاهر العز والنصر، وظهرت فيها آيات باهرات، أيد الله بها رسوله وعباده المؤمنين.

«بدر نصرٌ مبينٌ للمؤمنين»

لقد كانت غزوة بدر التي تحدثت عنها سورة الأنفال بالتفصيل، فيصلاً بين الحق والباطل، والكفر والإيمان، وكانت فتحاً مبيناً، أعزَّ الله بها الإسلام والمسلمين، وأذلَّ فيها الشرك والمشركين، فلقد نفخ الشيطان في أنصاره وأتباعه، حتى خرجوا على كل صعب وذلول، يريدون القضاء على محمد ﷺ وعلى دين محمد، ولكنَّ الله بعزَّته وقدرته، أراد أن تكون هذه الموقعة نصراً مبيناً لجند الرحمن، وتظهر فيها آياته الباهرة، وقدرته القاهرة، فجمع المؤمنين مع أعدائهم على غير ميعاد، ثمَّ كان الفتح المبين للمؤمنين مع عدم التهيء والاستعداد، وفي ذلك يقول الله جلَّ وعلا ممتناً على أوليائه ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى، وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. ذَلِكَُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾.

(١) انظر تفسير مختصر ابن كثير ٩٣/٢ للصابوني.

«طغيان قريش وجبروتها»

ثم تلتها الآيات تتحدث عن طغيان قريش، وعُتُوها وجبروتها، فلقد خرج المشركون لبدرٍ بعد أن نجت تجارتهم، يريدون الحرب والقتال، ولكنهم قبل أن يخرجوا طافوا بالبيت سبعا، وتعلّقوا بأستار الكعبة، وطلبوا من الله عز وجل أن ينصرهم على محمد وعلى أتباعه، وقالوا في دعائهم: اللهم انصر أعلى الجندين، وأكرم الفشتين، وخير القبيلتين، وقال أبو جهل يوم خروجه لبدر: اللهم أينما كان أفجر، وأقطع للرحم، وأظلم لقومه، فأحنه الغداة - أي فأهلكه اليوم - فكان أبو جهل هو المستفتح، وهو المستنصر، فأنزل الله عز وجل ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ، وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ، وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ، وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ، وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. والمعنى: إن تطلبوا يا معشر الكفار الفتح والنصر على المؤمنين، فقد جاءكم الفتح، وهو الهزيمة والقهر، فلقد سمى الله الهزيمة التي لحقت بقريش فتحاً ونصراً، على سبيل «السخرية والتهكم»، وهذا أسلوب من أساليب العرب البلاغية، يضعون الشيء مكان ضده تهكماً وسخرية كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فالبشارة بالعذاب أسلوب من أساليب التهكم، لأن العذاب ليس أمراً ساراً يُبشّر به الإنسان، ثم قال تعالى مخاطباً المشركين: ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي وإن تكفوا يا معشر قريش عن حرب الرسول ومعاداته، وعن الكفر بالله وبرسوله، فهو خير لكم في دنياكم وآخرتكم، ثم توعدهم بعد ذلك بقوله: ﴿وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ﴾ أي وإن تعودوا لحربه وقتاله، نعد لنصرته وهزيمتكم ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي لن تدفع عنكم جماعتكم التي تستنجدون بها، شيئاً من العذاب والبلاء الذي ذقتموه، مهما كثر الأعوان والأنصار، ثم ختم

الآية بأروع وأبدع ختام، وهو كالتعليل على نصرة أوليائه المجاهدين. فقال: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وأن الله معهم بالعون والنصر والتأييد، ومن كان الله معه فلن يُغلب أبداً.

«سعادة المؤمن بطاعة الله ورسوله»

ثم جاءت الآيات تأمر المؤمنين المجاهدين بالسمع والطاعة، لأمر الله وأمر رسوله، وعدم الاستجابة لداعي الشيطان، وتحذّرهم من مخالفة أمر الرسول ﷺ، فإن في طاعته الفوز والفلاح، وفي معصيته الخسار والدمار ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ. وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي لا تشبهوا بالكفار ولا تكونوا مثلهم، وهم الذين سمعوا الهدى والقرآن بأذانهم، دون قلوبهم، فلم يستفيدوا من هداية القرآن، لأن الغرض من السماع التدبر والانتفاع، فمن لم ينتفع من الكلام، فهو بمنزلة الأنعام، ولهذا شبههم تعالى في الآية بعدها بالدواب السارحة، التي لا تسمع ولا تعي، ولا تستجيب لدعوة الحق والإيمان ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ويا له من تشبيه رائع، بالغ الروعة والبيان!! والمعنى: إِنَّ شَرَّ الخلق، وشر البهائم التي تدبُّ على وجه الأرض، هؤلاء الكفار الأشرار، الصمُّ الذين لا يسمعون الحق، البكم الذين لا ينطقون بكلمة التوحيد والإيمان، الذين فقدوا العقل الذي يُميّز به المرء بين الخير والشر^(١).

(١) لم يكتف القرآن أن جعلهم كالدواب والأنعام، بل جعلهم أخس من البهائم حين قال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ وذلك نهاية الذم والتقيح للكفرة المجرمين، قال بعض المفسرين: الآية في منتهى الإيجاز والإعجاز، إذ أن الكافر لا يسمع الحق، والبهائم لا تسمعه، ولا ينطق به والبهائم لا تنطق، ويأكل والبهائم تأكل، بقي أنه يضرب والبهائم لا تضرب، فكيف لا يكون شرّاً منها؟!.

«الكفار بمنزلة الأنعام»

قال المفسرون: نزلت في جماعة من قريش من بني عبد الدار، كانوا يقولون إذا سمعوا آيات القرآن: نحن صمٌّ بكمَّ عما جاء به محمد، لا نسمع ولا نعقل ما يقول، ولما كانت غزوة بدر توجَّهوا مع أبي جهل لقتال الرسول، ففيهم نزلت، وهي تشمل كل كافرٍ معرضٍ عن الإيمان، وفي الآية الكريمة غاية الذم والتقييح للكفرة المشركين، وتصوير لهم في غاية الروعة، بأنَّهم أشرُّ من البهائم والخنازير والحمير، لأنهم لم يستفيدوا من حواسهم التي أنعم الله بها عليهم، من سمع، وبصر، وعقل، وإدراك، فكانوا لذلك أخسَّ من الحيوانات والدواب السارحة ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَّ هُمْ أَضَلُّ﴾.

وتأكيداً لإمعانهم في الضلالة، وسيرهم في طُرُق الغواية، فقد أخبر القرآن الكريم عن تشبُّههم بالأفكار الخبيثة، واستمساكهم بأهداب الباطل، مهما كان الحق واضحاً أمام الأنظار، ساطعاً سطوع الشمس في النهار ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ والمعنى: لو علم الله جلَّ وعلا في هؤلاء الكفار شيئاً من الخير، لأسمعهم القرآن وهُدي النبي عليه السلام، سماع تفهم وتفكر وتدبر، ولو فرض أن الله أسمعهم، لأعرضوا عن هداية الله جحوداً وعناداً، والآية مثل حيٍّ من صور البغي والعدوان لهؤلاء المجرمين الفجار.

«توجيهات ربانية للمؤمنين»

تناولت هذه السورة الكريمة، التوجيهات الربانية، والإرشادات

(١) هذا من باب «الفرض والتقدير» أي لو فرضنا وقدَّرنا أن لهم سمعاً وفهماً وإدراكاً، ثم أسمعهم الله آياته البينات، وحججه الواضحات، لكفروا وجحدوا عتواً وضلالاً، ولكن لا خيرَ فيهم، ولا منفعة تُرجى من ورائهم.

الإلهية، التي أرشد الله - تقدّست أسماؤه - إليها عباده المؤمنين، وهذه التوجيهات والإرشادات جاءت منبثّة في هذه السورة، ضمن سرد أحداث غزوة بدر، فبعد أن ذكر تعالى في الآيات المتقدمة المصير المشؤوم للكفار، وشبههم بالأنعام السارحة، لأنهم أعرضوا عن قبول دعوة الله، أمر المؤمنين بعد ذلك بالاستجابة لله والرسول، وقبول دعوته التي فيها حياة القلوب، وبها السعادة الكاملة في الدنيا والآخرة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ، وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ. وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

خاطب تعالى المؤمنين بهذا الخطاب الكريم، وناداهم ببناء الإيمان، ليحفزهم على الاعتصام بالقرآن، الذي به حياة النفوس والقلوب، وغذاء العقول والأرواح. قال قتادة: «إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ» هو القرآن، فيه «الحياة، والثقة، والنجاة، والعصمة في الدنيا والآخرة..»^(١).

«قصة سعيد بن المعلّى»

أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أبي سعيد بن المعلّى قال: «كنت أصلي في المسجد فمرّ بي النبي ﷺ فدعاني فلم أجبه، ثم أتيتُه فقلت يا رسول الله: إني كنت أصلي!!، فقال: ألم يقل الله ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؟ ثم قال لي: ألا أعلمك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد؟ ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج قلت: ألم تقل: لأعلمنك سورة هي

(١) ذكر هذا الأثر الحافظ ابن كثير في تفسيره ٩٥/٢.

أعظم سورة في القرآن؟! قال: «الحمد لله رب العالمين» هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته».

«معنى الآية الكريمة»

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ أي أنه تعالى المتصرف في شؤون الخلق والكون، يُصرف القلوب كيف يشاء، بما لا يقدر عليه البشر، فيفسخ عزيمة الإنسان، ويُغير مقاصده، ويلهمه الرُّشدَ والسَّدَادَ، أو يُزيغ قلبه عن الصراط المستقيم، ولهذا كان ﷺ كثيراً ما يدعو بهذا الدعاء العظيم «اللهم يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك».

روى الإمام أحمد عن أم المؤمنين - أم سلمة - رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يُكثر في دعائه فيقول: «اللهم مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»، قالت فقلت يا رسول الله: أو إنَّ القلوب لتُقلب؟ قال: نعم، ما خلق الله من بشرٍ من بني آدم، إلَّا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله عز وجل، فإن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه»^(١) ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾.

«في السكوت على المنكر دمار الأمة»

والآية الكريمة تضمنت الحثَّ على المراقبة، والخوف من الله عز وجل، والمبادرة إلى الاستجابة لله وللرسول، ثم ختمها تعالى بالوعيد الشديد، لمن استهان بحرمات الدين، أو رأى المنكر فسكت عنه فقال: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

العِقَابِ ﴿ أَيِ احذَرُوا بَطْشَ اللَّهِ وَانْتِقَامَهُ، إِنْ عَصَيْتُمْ أَمْرَهُ، وَخَالَفْتُمْ رَسُولَهُ، وَاحذَرُوا مِنْ فِتْنَةٍ كَبِيرَةٍ، تَدْعُ الْحَلِيمَ حَيْرَانَ، لَا تَقْتَصِرُ عَلَى الظَّالِمِ فَحَسْبُ، بَلْ تَعْمُ الصَّالِحَ وَالطَّالِحَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَلَّا يَقْرَءُوا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ، فَيَعْمَهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ، فَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ ﴿ إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ، أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ ﴾ ^(١).

«أَمِنْ وَاسْتَقَرَّارٌ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ»

ثم انتقلت السورة تذكّر المؤمنين بفضل الله وإنعامه عليهم، حيث نصرهم عن قِلَّةٍ، وآمنهم بعد خوفٍ، وأغناهم بعد فقرٍ، وجعل لهم وطناً آمناً يستقرون فيه، وهو «المدينة المنورة» التي آوت المهاجرين إليها، وكلُّ ذلك من فضل الله وإنعامه عليهم، ليشكروه على هذه النعم الجليلة، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ، تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ، فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ، وَزَرَقَكُمْ مِنَ الطُّيَّاتِ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ والغرض من هذه الآية تذكير المؤمنين بالنعمة التي أنعم بها الله عليهم، فإنهم كانوا قبل ظهور الرسول وبعثته إليهم، كانوا في غاية القِلَّةِ والذَلَّةِ، تحت أيدي الفرس والروم، وبعد بعثته وظهوره ﷺ صاروا في غاية العِزَّةِ والرفعة. قال قتادة: كان هذا الحيُّ من العرب - يريد سكان الجزيرة العربية - أذلَّ الناس ذلًّا، وأشقاءهم عيشاً، وأجوعهم بطوناً، وأعراهم جلوداً، وأبينهم ضللاً، من عاش منهم عاش شقياً، ومن مات منهم رُدِّي في النار، يُؤْكَلُونَ وَلَا يَأْكَلُونَ، وَاللَّهِ مَا نَعْلَمُ قَبِيلًا مِنْ حَاضِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ، كَانُوا يَوْمئِذٍ أَشَرَّ ^(١) رواه أبو داود والترمذي في باب التفسير رقم (٣٠٥١) وانظر جامع الأصول لابن الأثير ٣٣٠/١.

منزلاً منهم، حتى جاء الله بالإسلام، فمكّن لهم في البلاد، ووسّع لهم في الرزق، وجعلهم ملوكاً على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا الله على نعمه، فإن ربكم منعم كريم، جواد رحيم، يحبُّ الشكر، وأهلُّ الشكر في مزيدٍ من الله»^(١) وقوله تعالى: ﴿تَخَافُونَ أَنَّ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ صورة بيانية من ابلغ صور البلاغة والبيان، تشير إلى الحالة التي كان عليها العرب، من عدم الأمن والاستقرار، فكأنهم نهبٌ لكل ناهب، يطمع فيهم كلُّ عدوٍّ وطامع، حتى أعزَّهُم الله بالإسلام.

«التحذير من الخيانة»

ثم تلتها الآيات الكريمة، تحذّر من الخيانة، وتدعو إلى الأمانة، «الأمانة مع الله، والأمانة مع عبادة، والأمانة في الودائع والمعاملات المالية» ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ. وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ، وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

روي في سبب نزول هذه الآية أن الرسول ﷺ لما حاصر يهود بني قريظة، طلبوا منه الصلح، فأمرهم أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فقالوا: أرسل لنا «أبا لبابة» فبعثه رسول الله إليهم، فقالوا يا أبا لبابة ما ترى؟ أنزل على حكم سعد؟ فأشار إلى حلقه - يعني إن رضيتم بحكمه فسيحكم عليكم بالذبح - قال أبو لبابة: والله ما زالت قدماي عن مكانهما، حتى عرفتُ أنني قد خنت الله ورسوله، ثم قال: لا والله لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً، حتى أموت أو يتوب الله عليّ، وانطلق إلى مسجد المدينة فربط نفسه في سارية منه، فنزلت الآية: ﴿يَا

(١) ذكر هذا الأثر الحافظ ابن كثير في تفسيره ٩٧/٢.

أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله... ﴿١﴾ الآية ثم نزلت توبته، فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه، وأرادوا أن يحلّوه من السارية، فحلف لا يحلّه منها إلاّ رسول الله ﷺ بيده، فحلّه صلوات الله عليه، فقال يا رسول الله: إني كنت نذرتُ أن انخلع من مالي، صدقة لله، فقال له عليه السلام: يجزيك الثلث أن تتصدّق به» ﴿١﴾ وكانت هذه الحادثة درساً بليغاً للمؤمنين.

«اجتماع قريش بدار الندوة»

تناولت هذه السورة - إلى جانب أحداث غزوة بدر - أخباراً عجيبة، وأنباءً غريبة، حدثت لرسول الله ﷺ قبل الهجرة، حيث تأمر عليه المشركون وذلك حين ظهرت دعوته، وانتشرت رسالته، وكثر أتباعه وأنصاره، وخشي طواغيت مكة أن تنتشر دعوة الإسلام، فاجتمعوا في «دار الندوة» يتشاورون ويتآمرون على هذا النبي الكريم، الذي جاءهم بعزّ الدنيا وسعادة الآخرة، ولكنهم من سفههم وحمافتهم أرادوا أن يطفئوا شُعلة الإيمان، وجذوة الإسلام، ويقضوا على صاحب الرسالة «محمد بن عبد الله» صلوات الله وسلامه عليه بطريق المكر، وأساليب القهر والطغيان، فالتقوا في أحدٍ منتدياتهم وهي «دار الندوة» يخطّطون ويرسمون ويمكرون، بقيادة الزعيم الأكبر «إبليس اللعين» الذي تصوّر لهم بصور شيخ ناصح أمين، وحضر ذلك اللقاء المغلق، الذي حضره طواغيت الكفر والضلال، من زعماء قريش، ليمكروا بصاحب الرسالة، وعن هذه المؤامرة الدنيئة، يقول الله تقدّست أسماؤه مذكّراً نعمته على رسوله ﷺ، بعد أن ذكّر المؤمنين

(١) رواه الحافظ ابن كثير عن الزهري، ورواه عبد الرزاق، وانظر كتابنا «صفوة التفاسير» ١/ ٥٠٠.

بنعمته عليهم: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ ومعنى الآية الكريمة: اذكر يا محمد حين تأمر عليك المشركون في دار الندوة «لِيُثْبِتُوكَ» أي يقيدوك ويحبسوك «أَوْ يَقْتُلُوكَ» أي بالسيف ويضربوك ضربة رجل واحد، ليتفرق دمك بين القبائل «أَوْ يُخْرِجُوكَ» أي يطردوك ويخرجوك من مكة، قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ أي ويحتالون ويتآمرون عليك يا محمد في جنح الظلام، ويدبر لك ربك ما يُبطل مكرهم، ويكشف أمرهم، ويرد كيدهم في نحورهم ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أي وتدبيره تعالى أقوى من مكرهم، وأشد قوة وأبلغ تأثيراً، حيث أبطل مكرهم، وأطلع رسوله على مؤامرتهم.

«قصة غريبة من التآمر على رسول الله»

روى الحافظ ابن كثير بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن نفراً من قريش، من أشراف ورؤساء كل قبيلة، اجتمعوا ليدخلوا «دار الندوة» فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل، فلما رأوه قالوا له: من أنت؟ قال: شيخ من أهل نجد - وكان أهل نجد في ذلك الزمان مشهورين بالشجاعة وجودة الرأي - سمعت أنكم اجتمعتم فأردت أن أحضركم، ولن يعدمكم رأيي ونصحي!! قالوا: أجل فادخل، فدخل معهم، فقالوا: أنظروا في شأن هذا الرجل - يعنون محمداً ﷺ - واللّه ليوشكن أن يوائبكم - أي يغلبكم - في أمركم بأمره، فقال قائل منهم: احبسوه في وثاق، ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك، كما هلك من قبله من الشعراء، قال: فصرخ عدو الله إبليس فقال: واللّه ما هذا برأيي، واللّه ليخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه، فليوشكن أن يثبوا عليكم حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه

منكم، فما آمنُ عليكم أن يخرجوكم من بلادكم، قالوا: صدق الشيخ، فانظروا في غير هذا.

قال قائل منهم: أخرجوه من بين أظهركم فتستريحوا منه، فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع إذا غاب أذاه، فقال الشيخ النجدي: واللَّهِ ما هذا لكم برأي، ألم تروا إلى حلاوة قوله، وطلاقة لسانه، وأخذ القلوب بما تسمع من حديثه؟ والله لئن فعلتم ليجتمعن عليه العرب، ثم ليأتينَّ إليكم حتى يخرجكم من بلادكم، ويقتل أشرافكم، قالوا: صدق واللَّهِ، فانظروا رأياً غير هذا.

فقال أبو جهل لعنه الله: واللَّهِ لأشيرنَّ عليكم برأي ما أراكم أبصرتموه بعد، لا أرى لكم غيره، قالوا: وما هو؟ قال: تأخذون من كل قبيلة غلاماً شاباً نَهْدًا، ثم يُعطى كلُّ غلامٍ منهم سيفاً صارماً، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرَّق دمه في القبائل كلها، فما أظن أن هذا الحيُّ من بني هاشم يَقْوُونَ على حرب قريش كلها، فإنَّهم إذا رأوا ذلك قبلوا الدية، واسترحنا منه، وقطعنا عنا أذاه، فصرخ عدوُّ الله إبليس: هذا واللَّهِ الرأي، القول ما قاله الفتى، ولا رأي غيره، فتفرقوا على ذلك وهم مجمعون له، فأتى جبريلُ النبي ﷺ فأمره ألاَّ يبيتَ في مضجعه الذي كان يبيت فيه، وأخبره بمكر القوم، فدعا رسول الله «عليَّ بن أبي طالب» فأمره أن يبيت على فراشه، ويتسجَّى ببرِدٍ له أخضر، ففعل، ثم خرج رسول الله على القوم، وهم على بابه، وخرج معه بحفنة من تراب، فجعل ينثرها على رؤوسهم، وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه عليه الصلاة والسلام وهو يقرأ: ﴿يَسْ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ وأذن الله لرسوله بعد ذلك

بالحجرة، فخرج مهاجراً إلى المدينة المنورة، وفي هذه الحادثة التي تأمر عليه بها المشركون، أنزل الله عز وجل هذه الآيات البيّنات: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

«طغيان وجبروت»

ثم تلتها الآيات تُبَيِّنُ عناد قريش وكفرهم وطغيانهم، فقد استهزؤا بالقرآن وبمن أنزله، وزعموا أنه أساطير الأولين، وخرافات السابقين، اخترعه محمد من تلقاء نفسه، ونسبه إلى الله، ولو أرادوا لأتوا بمثل هذه الأباطيل ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا، إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾. وهذا غاية المكابرة ونهاية العناد، فكيف يزعمون أنهم قادرون على الإتيان بمثله، وقد تحداهم مرّاتٍ ومرّاتٍ، ولم يستطيعوا أن يأتوا بمثل سورة واحدة منه، ولكنه الجحود والتكذيب والعناد!!!

«دعائهم على أنفسهم بالهلاك»

ثم تأتي الآيات لتكشف لنا عن مشهد آخر، من مشاهد طغيانهم وعتوّهم وعنادهم، فقد قالوا ما حكاه عنهم القرآن الكريم ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي إن كان هذا القرآن حقاً منزلاً من عندك، فلن نؤمن به ولن نتبعه، فانزل علينا حجارة وحصباء من السماء، أو ائتنا بعذاب مؤلم فظيع، تعذبنا وتهلكنا به، قالوا ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء، وكان الأولى بهم لو كانوا عقلاء أن يقولوا: اللهم إن كان

(١) انظر سيرة ابن هشام، وتفسير الطبري، والقرطبي، وابن كثير.

ما جاءنا به محمد هو الحق من عندك، فوفقنا لاتباعه واهدنا إليه، ولكنهم لسفهِهم وحمقتهم طلبوا العذاب بدل الرحمة، والشقاوة بدل الهداية، وهذا يدلنا دلالة واضحة على مبلغ ما قاساه الرسول ﷺ من هؤلاء العُتاة الغلاظ الأجلاف، الذين عاش بين أظهرهم، وقد بين تبارك وتعالى سبب إهمالهم، وعدم إهلاكهم بعذاب الاستئصال، ألا وهو وجود الرحمة المهداة، «محمد بن عبد الله» الذي بعثه الله رحمة للعالمين كما قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ، وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي إنهم مستحقون للعذاب، ولكنه تعالى لن يعذبهم ما دمت بين أظهرهم، إكراماً لك يا محمد، فقد جرت سُنَّةُ اللَّهِ أَلَّا يُعَذِّبَ أُمَّةً وَنَبِيَّهَا بَيْنَ ظَهْرَانِيهَا، حتى يخرج من بينها، ثم ثَمَّةُ سبب آخر لعدم نزول عذاب الاستئصال، ألا وهو أن الله تعالى يعلم أن منهم من سيتوب، ويؤمن ويدخل في دين الإسلام، ومنهم من سيظل على الكفر، ولكن أبناءه يسلمون، فلو أهلك الله الآباء لهلك معهم الأبناء، ولو أخذوا بالعذاب قبل أن يتذوقوا طعم الإيمان، لما كان فيهم المجاهدون الأخيار، والصحابه الأبرار، وهذا ما تعنيه الآية الكريمة ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي فيهم من يؤمن، وفيهم مؤمنون مستضعفون، يستغفرون الله، ولكنهم لا يستطيعون إظهار إسلامهم، خوفاً من أن يبطش بهم أعداء الله... قال ابن عباس رضي الله عنه: كان فيهم أمانان: النبي، والاستغفار، فذهب النبي، وبقي الاستغفار.

«استهزاؤهم حالة الطواف والصلاة»

ثم تتابعت الآيات تطالعنا على مشهد آخر من قبائحهم وشنائعهم، فقد كان صناديد قريش إذا رأوا المسلمين يُصَلُّون حول

البيت العتيق، يُصَفَّرُونَ وَيُصَفَّقُونَ، لِيُخْلَطُوا عَلَيْهِمْ صَلَاتُهُمْ، وَيَشَوْشُوا عَلَيْهِمْ عِبَادَتُهُمْ، وفي ذلك يقول الله تقدست أسماؤه: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً﴾ أي صغيراً ﴿وَتَصَدِيَةً﴾ أي تصفيقاً ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وروى عن ابن عباس أنه قال: «كانت قريش تطوف بالبيت عُراة، تصفّر وتصفق» هكذا كانت عبادتهم، وهكذا كان دينهم، لا يعرفون إلا الله والعبث، حتى في حالة العبادة والطواف، وهكذا زين لهم الشيطان سوء أعمالهم، ومن يضلل الله فما له من هاد.

«إنفاق الأموال للنصد عن سبيل الله»

وتمضي الآيات بعد ذلك لتخبرنا عن مؤامرات الكفار نحو هذا الدين العظيم، فإنهم يبذلون المال، ويُقَدِّمُونَ الغالي والنفس، ليطفئوا نور الله، ويأبى الله إلا أن يُتَمَّ نوره ولو كره الكافرون ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ روى الإمام الطبري في تفسيره أنه «لما أصيب كفار قريش يوم بدر، ورجعت فلولهم إلى مكة قالوا: يا معشر قريش إن محمداً قد وترككم - أي أخذ ثأره منكم - وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا، فنزلت الآية»^(١).

والآية وإن نزلت في كفار قريش، لكنها عامة لجميع الكفار، في كل زمان ومكان، يُجْهِدُونَ أنفسهم لحرب الإسلام، وَيُنْفِقُونَ أموالهم لتهديم بنيانه، ويبوءون بالخيانة والخسران، قد خسروا الأموال، وفقدوا الرجال، فلن يصمدوا أمام المجاهدين الأبطال، من

(١) انظر جامع البيان للطبري، ومختصر تفسير ابن كثير للصابوني ١٠٣/٢.

أمة محمد عليه الصلاة والسلام، وهذا وعدٌ من الله بنصرة أوليائه،
وخذلان أعدائه، وصدق الله حيث يقول: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا
وَرُسُلِي، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

«دعوتهم للتوبة والإنابة»

ثم تنتقل الآيات لتدعوهم إلى التوبة والإنابة، مع إغراقهم في
الكفر والضلال، وتفتح أمام أنظارهم أبواب الرحمة، مهما كثرت
جرائمهم، وتعددت أساليبهم في الكيد للإسلام، ومحاربة أوليائه،
وكل ذلك من رحمة الله بالعباد، فإنه خَلَقَهُمْ لِيَرْحَمَهُمْ، ولم يخلقهم
ليعذبهم. ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ، وَإِنْ
يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء
المشركين من قومك، الذين حاربوك وعادوك وأخرجوك من الوطن،
إن ينتهوا عن الكفر ويؤمنوا بالله، ويكفوا عن قتالك وقتال المؤمنين،
يغفر الله لهم ما قد سلف من الذنوب والآثام، وإن عادوا إلى قتالك
وتكذيبك والصدء عن دين الله، فقد مضت سنة الله في إهلاك وتدمير
المكذبين، ففي هذه الآية، إعداء وإنذار، لكل عاصٍ وفاجر وكافر،
أن يكف عن الغي والضلال، قبل أن يحلَّ به عذاب الكبير المتعال.

«كيف تُقسم الغنائم»

وبعد أن تناولت الآيات السابقة الحديث عن المشركين،
ومصيرهم القبيح المشؤوم في الدنيا والآخرة، وما أعدَّ الله لهم من
العذاب والنكال، وأمر بقتالهم وتطهير الأرض من رجسهم، وكان لا
بدَّ بعد القتال من أن يغنم المجاهدون الغنائم، ذكر تبارك وتعالى
بعدها حكم تلك الغنائم، وكيف تقسم وتوزع بين المجاهدين فقال
تقدسست أسماؤه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ، فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسُهُ

وَلِلرُّسُولِ ، وَلِذِي الْقُرْبَى ، وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ ، يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ولقد كانت الغنائم محرمة على الأمم السابقين ، حتى يكون الجهاد خالصاً لوجه الله ، لا يشوبه شيء من أمور الدنيا ، ولا يكون لمغنم أو مكسب ، وأحلّه الله جلّ وعلا لهذه الأمة المحمدية ، لعلمه تعالى بصدقها ، وإخلاصها ، وجهادها لنصرة دين الله ، دون جشع أو طمع ، ومن غير إرادة لكسب دنيوي عاجل ، فالأصل في الجهاد أن يكون لإعلاء كلمة الله ، ولنصرة الحق ، والدفاع عن المستضعفين في الأرض ، وللتخلص من شر الكفرة المجرمين ، وهذه الأمة المحمدية هي الأمة التي قاتلت وتقاتل لرفع راية « لا إله إلا الله » دون نظر إلى مغنم أو مكسب ، فلذلك أكرمها الله تعالى بإحلال الغنائم لها ، كما قال سيدنا رسول الله ﷺ : « أُعْطِيَتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي - وَعَدَّ مِنْهَا قَوْلُهُ - وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي » (١) .

وقد تكفلت الشريعة الغراء ، بقسمة هذه الغنائم على الوجه العادل الكريم ، وذلك على ضوء ما ورد في هذه الآية الكريمة من إعطاء الخمس - أي خمس الغنيمة - لمن ذكرهم الله تعالى في هذه الآية وهم : الرسول ﷺ ، وقرباته من بني هاشم وبني المطلب ، ولأيتام ، والمساكين ، وابن السبيل ، وهو الغريب المنقطع في سفره من المسلمين ، وأربعة أخماس الغنيمة تقسم بين المجاهدين .

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والنسائي ولفظه : أُعْطِيَتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتَهُ الصَّلَاةَ فَلْيَصِلْ ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً .

وهؤلاء المجاهدون لهم الحظُّ الأوفر من هذه الغنائم، لأنهم إنما اكتسبوها بجهادهم وجهودهم وتضحيتهم، فاستحقوا أن ينالوها كاملة، ولكنه تعالى أعطى الخمس منها للفقراء والمساكين، وللأرامل والأيتام، ولقراة النبي عليه الصلاة والسلام، من باب التعاون بين المسلمين، لأن الإسلام دين العطف والتعاون والمواساة، فلا ينبغي أن يُحرَم الضعيف والعاجز الذي لا يستطيع القتال، من هذا العطاء والنوال.

«تفصيلٌ دقيقٌ لأحداث المعركة»

ثمَّ عادت الآيات تفصّل وتبيّن بعض أحداث «غزوة بدر» جاءت تصوّرها للسامع حتى كأنّها رأيٌ عينيّ، فلقد انتهت المعركة بنصر المؤمنين، وانهزام المشركين، وحقق الله لرسوله وعده، ونَصَرَ جنده، وأعزَّ دينه، ولما كانت هذه أولى غزوات الرسول، فقد أسهبت السورة في تفصيل أحداث هذه الغزوة، ليتذكر المؤمنون نعمة ربهم عليهم، فما غلب المسلمون ولا انتصروا في تلك المعركة، بكثرة رجالٍ، أو وفرة سلاحٍ، أو قوة بأسٍ وجنكةٍ في الحروب، وإنما انتصروا بفضل الله وحده، حيث أمدهم بالملائكة يقاتلون معهم أعداء الله، وألقى الرعب في قلوب المشركين حتى ولّوا الأدبار ولنستمع إلى الآيات البينات، وهي تفصّل وتصور لنا المعركة، على أدق صور البيان والتوضيح ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ، وَلَكِنْ لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وتوضيحاً لمعنى الآية نذكر تفسير عباراتها يقول تعالى: ﴿إِذْ

أَنْتُمْ بِالْعُدُوَّةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوَّةِ الْقُصْوَى ﴿١﴾ أَيِ اذْكُرُوا يَا مَعْشَرَ
 الْمُؤْمِنِينَ حَالَكُمْ، وَقَدْ كُنْتُمْ بِجَانِبِ الْوَادِي الْقَرِيبِ إِلَى الْمَدِينَةِ،
 وَأَعْدَاؤُكُمْ الْمُشْرِكُونَ بِالْعُدُوَّةِ الْقُصْوَى أَيِ مِنْ جِهَةِ الْوَادِي الْأَبْعَدِ عَنْ
 الْمَدِينَةِ ﴿وَالرُّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ أَيِ وَالْعَيْرُ الَّتِي فِيهَا تِجَارَةُ قَرِيشَ الَّتِي
 خَرَجْتُمْ مِنْ أَجْلِهَا، فِي مَكَانٍ أَسْفَلَ مِنْ مَكَانِكُمْ، فِيمَا يَلِي سَاحِلَ
 الْبَحْرِ ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ أَيِ لَوْ تَوَاعَدْتُمْ أَنْتُمْ
 وَالْمُشْرِكُونَ عَلَى الْقِتَالِ، لَأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْوَقْتِ وَالزَّمَانِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ
 بِقُدْرَتِهِ وَحُكْمَتِهِ هَيَّا الْأَسْبَابَ، وَيَسِّرْ وَتَمِّمْ ذَلِكَ، دُونَ سَابِقِ اتِّفَاقٍ،
 قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ وَالْمُسْلِمُونَ يَرِيدُونَ عِيرَ
 قَرِيشَ، حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ، ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى
 السَّبَبَ فِي هَذَا الْخُرُوجِ، وَفِي هَذِهِ الْحَرْبِ الَّتِي لَمْ يَكُنْ فِيهَا مِنْ جِهَةِ
 الْمُؤْمِنِينَ أَيُّ اسْتِعْدَادٍ فَقَالَ: ﴿وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾
 أَيِ وَلَكِنْ جَمَعَ بَيْنَكُمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ، لِتَعْلَمُوا أَنَّ الْفَتْحَ وَالنَّصْرَ الَّذِي
 أَحْرَزْتُمُوهُ إِنَّمَا كَانَ بِقُدْرَةِ اللَّهِ وَحَسَنِ تَدْبِيرِهِ، لَا بِقُوَّتِكُمْ وَاسْتِعْدَادِكُمْ،
 وَلِتَتَيَقَّنُوا أَنَّ مَا حَدَثَ لَكُمْ مِنْ غَنَائِمٍ وَانْتِصَارٍ بَاهِرٍ، لَيْسَ إِلَّا صُنْعًا مِنَ
 اللَّهِ جَلٍّ وَعِلًّا، خَارِقًا لِلْعَادَاتِ ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ
 حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ أَيِ فَعَلَ ذَلِكَ تَعَالَى، لِيَكْفُرَ مَنْ كَفَرَ عَنْ وَضُوحٍ وَبَيَانٍ،
 وَيُؤْمِنَ مَنْ آمَنَ عَنْ بَصِيرَةٍ وَبَرَهَانٍ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أَيِ سَمِيعٌ
 لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ، عَلِيمٌ بِنِيَّاتِهِمْ، يَعْلَمُ الصَّادِقَ مِنَ الْكَاذِبِ، وَالْمَخْلَصَ مِنَ
 الْمُنَافِقِ.

«تَحْقِيقُ الرُّؤْيَا الْمَنَامِيَّةِ»

ثُمَّ تَلَتْهَا الْآيَاتُ تَتَحَدَّثُ عَنْ تَحْقِيقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ الرُّؤْيَا
 الْمَنَامِيَّةِ الَّتِي رَأَاهَا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَبَشَّرَ بِهَا أَصْحَابَهُ قَبْلَ الْمَعْرَكَةِ،

ليزدادوا شجاعة وإيماناً وبقيناً بنصرة الله لهم ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا، وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ وَتَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأُمْرِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ثم تلتها الآية بعدها وهي تذكر كرامة ظاهرة من الله جل وعلا لجنده المؤمنين، فقد كان عدد المشركين ألف مقاتل، ولما التقوا وجهاً لوجه مع المؤمنين، رأى المشركون المؤمنين كثرةً كثيرة، وكان ذلك من آيات الله الباهرة، أراهم المؤمنين يفوقونهم في العدد، حتى يجبنوا ويضعفوا عن لقاءهم، وقلل عدد المشركين في أعين المؤمنين، حتى يتجرأوا عليهم، وكان ذلك من أسباب النصر، في غزوة بدر، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا، وَيَقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ، لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ قال ابن مسعود: لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلتُ لصاحبي أتراهم يكونون مائة (١)؟ وهكذا حقق الله النصر للمؤمنين، بتقليل عدد الأعداء في أعينهم، وذلك من آيات الله الباهرة.

«عناصر النصر»

وبعد أن ذُكر تبارك وتعالى عباده المؤمنين المجاهدين، بما أكرمهم به من العز والنصر في غزوة بدر، وإحرازهم للغنائم في أول معركة خاضوها مع الأعداء، جاءت الآيات هنا لترشدهم إلى آداب اللقاء، وطريق الشجاعة والثبات عند المبارزة، والإكثار من ذكر الله

(١) هذا الأثر ذكره الطبري في تفسيره ٥٧٣/١٣ وابن كثير ١١٠/٢ أقول: وهذا التقليل كان قبل التحام الحرب، فلما التحم القتال، ودارت المعركة، كثُر الله المؤمنين في أعين الكفار، فبهتوا وهابوا، وفُتت شوكتهم، ورأوا ما لم يكن في الحسبان، وهذا من عظام آيات الله في تلك الغزوة، كما قال تعالى في سورة آل عمران ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ وهذه رؤية حقيقية، رؤية نظراً لا رؤية منام.

جلّ وعلا، ليستمطروا بذلك رحمة الله، ويستنزّلوا نصره وإمداده، فإن الله هو القويّ المتين، الذي يعين من استنجد به وطلب حماه، وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا، وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

عناصر أربعة لاستنزال النصر، واكتساب المعركة، والقضاء على الأعداء، ألا وهي:

- ١ - الثبات في الميدان عند احتدام المعركة.
- ٢ - والإكثار من ذكر الله تبارك وتعالى.
- ٣ - وعدم الاختلاف والتنازع بين المسلمين.
- ٤ - والصبر عند الشدائد والمكاهة عند ملاقات الأعداء.

تلك هي العناصر التي أرشدت إليها الآيات الكريمة، فالمؤمن إنّما يقاتل لغرضٍ شريف نبيل، ألا وهو إعلاء كلمة الله، لا لغرض دنيء سافل، من مغنم، أو شهرة، أو مكسب، فكيف لا يثبت في الميدان؟ وكيف لا يستمدّ عونه من الرحمن؟ وقد نهت الآية الكريمة أنّ الخصام والخلاف والتنازع، سبب الهزيمة، وسبب الوهن والخور، وذهاب القوة والبأس. ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي ولا تتنازعوا وتختلفوا فيما بينكم، فيدبّ فيكم الخور والوهن، وتذهب قوتكم وبأسكم، قال الحافظ ابن كثير: وقد كان للصحابّة رضوان الله عليهم في باب الشجاعة، وامثال ما أرشدهم إليه القرآن، ما لم يكن لأحدٍ من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحدٍ بعدهم، فإنهم ببركة الرسول ﷺ وطاعته فيما أمر، فتحوا القلوب والأقاليم في المدة اليسيرة، مع قلة عددهم بالنسبة إلى

جيوش سائر الأقاليم، وقهروا الجميع، حتى علت كلمة الله، وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، في أقل من ثلاثين سنة، فرضي الله عنهم وأرضاهم^(١).

«التحذير من الأشر والبطر في المعركة»

ثم تلتها الآيات تحذّر المؤمنين من التشبه بالمشركين، أهل البغي والعدوان، الذين خرجوا لقتال المسلمين أشراً وبطراً، يدفعهم حبُّ الشَّاء، والظهورُ بمظهر العظمة والكبرياء، والتفاخر والتباهي بكثرة الأموال والأعوان، لا دفاعاً عن مظلوم، ولا حباً في نصرة الحقِّ، والدُّودِ عن الأهل والأولاد، وإنما لمجرد الفخر وكسب الشَّاء، أنهم أبطال مغاوير، أصحاب بأسٍ وقوة، وفي ذلك يقول القرآن الكريم، موجهاً المؤمنين إلى إخلاص النية في كل الأعمال ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ قال محمد بن كعب: لما خرجت قريش من مكة إلى بدر، خرجوا بالقيان - أي بالمغنيات - والدفوف - أي الطبول - إظهاراً للعظمة والكبرياء، والآية تشير إلى ما قاله عدوُّ الله «أبو جهل» حين بعث إليهم أبو سفيان يقول لهم: ارجعوا فقد نجى الله عيركم وأموالكم ورجالكم، فقال أبو جهل: لا والله، لا نرجع حتى نأتي بدرأ، ونقيم بها ثلاثاً، فنشرب فيها الخمر، وننحر الجزور، وتعزف علينا القيان - أي المغنيات - وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا بعدها أبداً.

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١١١/٢.

قال الطبري: «فَسُقُوا مَكَانَ الْخَمْرِ كُؤُوسَ الْمَنِيَا، وَنَاحَتْ عَلَيْهِمُ
النَّوَاحِ مَكَانَ الْقِيَانِ»^(١).

«قصة إبليس مع أعوانه»

ثم حكى الآيات بعدها قصةً عجيبَةً حدثت للمُشْرِكِينَ، تلك هي قصة «إبليس اللعين» حين تَمَثَّلَ لِأَعْوَانِهِ وَأَنْصَارِهِ، بِصُورَةِ رَجُلٍ مِنْ بَنِي مَدْلَجٍ يُدْعَى «سَرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ» لِيَنْفِخَ فِيهِمْ رُوحَ الْبَطُولَةِ وَالْكَفَاحِ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ، وَالْقِصَّةُ وَاقِعِيَّةٌ حَكَاهَا الْمَفْسُرُونَ، وَأَشَارَتْ إِلَيْهَا آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ، فِي قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ، وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ﴾ أَي أَنَا مُجِيرٌ وَمُعِينٌ لَكُمْ فِي حَرْبِكُمْ ﴿فَلَمَّا تَرَأَتْهُ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾ أَي فَلَمَّا تَلَاقَى الْفَرِيقَانِ: جَيْشُ الْمُؤْمِنِينَ، وَجَيْشُ الْكَافِرِينَ، وَلَّى الشَّيْطَانُ هَارِباً مُوَلِّياً الْأَدْبَارَ ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ، إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

روى الحافظ ابن كثير بسنده إلى ابن عباس قال: «جاء إبليس يوم بدرٍ في جندٍ من الشياطين، معه رأيته، في صورة رجلٍ من بني مدلج هو «سراقة بن مالك» فقال الشيطان للمُشْرِكِينَ: لا غالب لكم اليوم من الناس، وإني جارٌّ لكم، فلما اصطفَّ الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضةً من التراب، فرمى بها وجوه المُشْرِكِينَ، فولَّوا مدبرين، وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس، فلما رآه - وكانت يده في يد رجلٍ من المُشْرِكِينَ - انتزع يده ثم ولَّى مدبراً مع شيعته، فقال الرجل: يا سراقة أترزع أنك لنا جار؟ فقال: «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ،

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري ٥٨٧/١٣.

إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ» وكذب عدو الله، والله ما به مخافة الله، ولكنه علم أنه لا قوة له ولا منعة، وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه وانقاد له^(١) وفي الحديث الصحيح «ما رؤي الشيطان يوماً هو فيه أصغر، ولا أدر، ولا أحقر، ولا أغبط منه في يوم عرفة، إلا ما رأى يوم بدر، فإنه رأى جبريل يزع الملائكة - أي يصفها للقتال -»^(٢).

وتختم الآيات الكريمة بما قاله أهل الضلال والنفاق، حين رأوا قلة المسلمين في بدر، وقلة أتباع محمد عليه السلام قالوا: غر هؤلاء دينهم، يظنون أنهم ينتصرون في هذه الحرب على ألف مقاتل من صناديد قريش فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فأعلمهم الله تعالى أن النصر بيد الله، ليس بكثرة العدد، ولا بوفرة السلاح، وإنما هو بالإيمان والتوكل على الرحمن، ولهذا ختم الآية بقوله ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي غالب قاهر، لا يضام من استجار به، وهو تعالى حكيم في صنعه وتدبيره.

«مشاركة الملائكة في المعركة ببدر»

انتهت «غزوة بدر» بانتصار باهر لجند الرحمن، وهزيمة ساحقة لجند الشيطان، وظهرت في هذه الغزوة آيات باهرات، ومعجزات ساطعات، لنبي الهدى والرحمة محمد بن عبد الله ﷺ ولا تزال الآيات تكشف لنا عن أسرار انتصار المؤمنين في تلك الغزوة، مع أنهم كانوا أقل عدداً، وأضعف قوة، وأدنى تدريباً وجنكةً من خصومهم

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ١١٢/٢.

(٢) الحديث أخرجه مالك في الموطأ، وانظر تفسير القرطبي، والألوسي.

المشركين، فكيف انتصروا عليهم ذلك الانتصار الساحق؟ الذي سحق رؤوس الكفر والضلال، وصناديد وزعماء قريش؟ إنه تأييد الله للمؤمنين، وإمدادهم بالملائكة تحارب معهم، فتبطش وتضرب هام الأعداء، وتكويهم بسياط من نار، وهذا ما أشارت إليه الآيات الكريمة، حيث يقول تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ مِمَّنَّا عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ، يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارُهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ. ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَكُمْ، وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ لقد نزلت هذه الآيات في أعقاب غزوة بدر، بعد أن انتهت المعركة لصالح المؤمنين، فنزلت هذه الآيات لتذكّرهم بفضل الله وإنعامه عليهم.

والمعنى: لو رأيت وشاهدت أيها المخاطبُ أو أيها السامع حالة المشركين ببدر، حين تقبض ملائكة العذاب أرواحهم، وقد حُذِفَ من الآية جواب «لَوْ» للتهويل والتفظيع أي لرأيت أمراً فظيعاً، وشأنًا هائلاً لا يكاد يُوصَف، وذلك حين تضربهم الملائكة من أمامهم وخلفهم، على وجوههم وظهورهم، بمقامع من حديد، ويقولون لهم: ذوقوا يا معشر الكفرة الفجرة، عذاب النار المحرق، وذلك العذاب بسبب ما كسبتم من الكفر والآثام، وأنه تعالى عادل في أحكامه، لا يظلم أحداً ولا يعذبه بدون ذنب.

«الآية حكمها عام في كل كافر»

قال المفسرون: كانت الملائكة ببدر معهم أسواط من نار، يضربونهم بها فتشتعل جراحاتهم نارا، وقال ابن عباس: كان المشركون إذا أقبلوا بوجوههم إلى المسلمين، ضربوا وجوههم

بالسيوف، وإذا وُلُّوا أدركتهم الملائكة يضربون أذبارهم^(١)، فذلك قوله تعالى: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأُذْبَارَهُمْ﴾ والآية وإن كان سببها وقعة بدر، ونزلت في أعقابها، ولكنها عامة في حق كل كافر، كما يقول الحافظ ابن كثير، فهي تشمل كل كافر عندما تقبض الملائكة روحه كما جاء في حديث البراء بن عازب «أن مَلَك الموت إذا جاء الكافر عند احتضاره، في تلك الصورة المنكرة يقول: اخرجي أيتها النفس الخبيثة إلى سموم وحميم، وظل من يحوم، فتفرق في بدنه، فيستخرجونها من جسده كما يخرج السُّفود من الصوف المبلول، فتخرج معها العروق والعصب»^(٢).

«هلاك الطغاة المجرمين»

وتمضي السورة فتسرد لنا ما حلَّ بقریش والمشرکین، بسبب كفرهم وعنادهم، وتكذيبهم لسيد الخلق، كما حلَّ بمن سبقهم من الطغاة المجرمين، قوم فرعون والمكذبين قبلهم للأنبياء والمرسلين ﴿كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ، فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ والمعنى: طريق هؤلاء الكفرة ودأبهم في العمل والإجرام، كعمل وطريق آل فرعون، ومن تقدمهم من الأمم كقوم نوح، وعاد، وثمود، في العناد والتكذيب، والكفر والإجرام، جحدوا ما جاءتهم به الرسل من عند الله، فأهلكهم الله بكفرهم وتكذيبهم، لأنه تعالى قوي البطش، شديد العذاب، لا يغلبه غالب، ولا يفوته هارب.. ولقد كان ما حلَّ بقریش من الهزيمة،

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١١٢/٢ للصابوني.

(٢) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الإمام أحمد في المسند من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه مرفوعاً، وانظر تمام الحديث في تفسير ابن كثير ٢٩٧/٢ المختصر.

والأسر، والقتل، عظيمًا وكبيرًا، فوق ما كان يخطر على البال، وما كان هذا العذاب والنكال الذي أصابهم، إلا لأنهم كفروا نعمة الله، فلقد كانوا في مكة في أمنٍ واستقرار، ورفاهية وسعادة، تُجَبِّي لهم الخيرات، من الفواكه، والحبوب، والثمار، من جميع البلدان والأقطار، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يجوعون إذا جاع الناس، لأنهم في حرم آمن، وفي سعة ورفاهية، وأكمل الله عليهم النعمة ببعثة سيد ولد عدنان، ولكنهم كذبوه وقاوموه وقاتلوه، حتى اضطر أن يهاجر من مكة، فماذا حلَّ بهم بعد أن كفروا النعمة؟

«تغيير الأحوال بالكفر والعصيان»

لقد غيّر الله حالهم، فنقلهم من الأمن إلى الخوف، ومن السعة إلى الضيق، ومن اليسر إلى العسر، وابتلاهم الله بالمصائب والشدائد، حتى أكلوا الوبر والدم من شدة الفقر والجوع، ثم قُتِل صناديدهم آخر الأمر في بدر، وهذه نتيجة كل من كفر نعمة الله، وفي ذلك يقول ربُّنا تقدست أسماؤه ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ، وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي ذلك الذي حلَّ بقريش وبأهل مكة من العذاب، بسبب أن الله لا يغيّر نعمةً أنعمها على أحد من الخلق، وأنه تعالى لا يُبدِّل النعمة بالنقمة ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ أي حتى يُبدِّلوا نعمة الله بالكفر والعصيان، كتبديل كفار مكة نعمة الله التي كانوا عليها، من الخصب والسعة، والأمن والعافية، بالكفر والصدِّ عن سبيل الله، وقتال رسوله والمؤمنين قال السدي: «نعمه الله على قریش بعثه محمد ﷺ فيهم، فكفروا به وكذبوه، فنقله الله إلى المدينة المنورة، وحلَّ بالمشرکین العقاب»^(١).

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٩/٨.

«من سنن الله الكونية»

وهذه سنة من سنن الله الاجتماعية، أنه تعالى لا يُبدّل حال قوم، فينقلهم من العز إلى الذل، ومن الغنى إلى الفقر، ومن الأمن إلى الخوف، إلّا إذا بدّلوا هم الشكر إلى الكفر، وركبوا طريق العصيان، وكفروا بآيات الرحمن، فيقلب الله حياتهم إلى البؤس والشقاء، كما فعل بأهل مكة لمّا كذبوا خاتم المرسلين، وقد كرر تعالى ذكر العقوبة، زيادة في التشنيع والتوبيخ على إجرامهم، فقال جلّ ثناؤه ﴿كَذَّابَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ، وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ والمعنى شأن حال هؤلاء المشركين وعاداتهم، كشأن وحال المكذبين السابقين، حيث غيّروا حالهم فغيّر الله أحوالهم، وبدّل نعمته عليهم، فأهلكهم بسبب ذنوبهم، بعضهم بالرجفة، وبعضهم بالخسف، وبعضهم بالحجارة، وبعضهم بالغرق، وهكذا تنقلب النعمة إلى نقمة، كما غيّر الله أحوال أهل مكة، اللهم لا تهلكننا بذنوبنا برحمتك يا أرحم الراحمين.

«نقض اليهود للعهود»

لا تزال الآيات تتحدث عن «غزوة بدر» تلك الغزوة التي كانت تاجاً بين سائر الغزوات والفتوحات، وبمناسبة الفتح والقتال، والطعن والنزال، والعهود والمواثيق، فلقد جاءت السورة الكريمة لتتحدث عمّا حدث من اليهود، من النقض للعهود، وهذه سِمَةٌ بارزة من صفات اليهود، في كل عصر وزمان، لا يكادون يفون بوعده، أو يصدّقون بعهده، وقد كان رسول الله ﷺ عاهد يهود «بني قريظة» ألا يحاربوه، ولا يعاونوا عليه المشركين، فنقضوا العهد، وأعانوا عليه

كفار مكة بالسلاح يوم بدر، ثم قالوا نسينا وأخطأنا، واعتذروا عند الرسول عليه السلام، ممّا صنعه بعض السفهاء منهم، فعاهدهم مرة أخرى ظناً منه أنهم صادقون، فنقضوا العهد، ومالؤوا الكفار يوم «غزوة الأحزاب» فنزلت الآيات في سورة الأنفال، لتضع حداً لهذا التآمر والتلاعب، في أمر «العهود والمواثيق» ولتأمر الرسول والمؤمنين بقتال من نقضوا العهد، ليكون ذلك درساً بليغاً، لمن تحدّثه نفسه بالخيانة في أمرٍ خطير من أعظم الأمور، وفي ذلك يقول جلّ ثناؤه، وتقدست أسماؤه: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ. فَمَا تَثِقْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾.

«سبب النزول»

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في بني قريظة من اليهود، منهم «كعب بن الأشرف» وأصحابه، عاهدهم رسول الله ﷺ ألا يحاربوه فنقضوا العهد فنزلت ﴿الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا تَثِقْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ إرشاد من الله جلّ وعلا لرسوله عليه السلام، في طريقة تأديب أولئك الناكثين للعهود، من اليهود وغيرهم، والمعنى: إن تظفر بهم يا محمد في الحرب، فاقتلهم ونكّل بهم تنكيلاً شديداً، يشرّد غيرهم من الكفرة المجرمين ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ أي لعلهم يتعظون بما شاهدوا فيرتدعون، وكأن الآية تقول له: اجعلهم عبرة لمن يعتبر، حتى لا يطمع غيرهم في نقض عهد، ولا تبقى لهم قوة على محاربتك.

« طرح العهد عن بيّنة ووضوح »

وإذا كان الوفاء بالعهد واجباً على المسلمين، فلا يصح لقائد جيش أو كتيبة أن ينقض العهد، إذا شعر بأمارات الغدر ودلائل الخيانة من الأعداء، حتى يُعلمهم بأنّه لا عهد بينه وبينهم، لأنهم نقضوا العهد، ولا يصح له أن يقاتلهم بغتة، دون سابق إنذار، فإن ذلك ليس من خلق المسلم، ولا من طبيعة شرع الله، وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه: ﴿وَمَا تَخَافُنْ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ ومعنى الآية الكريمة: إن أحسست يا محمد من قوم معاهدين خيانة للعهد، ونكثاً للميثاق بأمارات ظاهرة ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ أي اطرح لهم عهدهم على بيّنة ووضوح من الأمر، وأعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم، حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حربٌ لهم وهم حربٌ لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء أي تستوي أنت وهم في ذلك، قال الإمام النحاس: هذا من معجز ما جاء في القرآن، مما لا يوجد في الكلام مثله، على اختصاره، وكثرة معانيه والمعنى: وإما تخافن من قوم - بينك وبينهم عهدٌ - خيانة، فانبذ إليهم العهد أي قل لهم: قد نبذت إليكم عهدكم وأنا مقاتلكم، ليعلموا ذلك فيكونوا معك في العلم سواء، ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد، وهم يثقون بك، فيكون ذلك منك خيانةً وغدرًا، فاختصر كل ذلك بقوله: «فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ»^(١) وقد ختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ وهو كالتعليل للأمر بنبذ العهد، هذا هو حكم الإسلام بالنسبة إلى العهود، وهو حكمٌ شريف عادل، يفوق كل صور

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٢/٨، وكتاب أبي جعفر النحاس هو الكتاب الذي أقوم بتحقيقه الآن، في مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى، وسيصدر قريباً إن شاء الله.

العدالة، التي عرفتها البشرية في تاريخها الطويل.
«قصة معاوية مع أهل الروم»

روى الحافظ ابن كثير عن سليم بن عامر رضي الله عنه قال: كان معاوية يسير في أرض الروم، وكان بينه وبينهم أمد - مدة من الزمن - فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر، الله أكبر، وفاء لا غدر، إن رسول الله ﷺ قال «ومن كان بينه وبين قوم عهد، فلا يحلنَّ عُدَّةً ولا يشدَّها حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء» قال: فبلغ ذلك معاوية فرجع عن غرضه، فإذا الشيخ «عَمْرُو بْنُ عَبْسَةَ» رضي الله عنه^(١).

«دعوة سلمان المشركين قبل الغزو»

وروى الإمام أحمد في المسند عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أنه - في إحدى المغازي - انتهى إلى حصن أو مدينة، فقال لأصحابه: دعوني أدعوهم كما رأيت رسول الله ﷺ يدعوهم، فجاءهم فقال: إنما كنت رجلاً مثلكم، فهداني الله عز وجل للإسلام، فإن أسلمتم فلکم ما لنا وعليکم ما علينا، وإن أبيتم فأدوا الجزية وأنتم صاغرون، وإن أبيتم نابذناكم على سواء - أي أعلننا الحرب عليكم على بينة بيننا وبينكم - ثم تلا: ﴿فَأَنبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِثِينَ﴾ يفعل ذلك بهم ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع، غدا الناس إليها ففتحوها بعون الله^(٢).

هذه تعاليم ديننا الحنيف، وهذه مشاعل عظمته وبهائه، في كل ما

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١١٤/٢ والحديث رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي، وابن حبان، وقال الترمذي: حسن صحيح، وهذا يدل على شدة اهتمام المؤمنين بالمهود.

(٢) تفسير ابن كثير المختصر ١١٤/٢.

حَكَمَ وشرع، تضيء طريق الخير والعدالة للإنسانية، وصدق الله حيث يقول ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ؟ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ؟﴾.

«إعداد جميع القوى لقتال الأعداء»

في أعقاب غزوة بدر- وبعد انتهاء المعركة بالنصر المبين للمؤمنين، واندحار الغزاة المشركين - جاءت التوجيهات الإلهية لجند الرحمن، بالتزام الخط المستقيم، الذي رسمه المولى جل وعلا لعباده، في أمر السلم والحرب، والأسر والغنائم، والمعاهدات والصلح، وسائر الأمور الحربية التي تتعلق بالجهاد في سبيل الله، وقد ذكرت الآيات المتقدمة موضوع نقض اليهود للعهود، وعالجته بما يتفق مع سمو الإسلام في تشريعه وتعاليمه، وفي عدالته وحكمه، وشدة حرصه على الوفاء بالعهود والمواثيق، ثم تلتها الآيات تأمر بإعداد العُدَّة لإرهاب الأعداء، وهذا ما يسمى «بالسُّلم المسلَّح» الذي يدعو إلى إيقاف الطغيان والعدوان، فهو ليس حرباً تشنُّ لزَهق الأرواح، ولا استسلاماً أمام الطامعين الغزاة، إنما هو تخطيط سياسي حكيم، لدراء العدوان، ودفع الظلم والطغيان، إنه استعدادٌ لمجابهة الشر، والوقوف في وجه الظلم والبغي، وفي ذلك يقول القرآن الكريم، موجهاً المؤمنين إلى هذا النوع من الجهاد الإنساني الرفيع ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ، وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ، تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ، وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ﴾.

والمعنى: أعدوا يا معشر المؤمنين لقتال أعدائكم جميع أنواع

القوة: «المادية، والعسكرية، والروحية» وإنما ذكر تعالى القوة هنا، لأنهم لم يكن لهم في بدر استعداد تام، فنبههم سبحانه على أن النصر من غير استعداد، لا يتأتى للمسلمين في كل زمان، ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ أي وأعدوا لهم الخيل التي تربط في سبيل الله، وإنما خصّ الخيل بالذكر، لأنها آلة للحرب في جميع الأزمنة والعصور، كما قال ﷺ: «الخيـل معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة»^(١) ثم بين تعالى السبب في هذا التهيء والإعداد فقال: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ أي تخوفون بتلك القوة أعداء الله وأعداءكم، فهي للإرعاب والإرهاب، لا للبطش والفتك ﴿وَأَخْرَجَ مِنْ دُونِهِمْ لَا يَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ أي وترهبون به آخرين، من أهل الغدر والنفاق، لا تعلمون ما هم عليه من النفاق ولكن الله يعلمهم، فيأمركم بالاستعداد لهم، والحدّز منهم، وإدخال الفرع إلى قلوبهم.

«لكل عصر ما يناسبه من القوة»

ومن هنا - أخـي المسلم - ندرك أهمية القوة، وأهمية الاستعداد لها، لنواجه أعداءنا بتبصرٍ وحذر، ونقابله بمثل السلاح الذي يقاتلنا به، فلا نكون مُغفّلين نقاتله بالحجارة والعصي، وهو يستعمل القنابل والرشاشات، أو نحاربه بالسيف والبندقية وهو يقاتلنا بالصواريخ والطائرات الحربية، فلكل عصرٍ وزمنٍ ما يناسبه من آلات الدفاع والقتال، ولعل هذا هو السرُّ في التعبير القرآني الرائع ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ فقد وردت مطلقةً لتشمل القوة التي تناسب كل عصر وزمان، فلم يقل: أعدوا لهم السهام والرماح، أو السيوف والخناجر، وإنما قال: «مِنْ قُوَّةٍ» وفي قوله سبحانه: ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ دليل ساطع

(١) الحديث أخرجه البخاري ورواه الطبراني بأطول من هذا.

على أن الواجب على المسلمين، أن يقدموا لحرب أعدائهم كل ما يستطيعونه من طاقة «فكرية، وبدنية، وعلمية، ومادية» ثم يتوكلون على الله ربّ الأرباب، الذي بيده العزّة والنصر، ثم إن لفظ القوة جاء بصيغة النكرة، والتذكير يفيد العموم، وذلك ليشمل عموم أنواع القوة «القوية المادية» من سلاحٍ وعتاد، و«القوة البدنية» من أجسام سليمة وسواعد فتية، و«القوة الروحية» من شجاعة ورسالة، وحبّ لنيل الشهادة في سبيل الله، كما كان القائد المسلم يفخر بشجاعة جنوده فيقول لقائد جيش الأعداء: «جئتكم بأقوام يحبون الموت كما تحبون الحياة»!!.

«أثر القوة الروحية»

ولعمر الحقّ إن هذه القوة، أعني «القوة الروحية» فهي أقوى وأمضى من كل سلاح نقاتل به الأعداء، فماذا تصنع القبلة أو المدفع في يد الخوّار الجبان، الذي يرتعد فزعاً، ويموت هلعاً؟ إنه بدل أن يصوّبه إلى صدر العدو، قد يصيب به نفسه، أو يقتل به رفاقه؟ وكيف يثبت في المعركة من لم يكن ثابت الجأش، قويّ العزيمة، عظيم الثقة بنصر الله!! ولنرجع - أيها الإخوة - قليلاً إلى الوراء، لنرى كيف انتصر المسلمون في معظم المعارك التي خاضوها، هل انتصروا بكثرة الرجال، ووفرة المال؟ أم انتصروا بقوة الإيمان، وصدق العزيمة، وإخلاص النية، وحبّ الاستشهاد في سبيل الله؟

هذا هو رسول الله ﷺ مع حفنة قليلة من المؤمنين، يحاصر اليهود في خيبر، وهم في حصونهم وقلاعهم مسلّحون، متهيئون للقتال، سلاحهم أوفر، وعددهم أكثر، ولم يلحقهم عناء السفر، ثم هم داخل الحصون المنيعّة، ورسول الله عليه السلام والمؤمنون في العراء، مصوّبة نحوهم سهام الأعداء، فلما دعاهم رسول الله إلى

الاستسلام والجلاء، لأنهم نقضوا معه العهد، أبوا وعزموا على القتال، فما كان من رسول الله عليه السلام إلا أن صاح بهم صيحةً أذهلتهم، وأوقعت في قلوبهم الخوف والفرع. . صاح بهم صيحة الإيمان «اللَّهُ أَكْبَرُ، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»^(١) فما كان منهم إلا أن ذهلوا، فإذا باليهود يدبُّ في قلوبهم الرعب، فألقوا السلاح، وفتحوا الحصون، واستسلموا أمام العدد القليل من جند الرحمن، وصدق الله العظيم ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ، فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا، وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ، فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾^(٢).

على هذه القوة الروحية تربى الرعيل الأول، ويمثل هذه البطولة والشجاعة انتصروا، فما أحرانا أن نربي شبابنا على مثل تلك التربية الروحية، لنعزُّ كما عزُّوا، ونسود كما سادوا!!.

«الدعوة إلى السلم بشرط العزة»

ولتتابع بإمعانٍ سرِّد أحداث غزوة بدر، التي أبلى فيها المؤمنون بلاءً حسناً، فبعد أن أمر تعالى بإعداد العدة لإرهاب الأعداء، أمر بعدها بالسلم بشرط العزة والكرامة، متى وجد السبيل إليه، أو احتاج إليه المسلمون، لأن الحرب ضرورة اقتضتها ظروف الحياة، لدفع العدوان، وحفظ الأديان، وتطهير الأرض من الظلم والطغيان، وفي ذلك يقول القرآن الكريم ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ

(١) حديث «الله أكبر، خربت خيبر. .» الخ أخرجه البخاري في المغازي، ومسلم في الجهاد، وأحمد في المسند ١٢٣/٣.

(٢) سورة الحشر آية رقم ٢/.

لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٠﴾ أي وإن مال الأعداء إلى الصلح والمهادنة، وطلبوا الهدنة والمصالحة، فمل إليها وأجبههم إلى ما طلبوا إن كان فيه مصلحة ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي اعتمد عليه وفوض أمرك إليه، ليكون لك عوناً ونصيراً على أعدائك ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوال عباده، العليم بنياتهم.

«جواز الصلح إن كان هناك مصلحة»

وهذه الآية نص في جواز الصلح والمصالحة، إن كان ثمة مصلحة للمسلمين أو حاجة، والمصلحة قد تظهر عند ضعف المسلمين، إما لقلة العدد، أو قلة المال، أو مع قوة المسلمين، وذلك إذا طمعوا في إسلام القوم، أو قبولهم للجزية، أو ليتفرغوا للبناء والتعمير، فالأصل في الحياة السَّلم، والحرب تأتي بالخراب والدمار، فلا ضرورة لها إلا إذا رفض العدو قبول الإسلام، وبدأوا هم بالعدوان كما قال سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ أما إذا طلبوا الصلح، ورضوا بأن يعيشوا في حماية الإسلام وتحت ظلاله، فالواجب أن نأخذ بالصلح بشرط عزة الإسلام والمسلمين، أما الصلح الدنيء المهين، الذي يُفرض على المسلمين فرضاً مع الذل والهوان، كالصلح مع إسرائيل في هذه الأزمان، فليس من الدِّين في شيء، وليس مما تشمله الآية، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ وأما مدة الصلح والمهادنة، فإذا لم يكن بالمسلمين ضعف، ورأى الإمام المصلحة في المهادنة فقد قال الإمام الشافعي رحمه الله: تكون الهدنة لمدة أربعة أشهر فما دونها، لقوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ وإن كان بالمسلمين ضعف، جازت الزيادة بحسب الحاجة إلى

عشر سنين، اقتداءً برسول الله ﷺ حين صالح المشركين من أهل مكة على وضع القتال عشر سنين، إلا أنهم نقضوا العهد قبل كمال المدة، فغزاهم رسول الله وكان فتح مكة.

«التيقظ من الغدر والمكر»

وأما إذا كان الغرض من الصلح، هو الغدر والمكر، والخديعة لكسب الوقت لتهيأ الأعداء لحرب المسلمين، فلا يجوز الصلح، لأنه مكرٌ وتغريب بالأمة، وقد نهت إليه الآية بعدها حيث قال تقدست أسماؤه ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ، هُوَ الَّذِي أُيِّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي وإن أرادوا بذلك الصلح خداعك، ليستعدوا لحربك وحرب المؤمنين، فإن الله يكفيك شرهم، وهو حسبك فلا تخف منهم لأن الله ناصرك ومعزك.

«حماية الله ونصرته لرسوله»

ثم بين تعالى كيفية حمايته ونصرته فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أُيِّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ أي هو تعالى الذي قواك وأعانك، وشد أزرك بالمؤمنين قال ابن عباس: يعني الأنصار الذين هاجر إليهم النبي عليه السلام فدافعوا عنه ونصروه، ثم قال تعالى ممتناً على رسوله: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ أي جمع بين قلوب الأنصار، على ما كان بينهم من العداوة والبغضاء، فأبدلهم بالعداوة حباً، وبالتباعد قرباً، قال الإمام القرطبي رحمه الله: «وكان تأليف القلوب مع العصبيّة

الشديدة في العرب، من آيات النبي ومعجزاته، لأن أحدهم كان يُلطم اللطمة، فيقاتل عليها وتُقَاتِل معه عشيرته، وكانوا أشد خلق الله حميةً، فألف الله بين قلوبهم بالإيمان، حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدين^(١) ولهذا قال تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

«الحروب الطاحنة بين الأوس والخزرج»

والأنصار الذين أشادت بذكرهم الآية الكريمة، هم «الأوس» و«الخزرج» قبيلتان عظيمتان، وقد كانت بينهما حروب كثيرة في الجاهلية، وعداوة وبغضاء، ودامت تلك الحروب والفتن عشرات السنين، من آخرها «حربُ بعاث» وكانت الحرب والعداوة تنتقل من الآباء إلى الأبناء، إلى الأحفاد، حتى كاد بعضهم يُفني بعضاً، حتى شرح الله صدورهم للإسلام، فسموا بعد ذلك بالأنصار، وأصبح حبهم جزءاً من الإيمان، كما قال عليه السلام: «حُبُّ الأنصار من الإيمان، وبغض الأنصار من النفاق»^(٢)، ولُنستمع إلى هذه القصة العجيبة.

«رُوي أن النبي عليه الصلاة والسلام لما قسم غنائم حنين، قسمها بين المهاجرين والطلقاء، ولم يعط الأنصار شيئاً، فكأنهم وجدوا في أنفسهم، إذ لم يصبهم ما أصاب الناس، حتى قال بعضهم: يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم!! فبلغ ذلك النبي ﷺ فدعاهم فجمعهم - ولم يذُع معهم غيرهم - فخطبهم عليه السلام فقال يا معشر الأنصار: «ألم أجدكم

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٥٣/٨.

(٢) الحديث أخرجه النسائي في سننه، وانظر الفتح الكبير ٦٨/٢.

ضَلَّالًا فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فالفكم الله بي؟ وكنتم عالةً فأغناكم الله بي؟ كلما قال شيئاً قالوا: اللَّهُ ورسوله أَمْنٌ، ثم قال لهم: أما ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون بمحمد إلى رحالكم؟ لولا الهجرة لكنتُ امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناسُ وادياً وشعباً لسلكتُ وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شِعَارُ والناسِ دثارُ»^(١) الحديث وهكذا أَلَّفَ الله قلوب الأوس والخزرج فأصبحوا يسمون الأنصار وصدق الله ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتْ بِينَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾.

«معونة الله للمؤمنين مشروطة بالجد والاجتهاد»

ثم جاءتُ السورة تتحدث عن جو المعركة بعد أن أعز الله الإسلام والمسلمين، بالنصر الباهر، والفوز المبين، لتذكّر المؤمنين بفضل الله وإنعامه عليهم، فما كان النصر لهم ببدر - على قلتهم وعدم استعدادهم - إلا آيةٌ من الآيات الباهرة، على نصرة الله لأوليائه وجنده المتقين، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ، وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ والمعنى: الله جلّ وعلا وحده كافيك وكافي أتباعك، فلا تحتاجون معه إلى أحد، من ناصرٍ أو معين، ومن كان الله معه فلا غالب له، فثق بنصر الله فإنه مع المتقين.

ثم بيّن سبحانه إن كفايته ومعونته، مشروطة بالجدّ والاجتهاد، في أمر القتال والجهاد، فقال حاثاً نبيه ﷺ على ترغيب المؤمنين في الجهاد في سبيل الله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ أي حثّهم وحضّهم ورغبهم بكل طاقتك وجهدك، على قتال أعداء

(١) الحديث أخرجه الشيخان، وذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ١١٦/٢ وانظر صحيح البخاري في المغازي باب «غزوة الطائف».

الله، ليفوزوا بإحدى الحسنيين: إما النصر وإما الشهادة، ثم قال تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ أي إن يوجد منكم يا معشر المؤمنين، عشرون صابرون على شدائد الحرب، يغلبوا مائتين من عدوهم، وهذا وعدٌ من الله وبشارة للمجاهدين بأنهم إن صبروا غلبوا عشرة أمثالهم بعون الله وتأييده، وقد كرّر تعالى هذا المعنى تأكيداً على تحقق النصر للمجاهدين الصابرين فقال: ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ وكفى بهذا الوعد حافزاً لهمم وعزائم المؤمنين، في أن يكون الواحد منهم يقابل عشرة، وينتصر على عشرة، فكيف لا يُقدم المؤمن وهو يسمع مثل هذا، بنصر الله للمؤمنين الصابرين، وهم يقابلون عدواً لهم يفوقهم في العدد عشر مرات؟! ثم بين تعالى السبب في غلبة المؤمنين على الكافرين فقال: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي سبب ذلك بأن الكفار قوم جهلة، لا يعرفون حكمة الله، ولا يعرفون طريق النصر وسببه، فهم يقاتلون على غير احتساب ولا طلب ثواب، ويعولون على قوتهم وشوكتهم، فلذلك يُغلبون، والمسلمون يتوكلون على ربهم، ويستغيثونه ويتوقعون منه ما وعدهم به من النصر والتأييد، فلذلك يُنصرون.

«تخفيف الله عن المجاهدين»

ولما كان المؤمنون يضعفون في بعض الأحيان، بسبب ضعف نفوسهم أو ضعف الإيمان، فقد جاءت الآيات بعدها تُخَفِّف عنهم بعض الأعباء، وتدعوهم إلى الصبر والثبات إذا كان العدو ضعفهم، أما إذا كان العدو أضعافاً مضاعفة، فلا يجب عليهم قتالهم ولا

مناجزتهم الحرب، رحمة بهم وشفقة عليهم، وفي ذلك يقول تقدست
 أسماؤه ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ
 مَائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ،
 وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ قال ابن عباس: كان ثبات الواحد للعشرة فرضاً،
 ثم لما شق ذلك عليهم نُسخ، وأصبح ثبات الواحد للإثنين فرضاً. .
 وفي رواية عنه: لما نزلت هذه الآية ثَقُلَ على المسلمين، وأعظموا أن
 يُقاتل عشرون مائتين، ومائة ألفاً، فخفف الله عنهم، فنسخها بالآية
 الأخرى^(١).

وقال عكرمة: إنما أمر الرجل أن يصبر لعشرة، والعشرة لمائة،
 حالما كان المسلمون قليلين، فلما كثروا خَفَّفَ الله عنهم، ولهذا قال
 ابن عباس: «أيما رجل فرٌّ من ثلاثة فلم يفرّ، فإن فرّ من اثنين فقد
 فرّ»^(٢).

وهكذا يتبلى الله عباده، بالشدائد والمحن، ويأمرهم بالجهاد
 والثبات، ثم يُنزل نصره على عباده المؤمنين.

«أروع الأمثلة في الشجاعة والبراعة»

ولقد ضرب المسلمون في الصبر والثبات في الجهاد أروع
 الأمثلة، وأظهروا شجاعة وبراعة تفوق التصور والخيال، فهذا رسول
 الله ﷺ يحرض المؤمنين على القتال في بدر، ويقول لأصحابه وهو
 يرى المشركين مقبلين نحوه في عددهم وعددهم: «قوموا بنا إلى جنة
 عرضها السموات والأرض» فإذا بهم كالأسود، يطيطون بهذه البشارة
 فرحاً وسروراً، ويسمع رجل من الصحابة ذكر الجنة والشهادة، واسمه

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١١٧/٢.

(٢) تفسير غرائب القرآن للنيسابوري ٢٣/١٠.

«عُمَيْرُ بْنُ الْحَمَامِ» وبيده تمرأت يأكلهن، فيقول: بخٍ بخٍ - أي ما أحسن هذا وأعظمه!! - جَنَّةٌ عرضها السموات والأرض، ثم يلقي بالتمرأت من يده ويقول: لئن أنا حييتُ حتى آكلهنَّ إنها لحياةٌ طويلة، ثم يتقدم في صفوف الأعداء، فيقاتل بشجاعة وبسالة، فيُقتل من المشركين عدداً، ثم يُقتل وينال الشهادة في سبيل الله، ويفوز بالجنة بشهادة رسول الله حيث قال له: إنك من أهلها.

«مقتل أبي جهل بيد الأشبال»

وفي «غزوة بدر» ظهرت بسالة المسلمين حتى الصغار، فقد قُتل فرعونُ هذه الأمة «أبو جهل» وكان الذي قتله فتَيَانُ حديثا السنَّ هما «معاذ بن عفراء» و«معاذ بن عمرو بن الجموح» ولنفسح المجال للصحابي الجليل «عبد الرحمن بن عوف» ليحدثنا عن مقتل أبي جهل فيقول: «إني لفي الصفِّ يوم بدر، إذ التفتُ فإذا عن يميني فتى، وعن يساري فتى، حديثا السنَّ، فكأنني لم آمن بمكانهما، إذ قال لي أحدهما سراً عن صاحبه: يا عمَّ أرني أبا جهل، أين هو أبو جهل؟ فقلت: يا ابن أخي ما تصنع به؟ قال: فإني قد عاهدتُ الله عز وجل إن رأيته أن أقتله، أو أموتَ دونه، وقال لي الآخر سراً من صاحبه مثل قول الأول، قال: فنظرتُ فأبصرته في المعركة، فأشرتُ لهما إليه، وقلتُ: دونكما هو هذا، قال: فشدَّا عليه مثل الصقيرين حتى ضرباه فأثخناه بالجراح، ثم جاء عبدالله بن مسعود: فحزَّ عنقه... ولما قُتل أبو جهل قال رسول الله ﷺ: اليوم قُتل فرعون هذه الأمة»^(١).

(١) انظر سيرة ابن هشام، ودلائل النبوة للأصبهاني ٦١٥/٢ والسيرة النبوية للشيخ أبي الحسن الندوي.

«قصة رائعة من أظهر دلائل النبوة»

روى الحافظ الأصبهاني في كتابه «دلائل النبوة» ٦١٦/٢ هذه القصة التي هي من أشهر وأظهر الدلائل والبراهين، على صدق هذا الرسول في دعوى النبوة، ممّا دفعت بعض المشركين إلى إعلان إسلامه، قال رحمه الله :

«عن عروة بن الزبير قال: جلس «عُمَيْرُ بْنُ وَهَبِ الْجُمَحِيِّ» مع «صفوان بن أمية» - بعد مصاب أهل بدرٍ من قريش بيسيرٍ - في الحجر، وكان عُمَيْرٌ شيطاناً من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ وأصحابه، ويلقون منه عناءً وهو بمكة، وكان ابنه «وَهَبُ بْنُ عُمَيْرٍ» في أسارى أصحاب بدر، فذكر أصحاب القلب ومصابهم - يريد الذين قُتِلُوا في بدر وألقوا في حفرة كالبثر من المشركين - فقال صفوان: واللّه ما في العيش خيرٌ بعدهم، فقال له عُمَيْرٌ: صدقت واللّه، أما واللّه لولا دينٌ عليّ ليس عندي قضاءٌ له، وعيالٌ أخشى عليهم الضيعة بعدي، لركبتُ إلى محمد حتى أقتله، فإن لي قبلهم عُذراً - يعني له عذر في السفر إلى المدينة - إن ابني أسيّر في أيديهم، فاغتنمها «صفوان بن أمية» وقال: عليّ دينك، أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أنفق عليهم ما بقوا لا يعجز عنهم شيء في وسعي، قال عُمَيْرٌ: اكنتم عليّ شأني، قال: أفعل.

ثم أمر عُمَيْرٌ بسيفه فشجذ له، وسُمِّ - أي وضع فيه السُم - ثم انطلق حتى قدم المدينة، فبينما «عمرُ بن الخطّاب» في نفرٍ من المسلمين في المسجد، يتحدثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم الله عزّ وجلّ به، وما أراهم من عدوّهم، إذ نظر فرأى «عُمَيْرَ بْنَ وَهَبٍ» حين أناخ على باب المسجد متوشحاً سيفه، فقال: هذا الكلبُ عدوّ الله عُمَيْرُ بن وهب ما جاء إلّا بشراً، وهو الذي حرّش بيننا يوم بدر - أي هيج

المشركين علينا - فدخل عمر على النبي ﷺ فقال: يا نبي الله هذا عدو الله «عُمير بن وهب» قد جاء متوشحاً سيفه، قال: فأدخله يا عمر، فأقبل عمر حتى أخذ بحُمالة سيفه في عنقه، فلبَّيه به، وقال لرجالٍ ممن كانوا معه من الأنصار، ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده، واحذروا هذا الخبيث، فإنه غير مأمون، ثم دخل به على رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله وعمرُ أخذ بحُمالة سيفه في عنقه، قال: أرسله يا عمر - أي أطلقه وارفع يدك عن عنقه - ادنُ يا عُمير، فدنا ثم قال: أنعموا صباحاً - وكانت تحية الجاهلية بينهم - فقال رسول الله ﷺ: قد أكرمنا الله بتحية الإسلام، بالسلام تحية أهل الجنة، خيرٌ من تحيتك يا عُمير، قال: أما والله يا محمد إن كنت لحديث عهدٍ بها، فقال له الرسول الكريم: فما جاء بك يا عُمير؟ قال: جئتُ لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه - يريد ولده - قال: فما بالُ السيف في عنقك؟ قال: قبَّحها الله من سيوف، وهل أغنتُ عنا شيئاً؟ قال: اصدقني ما الذي جئتُ له؟ قال: ما جئتُ إلا لذلك، فقال له رسول الله ﷺ: لا، بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما أصحاب القلب من قريش، ثم قلت: لولا دينٌ عليَّ وعيالٌ عندي، لخرجتُ حتى أقتل محمداً، فتحمل - أي تكفل - لك صفوانٌ بدينك وعيالك على أن تقتلني، والله حائلٌ بينك وبين ذلك، قال عُمير: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله، قد كنا نكذبك بما تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمرٌ لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم أنه ما أتاكَ به إلا الله عزَّ وجلَّ، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم تشهَّد بشهادة الحق - أي أعلن إسلامه أمام الصحابة ونطق بالشهادة - فقال رسول الله ﷺ: «فَقَهُوا أَحَاكِمَ فِي دِينِهِ، وَأَقْرَئُوهُ الْقُرْآنَ، وَأَطْلِقُوا لَهُ أَسِيرَهُ» ففعلوا.

فقال عُمير يا رسول الله: إني كنتُ جاهدًا على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دينك، وإنني أحبُّ أن تأذن لي فأقدم مكة، فأدعوهم إلى الله وإلى الإسلام، لعلَّ الله أن يهديهم، وإلاَّ آذيتهم كما كنتُ أؤذي أصحابك، فأذن له رسول الله ﷺ فلحق بمكة.. وكان صفوان حين خرج عُمير بن وهب يقول لقريش: أبشروا بوقعة تأتاكم الآن في أيام قلائل، تُنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل الركبان، حتى قدم راكب فأخبره بإسلام عُمير، فحلف ألاَّ يكلمه أبدًا، ولا ينفعه بنفع أبدًا، فلما قدم عُمير مكة، أقام بها يدعو إلى الله، ويؤذي من خالفه إيذاءً شديدًا، فأسلم على يديه ناس كثير»^(١).

«فداء الأسرى ببدر»

لا تزال سورة الأنفال تطالعنا في آياتها البينات بأحداث غزوة بدر، وقد سمى القرآن الكريم هذه الموقعة الشهيرة «يوم الفرقان» لأن الله فرق فيها بين الحق والباطل، والكفر والإيمان، وجعلها فيصلاً بين جند الرحمن وجند الشيطان، وفيها يقول القرآن الكريم ﴿وَمَا أُنزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ، يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقد قتل في هذه الغزوة صناديد قريش، ورؤساء الكفر والطغيان، قتل منهم سبعون، وأُسِر منهم سبعون، فكان بذلك تقليماً أظافر الشرك، والآيات الكريمة هنا تتحدث عن أحكام هؤلاء الأسرى، بعد أن تحدثت عن موضوع الصلح والسلم، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَتَخَنَ فِي الْأَرْضِ، تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا، وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

(١) دلائل النبوة للأصبهاني ٦١٦/٢ وسيرة ابن هشام.

«عتاب للنبي وأصحابه لقبولهم الفداء»

وهذه الآيات عتاب للنبي عليه الصلاة والسلام ولأصحابه على أخذهم الفداء، ومعنى الآية الكريمة: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي ما صحَّ ولا استقام لنبيٍّ من الأنبياء أن يأخذ الفداء من الأسرى، إلا بعد أن يُكثِرَ فيهم القتل ويبالغ فيه، حتى يذلَّ الكفر، ويعزَّزَ الإسلام ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ أي تريدون أيها المؤمنون بأخذ الفداء، حُطام الدنيا ومتاعها الزائل ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ أي والله جل وعلا يريد لكم الباقي الدائم، وهو ثواب الآخرة، بإعزاز دينه وقتل أعدائه ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي عزيزٌ في ملكه، غالب لا يُقهر ولا يُغلب في سلطانه، حكيم في صنعه وتدبيره لمصالح عباده.

وإنما أمر تعالى بالإثخان في الأعداء - وهو الإكثار من القتل والجراحات فيهم - لأن غزوة بدر كانت أولى الغزوات، فكان ينبغي أن يُرجَّح جانب الشدة على جانب الرحمة، حتى لا يطمع الأعداء في المسلمين، ولا يفكروا في غزوهم وحربهم، وحتى يرى المشركون أن لا هودة في قلوب المؤمنين عليهم، وبذلك تضعف قوتهم وشوكتهم، فالغرض من هذا إظهار عزة الإسلام وأهله، وإظهار ذلة الكفر وأنصاره.. ثم قال تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي لولا حكمٌ من الله سابق في الأزل، وهو أن لا يعاقب المخطيء في اجتهاده، لأصابكم فيما أخذتموه من الفداء من الأسرى عذاب عظيم.

«استشارة النبي لأصحابه في أمر الأسرى»

رُوي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: لما هزم الله المشركين يوم بدر، وقتل منهم سبعون، وأسر منهم سبعون، استشار النبي ﷺ أصحابه، فقال لأبي بكر وعمر: ما ترون في هؤلاء الأسرى؟ فقال أبو بكر: يا نبي الله هم أقاربك بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار، وعسى الله أن يهديهم للإسلام!! فقال رسول الله ﷺ ما ترى يا ابن الخطاب؟ قلت: لا والله يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكّننا منهم فنضرب أعناقهم، فتمكّن علينا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكّني من فلان - نسيب لعمر - فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها. قال فهوي رسول الله ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت - أي فاستحسن رأي أبي بكر ولم يستحسن رأيي - فلما كان من الغد، جثت فإذا رسول الله وأبو بكر قاعدين يكيان، فقلت يا رسول الله: أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائك؟! فقال رسول الله ﷺ: أبكي للذي عرّض علي أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرّض عليّ عذابهم لأدنى من هذه الشجرة - شجرة قريبة من نبي الله - وأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ (١) الآية.

وفي رواية لأحمد والحاكم قال: «لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: ما تقولون في هؤلاء الأسارى؟ فقال أبو بكر يا رسول الله:

(١) انظر تفسير ابن كثير، والقرطبي، والنيسابوري، فقد ذكرت فيها هذه القصة، كما ذكرها الحافظ الأصبهاني في كتابه دلائل النبوة ٦١١/٢.

قومك وأهلك، استبقيهم واستبقيهم لعل الله أن يتوب عليهم!!
وقال عمر يا رسول الله: كذبوك وأخرجوك، فقدّمهم فاضرب أعناقهم.

وقال عبدالله بن رواحة يا رسول الله: أنت في وادٍ كثير الحطب، فاضرم الوادي عليهم ناراً ثم ألقهم فيه.

قال: فسكت رسول الله ﷺ فلم يردّ عليهم شيئاً، ثم قام فدخل، فقال ناسٌ: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبدالله بن رواحة.

ثم خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: إِنَّ الله لَيَلِينُ قلوب رجال حتى تكون ألينَ من اللبن، وإن الله ليشدّد قلوب رجال حتى تكون أشدّ من الحجارة!!

وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام حين قال ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ومثلك كمثل عيسى عليه السلام قال: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ، وَإِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وإن مثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام حين قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

وإن مثلك يا عبدالله بن رواحة كمثل نوح عليه السلام حين قال ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَيَّارًا﴾ ثم قال لأصحابه أنتم عائلة - أي في حاجة إلى المال - فلا ينفكن أحدٌ منهم إلّا بفداءٍ أو ضرب عنق» قال ابن مسعود: قلت يا رسول الله: إلا «سهيل بن بيضاء» فإنه يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ فما رأيتني في يومٍ

أخوف من أن تقع عليَّ حجارةٌ من السماء مني في ذلك اليوم، حتى قال رسول الله ﷺ: **إِلَّا سَهِيلَ بْنِ بَيْضَاءَ**، فأنزل الله عز وجل هذه الآية: **﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ..﴾** إلى آخر الآية^(١).

«إباحة الغنائم للمجاهدين»

تناولت الآيات السابقة موضوع أسرى بدر بعد أن انتهت المعركة بانتصار المسلمين، وانهزام المشركين وركّزت على موضوع أمر الفداء، الذي نزل بشأنه العتاب الشديد للنبيّ عليه أفضل الصلاة والتسليم وللمؤمنين، فقد كان الأحرى بالمسلمين أن يقتلعوا جذور الشر من أصولها، بقتل رؤساء الطغيان، وصناديد الكفر، وبعد العتاب جاءت المسامحة والرحمة، فقد أباح الله للمجاهدين أن يأكلوا من الغنائم التي غنموها في غزوة بدر، توسعةً من الله وتكريماً لأوليائه، وفي ذلك يقول الله تقدست أسماؤه **﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**.

«معجزة للرسول مع عمه العباس»

ثم عادت الآيات لتتحدث عن موضوع الأسرى، الذين وقعوا في قبضة المسلمين في بدر، وكُلِّفُوا أن يقدوا أنفسهم، بدفع مبلغ من المال مقابل فكاك أنفسهم، وكان ممن وقع في الأسر من عظماء

(١) الحديث رواه أحمد والترمذي والحاكم في المستدرک وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وانظر تفسير ابن كثير ١١٨/٢.

قريش «العباس بن عبد المطلب» عمُ النبي ﷺ و«عقيل بن أبي طالب» و«نوفل بن الحارث» وكان العباس أسير يوم بدر ومعه عشرون أوقية من الذهب أخرجها ليطعم الناس، وكان أحد العشرة الذين ضمنوا الطعام لأهل بدر، فلم تبلغه النوبة حتى أُسر، فجيء به ضمن الأسرى، فقال العباس: كنتُ مسلماً إلا أنهم استكروهوني - أي أكرهوني على الخروج - فقال له ﷺ: «الله أعلم بإسلامك، وإن يكن ما تقول حقاً فإنَّ الله يجزيك، وأما ظاهرك فقد كان علينا» قال العباس: وكلّمتُ رسول الله ﷺ أن يترك ذلك الذهب الذي كان معي، فقال: أمّا شيء خرجتَ به تستعين به علينا فلا!! قال: وكلّفتني فداء ابن أخي عقيل بن أبي طالب، وفداء نوفل بن الحارث - وقال النبي ﷺ: أضعفوا على العباس الفداء - أي خذوا منه الفداء عن نفسه مضاعفاً أربعين أوقية من ذهب - فقال العباس للرسول ﷺ: لقد تركتني يا محمد أتكفف قريشاً ما بقيتُ - أي تركتني أستجدي من قريش وأسألهم معونتي مدة الحياة - فقال له الرسول ﷺ: وأين الذهب الذي تركته عند أم الفضل؟ فقال: أيّ الذهب؟ فقال: إنك قلتَ لها إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حَدَّث لي حَدَثٌ فهو لك ولولدك، ودفتته أنت وأُم الفضل، فقال يا ابن أخي: من أخبرك بهذا؟ فقال: أخبرني به الله، فقال العباس: أشهد أنك نبيٌّ صادق، وما علمتُ أنك رسولُ الله قبل اليوم، والله إن هذا لشيء ما علمه أحدٌ، ولا أطلع عليه أحدٌ غيري، وغير أُم الفضل، ولقد دفعته إليها في سواد الليل، فاحسب لي يا رسول الله ما أصبتم مني عشرين أوقية من الذهب من الفداء، فقال رسول الله: لا، ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك، ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه، فأنزل الله عز وجل فيه: ﴿يَا

أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى، إِنْ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا، يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ، وَيَغْفِرَ لَكُمْ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»
قال العباس: فأبدلني الله خيراً من ذلك، أعطاني عشرين عبداً، وإن أدناهم ليضرب في عشرين ألفاً، وأعطاني زمزم ما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة، وأنا أنتظر الثالثة أنتظر المغفرة من ربي»^(١).

«نهى النبي ﷺ عن قتل العباس»

وروى الحافظ ابن كثير عن محمد بن إسحق عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: إني قد عرفت أن أناساً من بني هاشم وغيرهم، قد أخرجوا كُرْهاً، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكُم أحداً منهم - أي من بني هاشم - فلا يقتله، ومن لقي البخترى بن هشام - أخا أبي جهل - فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه إنما أخرج مستكرهاً، فقال أبو حذيفة بن عتبة: أنقتلُ آباءنا وأبناءنا، وإخواننا، وعشائرنا ونترك العباس؟ والله لئن لقيته لأُلجِمَنَّهُ بالسيف، فبلغت تلك المقالة رسول الله ﷺ فقال لعمر بن الخطاب: يا أبا حفص أ يضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف؟ فقال عمر: يا رسول الله ائذن لي فأضرب عنقه - أي عنق القاتل - فوالله لقد نافق، فكان أبو حذيفة يقول بعد ذلك: والله ما آمن من تلك الكلمة التي قلت، ولا أزال منها خائفاً، إلا أن يكفرها الله عني بشهادة، فقتل يوم اليمامة شهيداً رضي الله عنه، قال وكان أكثر الأسارى فداءً يوم بدر فداء العباس بن عبد المطلب، وذلك أنه كان رجلاً موسراً،

(١) انظر تفسير ابن كثير ١١٩/٢ وتفسير ابن جرير، ودلائل النبوة للحافظ الأصبهاني ٦١٣/٢.

فافتدى نفسه بمائة أوقية ذهباً، وفيه نزلت هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى..﴾ (١) الآية.

«أخوة الإيمان فوق أخوة النسب»

وقد ختم الله السورة الكريمة بالإشادة بذكر المهاجرين، والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، وأمر بنصرة المؤمن لأخيه المؤمن، أينما كان وحيثما حلّ، فإن أخوة الإيمان والعقيدة، فوق أخوة القرابة والنسب وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هذا هو الصنف الأول وهم المهاجرون، ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا﴾ وهؤلاء الصنف الثاني وهم الأنصار ﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي في الولاية والحماية والنصرة، ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا، وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

«ختم للسورة بديع»

ثم ذكر تعالى حكم الكفار والولاية التي تكون بينهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أي إلا تفعلوا ما أُمِرتم به من تولي المؤمنين وقطع الصلة بالكافرين، تحصل فتنة عظيمة ومفسدة جسيمة، لأنه يترتب على ذلك قوة الكفار وضعف المسلمين.. ثم عاد بالذكر

(١) مختصر تفسير ابن كثير للصابوني ١٢٠/٢.

والثناء على المهاجرين والأنصار فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا
وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ
حَقًّا، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ثم ختم السورة بذكر التابعين لهم
بإحسان فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ
مِنْكُمْ، وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ صدق الله العظيم.

وهكذا افتتح الله السورة بذكر الجهاد والغنائم، وختمها بذكر
النصرة والهجرة، فكانت سورة الجهاد من البدء إلى الختام.

تم بعونه تعالى الجزء الثالث من كتاب «قبس من نور القرآن الكريم»
ويليه الجزء الرابع، وأوله سورة التوبة، واللَّهُ المستعان

ألفه

خادم الكتاب والسنة

محمد علي الصابوني

جامعة أم القرى - مكة المكرمة

* * *

الفهرس

١٧	خداع إبليس لأدم وحواء	٣	مقدمة
١٨	ندم وتوبة واعتراف بالذنب		سورة الأعراف:
١٨	مخاطبة الله لأدم	٥	مكية وآياتها مائتان وست آيات
١٩	لباس التقوى خير لباس	٥	أهداف السورة الكريمة
٢٠	تكرير النداء لبني آدم	٥	تكرير الله للبشرية
٢١	هدف خيىث من وراء كشف العورات	٦	التحذير من مكاييد الشيطان
٢٢	طواف المشركين حول البيت عراة	٧	النداء الأول
٢٣	حجة المشركين الفاسدة	٧	النداء الثاني
٢٣	أخذ الزينة عند كل صلاة	٧	النداء الثالث
٢٤	قصة الطبيب النصراني	٨	النداء الرابع
٢٥	الإسلام دين الحياة	٨	قصص الأنبياء
٢٦	قصة سلمان وأبي الدرداء	٩	القرآن المعجزة الكبرى
	الأمور التي حرّمها الله تعالى على	١٠	هلاك الأمم الطاغية
٢٦	عباده	١٠	سؤال الرسل والأمم
٢٧	بعثة الرسل لهداية البشرية	١١	وزن الأعمال يوم القيامة
٢٨	طريق الأشقياء وخسارتهم	١٢	كيف توزن الأعمال؟
٢٩	استحالة دخول الكفار الجنة	١٣	عداوة إبليس لبني آدم
٣٠	أهل السعادة في جنات الخلد	١٣	إبليس من الجن وليس من الملائكة
٣٠	المناظرة بين أهل الجنة والنار	١٤	استكبار إبليس عن السجود
٣١	من هم أهل الأعراف؟	١٥	حسد وكبر من الشيطان
٣٢	بين أصحاب الأعراف وأهل النار	١٦	تحذير لأدم من كيد إبليس

الكتب السماوية لهداية الإنسانية.....	٣٤	الرؤساء جمعوا بين الضلال	٥٨
الأدلة على قدرة الله ووحدانيته.....	٣٤	والإضلال.....	٥٨
تسخير الرياح لنزول الأمطار.....	٣٦	سنة الله في إهلاك المكذبين.....	٥٨
إحياء الأموات كإحياء الأرض		قلة الخيرات بشؤم المعاصي.....	٥٩
المجدبة.....	٣٧	عقاب الله وانتقامه من المكذبين.....	٦٠
من هدي النبوة.....	٣٨	مصارع الغابرين.....	٦١
الحكمة من قصص الأنبياء.....	٣٩	الحكمة من ذكر قصص الأنبياء.....	٦١
قصة نوح عليه السلام.....	٤٠	قصة موسى عليه السلام.....	٦٢
الغاية من بعثته عليه السلام.....	٤١	سبب سكنى بني إسرائيل مصر.....	٦٣
استبعاد المشركين أن يكون الرسول		فرعون يهزأ من موسى.....	٦٣
بشراً.....	٤٢	فرعون يستشير أصحابه.....	٦٤
المغزى من القصة.....	٤٣	موسى عليه السلام مع السحرة.....	٦٥
قصة نبيّ الله هود عليه السلام.....	٤٣	إلقاء موسى للعصا.....	٦٦
اتهامهم له بالسفه والكذب.....	٤٤	إيمان السحرة وسجودهم لله.....	٦٧
جوابه المحكم الشديد.....	٤٥	خذلان فرعون الجبار أمام الناس.....	٦٧
تذكيرهم بنعم الله جلّ وعلا.....	٤٥	فرعون يهذد السحرة.....	٦٨
جحود ونكران لنعم الرحمن.....	٤٦	إغراء فرعون بقتل موسى.....	٦٨
قصة صالح عليه السلام.....	٤٧	موسى يدعو قومه للصبر والاستعانة	
الناقة معجزة نبيّ الله صالح عليه		بالله.....	٧٠
السلام.....	٤٧	ما أصاب فرعون وقومه من البلايا	
عقرهم الناقة.....	٤٩	والنكبات.....	٧١
طغيان وجبروت.....	٤٩	الآيات التسع التي حلّت بقوم فرعون.	٧٢
أسف صالح على قومه.....	٥٠	تسميتهم الآيات اليّنات بالسحر.....	٧٣
قصة نبيّ الله لوط عليه السلام.....	٥١	توريث بني إسرائيل ملك فرعون.....	٧٤
لماذا سمّيت اللواط فاحشة؟.....	٥٢	نعم الله الجليل على بني إسرائيل...	٧٤
الفضيلة في نظرهم رذيلة.....	٥٢	تذكير بني إسرائيل بنعم الربّ الجليل	٧٥
عقوبة قوم لوط.....	٥٣	وعد الله لموسى بإنزال التوراة عليه..	٧٥
عظة واعتبار.....	٥٤	شوق موسى الكلّيم لرؤية ربّه الجليل	٧٦
قصة شعيب عليه السلام.....	٥٥	رؤية الله في الدنيا ممنوعة وفي	
توعدهم لشعيب والمؤمنين بالطرد من		الآخرة مشروعة.....	٧٧
الأوطان.....	٥٧	عدم الرؤية لضعف البنية البشرية.....	٧٨

١٠٧ اقتلاع الوثنية من جذورها	٧٨ نزول التوراة فيها الحلال والحرام
١٠٧ التمسك بفضائل الأخلاق	٧٩ عبادة بني إسرائيل للعجل
١٠٨ التحفظ من شرّ الشيطان	٨٠ قصة موسى والسامريّ
١٠٩ ختم بديع رائع للسورة الكريمة	٨١ ندم اليهود على تلك الجناية
 سورة الأنفال:	٨٢ توبيخ لمن عبدوا غير الله
١١١ مدنية وآياتها خمس وسبعون آية	٨٣ غضب موسى وتكسيره للألواح
١١١ أهداف السورة الكريمة	٨٣ اختياره سبعين رجلاً من بني إسرائيل
١١٥ غزوة بدر تاج بين سائر الغزوات	٨٥ نبع عيون الماء من الحجر
١١٥ حكم الغنائم التي غنمها المجاهدون	 دخولهم بيت المقدس يزحفون على
١١٦ سبب النزول	٨٦ المقاعد
١١٧ صفات المؤمنين الصادقين	٨٧ قصة أصحاب القرية
١١٧ صفات خمس لكمال الإيمان	٨٨ انقسامهم إلى ثلاثة أقسام
١١٩ جند الرحمن وجند الشيطان	٨٨ تسليط المجوس على بني إسرائيل
١٢٠ كراهية بعض المسلمين للخروج	٩٠ أكل اليهود للربا والسحت
١٢٠ استشارة النبي ﷺ لأصحابه	٩٠ الأبناء على قدم الآباء في الإجماع
١٢٢ استغاثة النبي بربه سبحانه وتعالى	 اقتلاع جبل الطور ورفع فوق
١٢٣ آيات وعبر في غزوة بدر	٩١ رؤوسهم
١٢٣ النعاس يغشاهم في المعركة	٩٢ أخذ العهد على ذرية بني آدم
١٢٤ إمداد المؤمنين بالملائكة تقاتل معهم	٩٤ من غرائب القصص
١٢٦ التحذير من الفرار من المعركة	٩٥ الكفار كالبهائم والأنعام السارحة
١٢٨ معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ	٩٦ توحيد الله فيه النجاة والعصمة
١٢٩ بدر نصر مبين للمؤمنين	٩٧ استدراج الكفار في هذه الحياة
١٣٠ طغيان قريش وجبروتها	٩٨ وقت الساعة لا يعلمه إلا الله
١٣١ سعادة المؤمن بطاعة الله ورسوله	١٠٠ الغيب من خصائص علم الله تعالى
١٣٢ الكفار بمنزلة الأنعام	١٠٠ بدء الخليقة وتناسل البشر
١٣٢ توجيهات ربانية للمؤمنين	١٠١ الآية تتحدث عن ذرية آدم
١٣٣ قصة سعيد بن المعلى	١٠٢ التنديد بعبادة الأوثان
١٣٤ معنى الآية الكريمة	١٠٣ الإله ينبغي أن يكون سمياً بصيراً
١٣٤ في السكوت على المنكر دمار الأمة	١٠٤ من غرائب الأخبار
١٣٥ أمن واستقرار في المدينة المنورة	١٠٥ تسليّة للرسول عليه السلام
١٣٦ التحذير من الخيانة	١٠٦ الآية حصن لمن اتقى ربه

١٣٧	اجتماع قريش بدار الندوة	١٦٠	لكل عصر ما يناسبه من القوة
١٣٨	قصة غريبة من التأمر على رسول الله	١٦١	أثر القوة الروحية
١٤٠	طغيان وجبروت	١٦٢	الدعوة إلى السلم بشرط العزة
١٤٠	دعاؤهم على أنفسهم بالهلاك	١٦٣	جواز الصلح إن كان هناك مصلحة ...
١٤١	استهزاؤهم حالة الطواف والصلاة	١٦٤	التيقظ من الغدر والمكر
١٤٢	إنفاق الأموال للصّد عن سبيل الله	١٦٤	حماية الله ونصرته لرسوله
١٤٣	دعوتهم للتوبة والإنابة		الحروب الطاحنة بين الأوس
١٤٣	كيف تُقسم الغنائم		والخزرج
١٤٥	تفصيل دقيق لأحداث المعركة	١٦٥	معونة الله للمؤمنين مشروطة بالجدّ
١٤٦	تحقيق الرؤيا المنامية		والاجتهاد
١٤٧	عناصر النصر	١٦٦	تخفيف الله عن المجاهدين
١٤٩	التحذير من الأشر والبطر في المعركة	١٦٧	أروع الأمثلة في الشجاعة والبسالة ...
١٥٠	قصة إبليس مع أعوانه	١٦٨	مقتل أبي جهل بيد الأشبال
١٥١	مشاركة الملائكة في المعركة بيدر ...	١٦٩	قصة رائعة من أظهر دلائل النبوة
١٥٢	الآية حكمها عام في كل كافر	١٧٠	فداء الأسرى بيدر
١٥٣	هلاك الطفلة المجرمين	١٧٢	عتاب للنبي وأصحابه لقبولهم الفداء
١٥٤	تغيير الأحوال بالكفر والعصيان		استشارة النبي لأصحابه في أمر
١٥٥	من سنن الله الكونية		الأسرى
١٥٥	نقض اليهود للعهود	١٧٦	إباحة الغنائم للمجاهدين
١٥٦	سبب النزول	١٧٦	معجزة للرسول مع عمه العباس
١٥٧	طرح العهد عن بينة ووضوح	١٧٨	نهى النبي ﷺ عن قتل العباس
١٥٨	قصة معاوية مع أهل الروم	١٧٩	أخوة الإيمان فوق أخوة النسب
١٥٨	دعوة سلمان المشركين قبل الغزو	١٧٩	ختم للسورة بديع
١٥٩	إعداد جميع القوى لقتال الأعداء		

قَابِلِينَ
مِنْ ذَٰلِكَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

دراسات قرآنية

٤

قَبَسٌ

ضُرُوءُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

مِنْ

سُورَةِ التَّوْبَةِ، وَيُونُسَ

دراسة تحليلية موسعة لأهداف ومقاصد السورتين الكريمتين

بقلم

خادم الكتاب والسنة

الشيخ محمد علي الصابوني

الأستاذ بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

دار الفاء

دمشق

الطبعة الثانية

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

حقوق الطبع محفوظة

دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد الذي خصّه الله بالمعجزة الكبرى، والآية العظمى «القرآن الكريم» وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذا هو الكتاب الرابع في سلسلة «دراسات قرآنية» في ضوء السورتين الكريمتين «التوبة، يونس» وهي دراسة موضوعية تحليلية هادفة، القصد منها تنوير القلوب والبصائر، بما تناوله الكتاب المعجز، الذي نزل على قلب خاتم المرسلين، بلسان عربي مبين.

وإننا إذ نشكر الله عزّ وجلّ أن وفّقنا لخدمة كتابه، لنبرز ما فيه من روائع الحكم والأحكام، ونُظهر أسرار إعجازه وبيانه، نسأله تعالى أن يمنّ علينا بالتيسير والتسهيل، لما قصدناه في هذه الدراسات القرآنية، التي تتناول المواضيع التي تعرضت لها السور الكريمة، ليستوعب الأخ المسلم فهم ما حوّته هذه السور المباركة من مقاصد وأهداف.

والله نسأل أن يرزقنا الصدق والإخلاص، في القول والفعل والعمل، وأن ينفع بهذه الدراسات إخواننا المؤمنين، إنه خير مسؤول، وأعظم مأمول، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الشيخ محمد علي الصابوني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ التَّوْبَةِ

مدنية وآياتها مائة وتسعة وعشرون آية

«الأهداف الأساسية لسورة التوبة»

● سورة التوبة من السور المدنية، التي تُعنى بالجوانب التشريعية، وتهتم بإرساء قواعد الإصلاح والبناء، والتربية الفاضلة الكريمة، التي شيدت عليها دعائم الإسلام، وهذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ فقد أخرج البخاري عن البراء بن عازب «أن آخر سورة نزلت سورة براءة». وروى الحافظ ابن كثير أن أول هذه السورة نزل على رسول الله ﷺ مَرَّجعه من غزوة تبوك، وبعث الرسول الكريم أبا بكر الصديق، أميراً على الحج تلك السنة، ليقم للناس مناسكهم، ويُخبر المشركين ألا يحجُّوا بعد عامهم هذا، فلما مضى أتبعه بعلي بن أبي طالب، ليكون مبلِّغاً عن رسول الله عليه السلام ما فيها من الأحكام.

● نزلت هذه السورة الكريمة في السنة التاسعة من الهجرة، وهي السنة التي خرج فيها رسول الله ﷺ لغزو الروم، واشتهرت بين الغزوات النبوية بـ «غزوة تبوك»، وكانت في شهور الصيف، في حرٍّ شديد، وسفرٍ بعيد، وذلك حين طابت الثمار، وأخلد الناس إلى بهجة الحياة ونعيمها، فكانت تلك الغزوة ابتلاءً لإيمان الناس، وامتحاناً لصدقهم وإخلاصهم

للدعوة التي آمنوا بها، وتمييزاً بين المؤمنين والمنافقين، وبين من يحبُّ الله ورسوله، وبين من يؤثر هواه على رضى الله.

● ولهذه السورة الكريمة هدفان أساسيان، إلى جانب الأمور الأخرى هما:

أولاً: بيان القانون الإلهي في معاملة المشركين وأهل الكتاب من اليهود والنصارى.

ثانياً: إظهار ما كانت عليه نفوس المسلمين، حين استنفرهم الرسول الكريم لغزو الروم.

● أما بالنسبة للهدف الأول، فقد عرضت السورة إلى عهود المشركين، فوضعت لها حداً، ومنعت حجَّ المشركين لبيت الله الحرام، بعد ذلك العام، لاسيّما بعد أن نقض المشركون العهود، وتآمروا عدة مرات مع اليهود، لضرب الدعوة الإسلامية، والقضاء على الإسلام في مهده وعرينه، وخانت طوائف اليهود، يهودُ «بني النضير» ويهودُ «بني قريظة» ويهودُ «بني قينقاع» ما عاهدوا عليه رسول الله ﷺ، ونقضوا عهودهم مرَّات ومرَّات، فلم يعد من الحكمة أن يبقى المسلمون متمسكين بالمواثيق والعهود، وقد نقضها أعداؤهم، وقلبوا لهم ظهر المِجَنِّ، لذلك نزلت السورة الكريمة تأمر بإلغاء تلك العهود، ونبذها إلى الأعداء على بصيرة ووضوح، بعد أن منحهم القرآن الكريم فرصة كافية من الزمن، هي السياحة في الأرض أربعة أشهر، ينطلقون فيها آمنين مطمئنين، ليتمكنوا من النظر والتدبر في أمرهم، ويختاروا ما يرون فيه المصلحة لهم، من الدخول في الإسلام أو الدخول في حرب مع المسلمين، وبذلك قطع الله تعالى ما بين المسلمين وخصومهم من

صِلَات، فلا عهدَ، ولا سِلْمَ، ولا أمانَ، بعد انتهاء المُهلة، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ، وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ. وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ، فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

● ثم تلتها الآيات الكريمة في قتال أهل الكتاب، الذين لا يتورعون عن الغدر والخيانة، كلما سنحت لهم الفرصة، كما فعل يهود بني قريظة، وبني النضير، حيث أعانوا كفار مكة على حرب الرسول عليه الصلاة والسلام، ولم يبالوا بالعهود التي أبرموها معه، لأنهم لا عهد لهم ولا ذمة، ولا يعرفون قدراً للشرف الذي قطعوه على أنفسهم، شرف الكلمة، وشرف العهد، فأحرى بهم ألا يُتركوا بدون عقوبة، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ، حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

وقد تناول الحديث عنهم قرابة عشرين آية، كشف الله سبحانه فيها القناع عن خفايا اليهود والنصارى، وما انطوت عليه نفوسهم الشريرة، من خبيث ومكر، وحقدٍ على الإسلام والمسلمين.

● وعرضت السورة الكريمة للهدف الثاني، وهو شرح نفسيات المؤمنين، حين استنفروهم الرسول الكريم لغزو الروم في بلاد الشام، وقد كان بين صفوفهم فريقٌ من المنافقين، أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، فتحدثت السورة عنهم بالتفصيل، عن المتأقلين، والمتخلفين،

والمثبطين، وكشفت الغطاء عن فتن أهل النفاق، باعتبار خطرهم الداهم على الإسلام والمسلمين، وفضحت أساليب نفاقهم، وألوان فتنهم وتخذيلهم للمؤمنين، حتى لم تدع لهم سترًا إلا هتكته، ولا دخيلة إلا كشفتها، وتركتهم بعد هذا الكشف والتبيين، تكاد تلمسهم أيدي المؤمنين.

● وقد استغرق الحديث عن المنافقين معظم السورة، بدءاً من قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ...﴾ الآيات إلى قريب من نهاية السورة الكريمة، ولهذا سماها بعض الصحابة «سورة الفاضحة» لأنها فضحت المنافقين، وكشفت أسرارهم، قال سعيد بن جبیر: سألت ابن عباس عن سورة براءة فقال: تلك الفاضحة، ما زالت تنزل الآيات: و«مِنْهُمْ» و«مِنْهُمْ» حتى خفنا ألا تدع أحداً منهم... وروى عن حذيفة بن اليمان أنه قال: إنكم تسمونها «سورة التوبة» وإنما هي سورة العذاب، الله ما تركت أحداً من المنافقين إلا نالت منه، وهذا هو السر في عدم وجود البسملة فيها.

● وبالجملة فإن هذه السورة الكريمة، قد تناولت «الطابور الخامس» المندس بين صفوف المسلمين، ألا وهم «المنافقون» الذين هم أشد خطراً من المشركين، ففضحتهم وكشفت أسرارهم ومخازيهم، وظلّت تقذفهم بالحُمَم حتى لم تبق منهم دياراً، فقد وصل بهم الكيد في التآمر على الإسلام، أن يتخذوا بيوت الله تعالى أوكاراً للتخريب والتدمير، وإلقاء الفتنة بين صفوف المؤمنين، في مسجدهم الذي عُرف بـ «مسجد الضرار» وقد نزل فيه أربع آيات في أواخر هذه السورة، وهي قوله تقدست أسماؤه ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضُرَّاراً وَكُفْرًا وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ...﴾ الآيات ولم يكد

النبي عليه أفضل الصلاة والتسليم يتلقى الوحي من ربه، حتى قال لأصحابه «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهلُه فاهدموه وحرِّقوه»^(١) فهدموه، وكفى الله المسلمين شرهم إلى يوم الدين.

«قطع العلاقات مع المشركين»

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله عليه الصلاة والسلام، بعد عودته من غزوة تبوك، وقد ابتدأت السورة بهذا البدء الرهيب، الذي يوحى بالحرب السافرة، على معاقل أهل الشرك والضلال ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ، وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ والمعنى: هذه براءة واصله من الله ورسوله، بقطع العلاقات والعهود، مع الأقوام المشركين، الذين نقضوا العهود والمواثيق، واستباحوا سفك دماء المسلمين، فقل لهم يا محمد: سيحوا في الأرض أربعة أشهر، وامشوا فيها آمنين مطمئنين، لا ينالكم منا أذى ولا مكروه، ثم بعدها لا عهد لكم عندنا ولا أمان، واعلموا يا معشر المشركين أنكم لا تفوتون الله هرباً، وإن أمهلكم هذه المدة، لأنكم في قبضته سبحانه، أينما كنتم وحيثما سرتم، وأن الله مخزي الكافرين أي مذلهم ومهينهم، في الدنيا بالأسر والقتل، وفي الآخرة بتعذيبهم بنار الجحيم.

«سبب البراءة من الكفار»

أما سبب هذه البراءة، والأمر الموجب لقطع هذه العلاقات،

(١) انظر تفصيل القصة في جامع البيان للطبري ٢٥/١١ ومختصر تفسير ابن كثير

وإنهاء تلك العهود، فهو ما ذكره المفسرون، أن النبي عليه الصلاة والسلام، كان قد عاهد المشركين في «صلح الحديبية» على وضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين، عاهدهم على ألا يحاربوا ولا يعينوا أحداً عليه ولا على من دخل في حلفه من العرب، فنقضوا عهودهم وأخذت بعض القبائل تنقض عهودها مع الرسول، واعتدت بنو بكرٍ على خزاعة حلفاء النبي عليه السلام، وأعانتهم قريش بالسلاح وبالرجال، حتى وفد «عمرؤ بن سالم» الخزاعي على رسول الله، وأنشده هذه الأبيات مستنصراً ومستنجداً:

اللَّهُمَّ إِنِّي نَاشِدُ مُحَمَّدًا حِلْفَ آبِنَا وَأَبِيكَ الْأَتْلَدَا
 إِنَّ قُرَيْشًا أَخْلَفُواكَ الْمَوْعِدَا وَنَقَضُوا ذِمَامَكَ الْمُؤَكَّدَا
 هُمْ بَيَّتُونَا بِالْحَطِيمِ هُجْدَا وَقَتَّلُونَا رُكْعًا وَسُجْدَا
 فلما سمعها النبي ﷺ قال له: لا نُصِرْتُ إِنْ لَمْ أَنْصِرْكُمْ مِمَّا أَنْصَرُ
 منه نفسي وأهلي. هذا هو السبب الذي دفع بالمسلمين إلى فتح مكة،
 وهو السبب الذي من أجله أمر الله بالبراءة من عهود المشركين، فقد
 تكرر نقضهم للعهود، والمؤمن لا يُلدغ من جُحْرٍ واحد مرتين.

«لماذا لم تكتب البسملة في السورة»؟

وجميع سور القرآن وردت فيها البسملة «بسم الله الرحمن الرحيم»
 إلا هذه السورة فلم تكتب فيها البسملة، لأن السورة جاءت بالعذاب
 والنكال، و«بسم الله الرحمن الرحيم» رمزٌ للأمان والرحمة والاطمئنان،
 فلا تناسب بينهما، وهذا هو السرُّ في عدم كتابة البسملة في السورة،
 قال ابن عباس: سألتُ «عليَّ بنَ أبي طالب» لِمَ لَمْ يَكْتُبْ في براءة
 «بسم الله الرحمن الرحيم» وكتبت في غيرها من السور؟ فقال: لأن
 «بسم الله الرحمن الرحيم» أمانٌ، وهذه السورة نزلت بالسيف، ونبذ

العهود، فهي حربٌ ليس فيها أمان، وقال سفيان بن عُيَيْنَةَ: إنما لم تكتب في صدر السورة البسملة، لأن التسمية رحمة، والرحمة أمان، وهذه السورة نزلت بالمنافقين وبالسيف، ولا أمان للمنافقين ولا كرامة.

«إعلان القطيعة على رؤوس الأشهاد»

ثم تلتها الآيات الكريمة تأمر المسلمين، بإبلاغ هذه القطيعة على رؤوس الأشهاد، حتى لا يبقى لأحد عذرٌ بعد ذلك البلاغ والبيان ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ، أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ...﴾ أي إعلامٌ من الله واضح صريح، إلى كافة الناس، ببراءة الله تعالى ورسوله من المشركين، الذين نقضوا العهود، واستباحوا دماء المسلمين، ثم دعاهم إلى التوبة، والرجوع عن الكفر، والغِي، والضلال، فقال تقدست أسماؤه ﴿فَإِنْ تَبُتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ والبشارة هنا بالعذاب الأليم، إنما ورد على سبيل السخرية والتهكم، بمن خانوا الدين ونقضوا العهد، وهو أحد أساليب العرب - زيادةً في التقرير والتوبيخ - لمن أرادوا إغاظته والسخرية به^(١).

«إرسال عليٍّ لتبليغ المهمة»

ولما نزلت الآية الكريمة تأمر بتبليغ الكفار ذلك الأمر الرباني، في يوم الحج الأكبر - وكان قد بعث أبا بكر رضي الله عنه أميراً على الحج ليقم للناس مناسكهم - أتبعه بإرسال علي رضي الله عنه، ليُعَلِّمَ النَّاسَ بالبراءة، وليقرأ تلك الآيات على أهل الموسم، وأعطاه ناقته العضباء

(١) يسمى هذا الأسلوب «الأسلوب التهكمي» كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

يركبها، فلما دنا قال له أبو بكر: أميرٌ أو مأمور؟ قال: بل مأمور، أرسلني رسول الله ﷺ لأبلغ عنه هذه المهمة، فقام عليٌّ فنَادَى في الناس بأربعة أمور:

- ١ - ألاَّ يقربَ البيتَ الحرامَ بعد العامِ مشركٌ.
- ٢ - وألاَّ يطوفَ بالبيتِ الحرامِ غُريَان.
- ٣ - وأنه لا يدخلُ الجنةَ إلاَّ مسلمٌ.
- ٤ - ومن كان بينه وبين رسول الله مدَّةٌ فأجلُهُ إلى مدته، والله ورسولُهُ بريءٌ من المشركين.

وإنما ذكر تعالى في الآية «الحج الأكبر» لأنه أراد به الحج الحقيقي، الذي تكون الوقفة فيه «يوم عرفة» لأن العمرة تسمى «الحج الأصغر»، فأراد أن يكون الإعلام والإنذار، في ذلك اليوم العظيم الذي يلتقي فيه البشر على صعيد عرفات، ليكون الأمر أظهر وأشهر.

«إبطال العهد قاصرٌ على الناكثين»

ومن جلال الإسلام وعظمته، وَسُمُوهُ ورفعته، أنه جعل إبطال العهود، قاصراً على الذين خانوا ونكثوا ونقضوا عهودهم، أما الذين وفوا ولم يَغْدِرُوا، ولم يُعِينُوا أحداً من الأعداء على المسلمين، فقد أمر الله تعالى بإتمام عهدهم لهم، وعدم معاملتهم معاملة الناكثين، فقال تقدست أسماؤه ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً﴾ أي لم يخرقوا شروط الميثاق ﴿وَلَمْ يَظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً﴾ أي لم يعينوا عليكم أحداً من أعدائكم ﴿فَاتَّبِعُوا إِلَهُمَّ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي وفوا إليهم عهدهم كاملاً إلى مدتهم، من غير إنقاص ولا إبطال، ثم جاء الوعيد والإنذار بقتل الكفار الذين لم يحترموا

العهد والوعد فقال جلت عظمته ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ، فَاقْتُلُوا
الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ، وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ، وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ
مَرْصِدٍ، فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ، وَآتَوْا الزَّكَاةَ، فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ، إِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهكذا يكون الحزم والعزم.

إلى الله يُدْعَى بِالْبَرَاهِينِ مَنْ أَبِي فَإِنْ لَمْ يُجِبْ نَادَتْهُ بِيضُ الصَّوَارِمِ

«المدة لتمام العهد أربعة شهور»

وبمناسبة الحديث عن العهد والمعاهدين، فقد عيّن تعالى للذين
عاهدوا رسوله، مدة أربعة أشهر، يسيحون في الأرض حيث شاءوا،
وأجل أجل من ليس له عهد انسلاخ الأشهر الحرم، فأمر الله نبيه ﷺ إذا
انسلاخ المحرم، أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينهم عهد، بقتلهم
حتى يدخلوا في الإسلام، وأمر بمن كان له عهد، إذا انسلاخ أربعة أشهر
من يوم النحر، إلى عشر خلون من ربيع الآخر، أن يضع فيهم السيف
أيضاً حتى يدخلوا في الإسلام.

والمقصود من هذا التأجيل أن يتفكروا في أنفسهم، ويحتاطوا في
الأمر، ويعلموا بعد هذه المدة أنه ليس لهم إلا أحد أمرين: إما
الإسلام، أو السيف.

«تأمين المشرك حتى يسمع كلام الله»

ومن حرص الإسلام على هداية البشرية، أن أمر الباري جل وعلا
تأمين من طلب الأمان، حتى يسمع كلام الرحمن، وأوجب على
المسلمين تبليغه الدعوة، حتى تقوم حجة الله عليه، ثم إيصاله إلى وطنه
الذي يأمن فيه، وهو آمن لا يخشى سطوة أحد، ثم قتاله إن لم يقبل

هداية الله، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ، ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ومعنى الآية الكريمة: إن استأمنك مشرك وطلب منك جوارك، ليسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن، فأمنه يا محمد حتى يسمع كلام الله ويتدبره، ويطلع على حقيقة الإسلام. وهذا غاية في حسن المعاملة وكرم الأخلاق، لأن المراد ليس النيل من الكافرين، بل إقناعهم وهدايتهم حتى يعرفوا الحق فيتبعوه، ويتركوا ما هم عليه من الغي والضلال، وهذا غاية الإنصاف لخصوم الإسلام.

«الحكمة من هذه البراءة»

ثم تتابعت الآيات الكريمة تذكر حكمة الله في البراءة من المشركين، والأسباب التي تدعو إلى إمهالهم أربعة أشهر، وعدم الاعتداد بعهودهم التي أبرموها مع النبي عليه أفضل الصلاة والتسليم فقال تقدست أسماؤه ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ؟ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي كيف يكون للمشركين عهد وأمان، معتد به عند الله ورسوله، وهم يضمرون الغدر في كل عهد يعطونه للمسلمين؟ ثم استثنى منهم المعاهدين عند المسجد الحرام، وهم الذين عقدوا الصلح مع رسول الله يوم الحديبية فقال ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ أي فما داموا مستقيمين على عهدهم، فاستقيموا لهم يا معشر المسلمين على الوفاء، فإن الله يحب المتقين، الذين يقون بالعهد، ويتركون الغدر والخيانة، وهكذا يفرض الإسلام احترام العهود والمواثيق، ويظل في أوج العظمة والكمال.

«الأسلوبُ للإنكار والاستبعاد»

والأسلوب الذي ورد به النصُّ الكريم، هو أسلوب الاستنكار والاستبعاد، لأن يكون للمشرِكين عهد يثق الإنسان بها، ولهذا جاء بصيغة الاستفهام الذي معناه الاستنكار والاستبعاد ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ؟﴾ ثم كرّر تعالى هذا الاستبعاد فقال ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً، يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَهِهِمْ، وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ، وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي كيف يكون لهم عهد، وحالهم أنهم إن يغلبوكم ويظفروا بكم، لا يراعوا في أحدٍ من المسلمين عهداً ولا ذمة، لأنه لا عهد لهم ولا أمان؟ يرضونكم بالكلام الجميل إن كانت الغلبة والظفر لكم عليهم ﴿وأكثرهم فاسقون﴾ أي وأكثرهم خارجون عن الطاعة، ناقضون للعهد؟

«ذكر قبائح وفظائع المشرِكين»

ثم أفاضت الآيات في ذكر مثالبهم وقبائحهم، فإنهم قد آثروا الفاني على الباقي، واستبدلوا بالقرآن وآياته النيران الساطعات، عَرْضاً يسيراً من متاع الدنيا الخسيس، فكانوا كمن باع الدرّ الثمين، أو الجواهر والآلئاء، بالحصى والخزف، أو يبيع الغنم والبقر، فما ربحوا في تلك التجارة، بل خسروا أبلغ الخسارة، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. وزيادة في الإيضاح والبيان، أكّد الباري جل وعلا إمعانهم في الغي والضلال، ونقضهم للعهد والمواثيق، فهم لا يعرفون لمؤمنٍ حرمة، ولا يقيمون لعهدٍ قطعه على أنفسهم وزناً، فحسبهم أنهم فسقة فجرة، كفروا بالرحمن، وأطاعوا الشيطان، فزئ

لهم سوء أعمالهم، وليس بعد الكفر ذنب، وفي ذلك يقول تقدست
أسماءه ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ أي لا
يراعون في قتل مؤمنٍ - لو قدروا عليه - عهداً ولا ذمة، ولو تمكنوا من
المؤمن لم يُبقوا ولم يَذروا، وهم المعتدون، المجاوزون الحد في
البغي والعدوان.

«دعوة المشركين للتوبة والإنابة»

ومع هذا نجد الرحمة الإلهية، تفسح أمامهم الطريق للتوبة
والإنابة، وتجعلهم إخوة للمؤمنين إن كفوا عن الظلم والعدوان، ورجعوا
إلى حمى الرحمن ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ، وَآتَوْا الزَّكَاةَ، فَإِخْوَانُكُمْ
فِي الدِّينِ، وَنُقِصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أمّا إن استمروا في الكفر
والضلال، فلن يُجدي معهم إلا الطعن والقتال، حتى تُستأصل شأفة
الكفر، وتُحصَد رؤوس الفتنة والطغيان ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ
عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ أي قاتلوا رؤساء وصناديد
الكفر ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَتَّبِعُونَ﴾ وهذا كالتعليل للأمر بقتالهم
أي كي يكفوا عن الإجرام، وينتهوا عن الطعن في دين الإسلام، وكأن
الآية تقول: ليكن الغرض من قتالهم، كفهم عن الشرور والآثام، لا
إيصال الأذى لهم، كما هو شأن المفسدين، فشأن المؤمن دفع الظلم
والفساد، لا تدمير وتخريب البلاد.

«حث المؤمنين على محاربة الكفار»

ومن أجل أن تكون الغاية نبيلة، والهدف سامياً، وهو إعزاز دين
الله، ورفع منار الهدى، وإعلاء كلمة الله، جاءت الآيات تحث المؤمنين

على قتال هؤلاء الكفار، بأسلوب الإغراء والحث والتحريض، ﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ، وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ، وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، أَتَخْشَوْنَهُمْ؟ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ، وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ. وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

«الأسباب الأساسية لمحاربة المشركين»

فقد ذكرت الآيات البيّنات ثلاثة أسباب رئيسية، تدعو إلى قتال أولئك المشركين، المخالفين لله ولرسوله:

أولاً: نقضهم العهود والمواثيق.

ثانياً: عزمهم على إخراج الرسول من مكة حين تأمروا عليه بدار الندوة.

ثالثاً: بدؤهم بالقتال يوم بدر، والبادي أظلم.

وقد رتب الله على قتالهم خمس نتائج كثرية لجهاد المؤمنين وهي:

الأولى: ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ أي بالقتل، والأسر، وغنيمة أموالهم.

الثانية: ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ أي يذلهم بالقهر في الدنيا، والهوان والخسران في الآخرة.

الثالثة: ﴿وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي يجعلكم غالبين عليهم، مسلّطين على رقابهم.

الرابعة: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ أي بإعزاز الدين واندحار الأعداء.

الخامسة: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي يُذهب ما بها من غيظ، وغمٍّ، وكرب، وقد حقق الله تعالى لأوليائه كلَّ هذه المواعيد، على أكمل الوجوه، فكان ذلك برهاناً ساطعاً على صدق الرسول عليه السلام، وجلال وكمال الإسلام.

«التحذير من موالاة أعداء الله»

وبعد أن أفاضت السورة في ذكر فضائح وقبائح المشركين، وأمرت بقتالهم والتبرؤ من عهودهم، جاءت الآيات لتذكّر المؤمنين، أن طريق الجنة إنما هو بالجهاد في سبيل الله، وبغض أعداء الله، وعدم محبتهم أو مصادقتهم أو موالاتهم، فإن من مستلزمات الإيمان بغض من يبغضه الله، وحب من يحبه الله، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ، وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ والوليعة هي البطانة يعني الحبيب الخالص، الذي يصادقه الإنسان ويصافيه، ويفشي إليه سرّه، ويُعلمه أمره، مشتقة من الولوج بمعنى الدخول، فكان كلاً منهما قد دخل في قلب صاحبه، وأطلع على سريره، لوجود الصفاء والمحبة بينهما.

ومعنى الآية: لا تحسبوا أيها المؤمنون أن تُتركوا على ما أنتم عليه، بدون اختبار ولا تمحيص، فإن من سنن الله اختبار العباد، لتمييز المؤمن المجاهد، من المنافق المعاند، وليظهر للناس أهل الصدق والوفاء، الذين جاهدوا لإعلاء كلمة الله، ولم يتخذوا من المشركين أنصاراً وأعواناً وأحباباً، من الذين يضادون رسول الله والمؤمنين، والغرض من الآية بيان أن الله تعالى لا يترك العباد دون تمحيص

وابتلاء، يظهر فيه الطَّيِّبُ من الخَبِيثِ، ولهذا ختم الله الآية بقوله ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي رقيب على أعمالكم، مطلع عليها، لا يخفى عليه شيء من الأمور.

«افتخار الكفار بعمارة المسجد الحرام»

ولقد كان من سفه المشركين، افتخارهم بأنهم سدن البيت العتيق، وخذلوا حرمه، وحماة أمنه، واعتدادهم ببعض المآثر، من الأعمال التي كانوا يفعلونها في الجاهلية، من سقاية، ورفادة، وإطعام للحجيج، وفك للأسير، وغير ذلك من أعمال البر والفلاح، فجاءت السورة الكريمة، لتبين إن عمارة بيوت الله، إنما هي بالإيمان وطاعة الرحمن، والعمل الصالح الذي ينجي الإنسان من عذاب الله، وفي ذلك يقول القرآن الكريم ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ، شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ، وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ. إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَآتَى الزَّكَاةَ، وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ، فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ والمعنى لا يصح ولا يستقيم ولا يليق بالمشركين، أن يعمرُوا المسجد الحرام ولا غيره من المساجد، حال كونهم مقرّين بالكفر، ناطقين به، حيث كانوا يقولون في طوافهم «ليكن لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك» فكيف يفخرون بعمارة بيوت الله، وهم يعلنون الكفر بالله؟

«سبب نزول الآيات الكريمة»

روي أن «العباس بن عبد المطلب» لما أسر يوم بدر ضمن من

أسر، أقبل عليه المسلمون فعيروه بالكفر، وقطيعه الرحم، وأغلظ علي رضي الله عنه له القول، فقال العباس: ما لكم تذكرون مساوئنا، ولا تذكرون محاسننا؟ فقال له علي: ألكم محاسن؟ فقال: نعم، إنا لنعمر المسجد الحرام، ونحجج الكعبة، ونسقي الحاج، ونفك العاني - يعني الأسير - ونعين الضعيف، فنزلت الآية الكريمة ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ﴾. الآيات.

«صفات من يعمر بيوت الله»

وقد ذكر تعالى من صفات من يعمر بيوت الله حقيقة خمسة أوصاف وهي:

- ١ - الإيمان بالله تعالى حق الإيمان.
- ٢ - والتصديق ببلقائه في الدار الآخرة.
- ٣ - وأداء الصلوات المفروضة.
- ٤ - ودفع الزكاة لمستحقيها.
- ٥ - والخشية من الله تعالى، فذلك حقيقة الإيمان، وإلى ذلك يشير قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَآتَى الزَّكَاةَ، وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ، فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ وهذه شهادة من الله جل وعلا لعمار بيوته بالإيمان، والفوز بالسعادة في الجنان، كما شهد لهم بذلك أيضاً النبي عليه الصلاة والسلام بقوله ﴿إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسْجِدَ، فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ﴾ فإن الله تعالى يقول ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾^(١) وفي الحديث عن أنس مرفوعاً يقول الله تعالى: «وعزتي

(١) أخرجه أحمد والترمذي والحاكم في المستدرک.

وجلالتي، إني لأهْمُّ بأهل الأرض عذاباً، فإذا نظرتُ إلى عُمَار بيوتي، وإلى المتحايِّين فيَّ، وإلى المستغفرين بالأسحار، صرفتُ ذلك عنهم»^(١).

«حقيقة العمارة لبيوت الله»

وزيادة في الإيضاح والبيان، فقد جاءت الآيات تؤكد حقيقة العمارة لبيوت الله، وأنها ليست بالبناء والترميم، وليست بالخدمة وسقاية الحجيج، فإن الأعمال الصالحة إذا لم تُبن على أساسٍ متين، من العقيدة الصافية، والإيمان الراسخ، فإنها تضمحل وتلاشى، وتكون خسراناً ودماراً يوم القيامة، لأنها بنيت على غير أساس، وفي ذلك يقول القرآن الكريم، مخاطباً المشركين بأسلوب الإنكار والتوبيخ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: نزلت في العباس بن عبد المطلب حين أسر بيدر، فقال: إن كنتم سبقتُمونا بالإسلام، والهجرة، والجهاد، فلقد كنا نعمر المسجد الحرام، ونسقي الحاج، ونفك العاني، فأنزل الله الآية ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. ^(٢) الآية.

«ما هي أفضل الأعمال؟»

وروي أن نفراً من الصحابة، جلسوا عند منبر رسول الله،
(١) ذكره الحافظ ابن كثير من رواية الحافظ بن عساكر عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً، وهو حديث غريب.
(٢) هذه رواية ابن أبي طلحة عن ابن عباس، كما ذكرها ابن كثير في تفسيره ١٣١/٢ من المختصر.

يتحدثون عن أفضل الأعمال، فقال رجل منهم: لا أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام أفضل، وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلت، فزجرهم عمر بن الخطاب وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله - وذلك يوم الجمعة - ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيه فيما اختلفتم فيه، ففعل فأنزل الله الآية^(١).

ثم تابعت الآيات تشيد بمنزلة أهل الهجرة والجهاد فقال تقدست أسماؤه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ. يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ. خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

«الحبُّ في الله أوثقُ عُرى الإيمان»

وبعد أن ذكر الباري جل وعلا قبائح المشركين، وأننى على المؤمنين المهاجرين، الذين هجروا الديار والأوطان، حباً في الله ورسوله، حذّر في هذه الآيات البيّنات المؤمنين من موالاة أعداء الدين، وذكر أن الانقطاع عن الآباء والأبناء والأقرباء بسبب الكفر، هو من مستلزمات العقيدة والإيمان، فليس بمؤمن من صافى أو صادق أعداء الله، حتى ولو كانوا من الآباء والأبناء، وفي ذلك يقول ربنا تقدّست أسماؤه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ، إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ والمعنى: لا تتخذوا

(١) الحديث أخرجه أبو داود وابن حبان وأصله في صحيح مسلم.

يا معشر المؤمنين آباءكم وإخوانكم الكافرين، أنصاراً وأعواناً تودونهم وتصادقونهم وتحبونهم، إن فضلوا الكُفْرَ واختاروه على الإيمان، وأصرروا عليه إصراراً، ومن يصادقهم منكم فقد اعتدى حدود الله وظلم نفسه، لأنه عَرَضَهَا لعذاب الله، قال ابن عباس في قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ يريد إنه يكون مشركاً مثلهم، لأن الرضى بالشرك شرك.

«سبب نزول الآية الكريمة»

روي في سبب نزول هذه الآية، أن النبي ﷺ لما أمر بالهجرة إلى المدينة المنورة، أخبر أصحابه وأمرهم بالاستعداد للهجرة، فجعل الرجل يقول لأبيه وأخيه وامراته: لقد أمرنا بالهجرة وترك الأوطان، فمنهم من يسرع إلى ذلك ويعجبه، ومنهم من تتعلق به زوجته وولده وعياله فيقولون له: نشدك الله ألا تدعنا إلى غير شيء فنضيع؟! فيرق لهم، ويجلس معهم، ويدع الهجرة، فنزلت الآية تحذرهم من ذلك، وتأمرهم بالهجرة إعزازاً لدين الله^(١).

«الإيمان أغلى من الأولاد والأوطان»

ثم تلتها الآيات تُنذر وتتوعد، من أثر أهله، وقربته، وعشيرته، على الله ورسوله، أو الجهاد في سبيله، فليس شيء في هذه الدنيا مهما سما وغلا، يعادل حب الرحمن وعقيدة الإيمان، فالزوجة، والولد، والوطن، والتجارة، وسائر ما يحرص عليه الإنسان، كلها تهون أمام رضى الله وطاعته، والهجرة في سبيله، ولهذا قال تقدست أسماؤه محذراً ومنذراً ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ، وَأَبْنَاؤُكُمْ، وَإِخْوَانُكُمْ، وَأَزْوَاجُكُمْ،

(١) انظر كتاب «أسباب النزول» للإمام الواحدي ص ١٤٠ وجامع الأحكام للقرطبي.

وَعَشِيرَتُكُمْ، وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا، وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا، وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا، أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ، فَتَرْبِضُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٠﴾ أفرايتم كيف يكون الوعيد الذي ترتعد له الفرائص؟ وينخلع له قلب المؤمن فرعاً وهولاً، وهو يسمع آيات الرحمن، تنذر وتتوعد كلُّ من آثر الدنيا وما فيها من زخرف ومتاع، على الإيمان بالله والجهاد في سبيله؟.

«الترتيب في غاية الحسن والتناسق»

وقد جاء الترتيب في الآية الكريمة في غاية الحسن والتناسق، فقد ذكر تعالى الآباء والأبناء، ثم الإخوان والأزواج، ثم العشيرة والأموال، ثم التجارة والأوطان، وكل هذه من زهرات الحياة الدنيا ونعيمها العاجل، والإنسان يفضل الأبناء والأولاد على الأموال والأوطان، بل إنه ينفق ما يملك، لينقذ ولده من خطرٍ داهم أو مرضٍ قاتل، فلذلك قدّم الله في الآية ذكر الأبناء والآباء والإخوان والعشيرة، على ذكر الأموال والتجارة والأوطان، وختم الآية بذلك الإنذار والوعيد ﴿فَتَرْبِضُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

«طريق العزة والنصرة»

وبعد هذا البيان الساطع القاطع، في وجوب إثارة رضى الله على كل شيء في هذه الحياة، ومحبة رسوله، والهجرة والجهاد في سبيله، جاءت الآيات لتوضيح طريق العزة والنصرة، فلقد نصر الله المؤمنين، في أكثر الغزوات والمعارك، مع قلة عددهم، وضآلة عتادهم، وذلك كبرهان على تأييد الله لأوليائه وأصفيائه، وخذلانٍ لأعدائه، طالما أن

المؤمنين معتمدون على الله، واثقون بصدق وعده، أما إذا اغتروا بكثرتهم، وخدعوا بما لديهم من سلاح وعتاد، فلن يكون أمامهم إلا الخيبة والانكسار، فليس النصر بالكثرة ولا بالوفرة، ولكنه بالإيمان والالتجاء إلى حمى الرحمن، وفي ذلك يقول المولى تقدرت أسماؤه ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا، وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ. ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا، وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

«اغترار المسلمين بكثرتهم في حنين»

روي أن المسلمين كانوا في «غزوة حنين» عدداً كبيراً، يزيد على اثني عشر ألف مقاتل، وكان عدد الأعداء لا يزيد على أربعة آلاف، فدخل إلى بعضهم الزهو والغرور، وقالوا لن نغلب اليوم من قلة، فأراهم الله الهزيمة بأمام أعينهم، حتى ولّوا الأدبار منهزمين، ولم يثبت منهم في المعركة إلا قليل، وهذا معنى قوله تعالى ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ قال الإمام الطبري في تفسير الآية: يخبرهم تبارك وتعالى أن النصر بيده، ومن عنده، وأنه ليس بكثرة العدد، وأنه ينصر القليل على الكثير إذا شاء، ويخلى القليل فيهزم الكثير، قيل للبراء بن عازب: أفررتم عن رسول الله يوم حنين؟ فقال البراء: أشهد أن رسول الله ﷺ لم يفر، ولقد رأيته على بغلته البيضاء - وأبو سفيان أخذ بلجامها - فلما غشيه المشركون نزل عنها وجعل يقول: أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ثم أخذ قبضة من تراب فرمى بها في وجوه المشركين وقال:

شاهت الوجوه، ففرُّوا فما بقي أحدٌ إلَّا ويمسح القذى عن عينيه»^(١) وقال البراء: «كنا والله إذا حمي البأس نتقي برسول الله عليه الصلاة والسلام، وما كان أحد أقرب إلى العدو منه، وإن الشجاع منا الذي يحاذيه»^(٢). وهكذا كانت غزوة حنين درساً بليغاً للمؤمنين، وبعد الانكسار جاء الفتح والانتصار، وأعاد الله الكرَّةَ لجنده وأوليائه، ونَصَرهم على القوم الكافرين.

«نجاسةُ المشركين هل هي عينيةٌ أم معنوية؟»

لا تزال الآيات تتحدث عن شنائع وقبائح المشركين، وعن الأسباب التي دعت إلى البراءة منهم، وقطع العلاقات معهم، فقد جمعوا بين الكفر، ونقض العهود، واستحلال دماء المسلمين وأموالهم، واتفاقهم مع اليهود على حرب الإسلام والمسلمين، ولهذه الأسباب وغيرها، جاءت الآيات الكريمة تأمر بمقاطعتهم، ونبذ عهودهم، وعدم تمكينهم من الحج أو العمرة، ومنعهم من دخول بيوت الله، لأنهم بمنزلة الشيء النجس، الذي ينبغي أن تُنزَّه عنه الأماكن المقدسة، وفي ذلك يقول الله تقدست أسماؤه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ، فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

ومعنى أن المشركين نجس، نجاسة عقائدهم وأفعالهم وأخلاقهم، فهم كالشيء المستقذر النَّجَس، الذي ينبغي أن يتجنبه الإنسان، فالمراد بقوله: «نَجَسٌ» أي قذر لخبث باطنهم، وعدم تطهرهم من الجنابة، وشربهم الخمر، وارتكابهم الفجور، وأمثال ذلك، وروي عن ابن عباس أنه قال: أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير، فحمل الآية

(١) انظر جامع البيان للإمام الطبري ١٠٣/١٠ وأصل الحديث في الصحيحين.

(٢) صفوة التفاسير للصابوني ٥٢٩/١.

على ظاهرها، وكذلك قال الحسن البصري: إن ذواتهم نجسة، ومن صافح مشركاً فليتوضأ، وجمهور المفسرين والعلماء على أن الآية واردة مورد التشبيه والتمثيل أي هم بمنزلة النجس أو كالنجس، لخبث اعتقادهم، وكفرهم بالله، وشربهم الخمر، وأكلهم الخنزير، فجعلوا كأنهم النجاسة لعينها مبالغة في التقييح والذم، على حد قولهم: فلان أسد أي كالأسد في الشجاعة والإقدام، وهذا القول هو الأظهر والأشهر.

«ما المراد بالمسجد الحرام»

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ المراد به منعهم من دخول الحرم كله، أطلق المسجد الحرام وقصد به مكة كلها شرفها الله، لأنها حرم الله الآمن، وفيها بيته العتيق، كما قال سبحانه ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾؟ وهذا مذهب عطاء، وبه أخذ الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، أن المشرك لا يُسمح له بدخول مكة ولا بدخول الحرم، لأنها أماكن مقدسة شرفها الله وطهرها من رجس الكفار.

وذهب مالك رحمه الله إلى أن المشرك لا يُمكن من دخول سائر المساجد، قياساً على المسجد الحرام في المنع من الدخول فيه، وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لعماله يقول لهم: امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين.

وذهب بعض الفقهاء إلى أن المراد منعهم عن «الحج والعمرة» أي لا يحجوا ولا يعتمروا بعد عامهم هذا، وهو عام تسع من الهجرة، ويؤيده أن النبي ﷺ بعث علياً صحبة أبي بكر، وأمره أن ينادي في المشركين «أن لا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان»^(١)

(١) هذه الرواية مشهورة، ذكرها ابن أبي إسحق، وذكرها الحافظ ابن كثير في تفسيره

وهذا مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله .

«وسوسة الشيطان في قلوب بعض المسلمين»

ولمّا كان منع المشركين من دخول مكة، ومن حج بيت الله العتيق، يوجب تضيقاً على المسلمين في أمر الرزق، فإن أهل مكة يعتمدون على موسم الحج، وقد كان المشركون يجلبون معهم الأطعمة والتجارات في المواسم، وألقى الشيطان في قلوب المسلمين الحزن، وأثار في صدورهم الوسواس، فقال لهم: من أين تأكلون؟ وكيف تعيشون وتكسبون وقد مُنعت عنكم الأرزاق والتجارة؟ فجاءت الآيات لتدفع عنهم تلك الظنون والأوهام، ولتنبيههم أنهم إذا أطاعوا الله في تنفيذ أوامره، فسوف يفتح الله عليهم أبواب الرزق، من حيث لا يحتسبون، وإلى ذلك أشار تعالى بقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي إن خشيتم أيها المؤمنون من الفقر والحاجة، بسبب منعهم من دخول الحرم، فإن الله يغنيكم عنهم بطريق آخر، ويرزقكم من فضله وعطائه، وهو العليم بما يصلحكم، الحكيم فيما شرع لكم.

«الأمر بجهاد اليهود والنصارى»

وبعد هذا البيان المستفيض، في وجوب مقاطعة المشركين، ومعاداتهم، ومنعهم من دخول المشاعر المقدسة، أعقبتها الآيات تأمر بقتال «اليهود والنصارى» وهم العدو الثاني للإسلام والمسلمين، وهم مثل المشركين كفار، لا يؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً صحيحاً، فلا بدّ من تأديبهم، حتى ندفع ضررهم وخطرهم عن المسلمين، وتنكسر شوكتهم فيرضخوا لحكم الإسلام، ويدفعوا الجزية صاغرين مستسلمين، مقهورين بسلطان الإسلام وعزة المسلمين، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَا

يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ، مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ، حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٦﴾.

«السبب في قتال أهل الكتاب»

ثم بيّن تعالى السبب في قتالهم ومعاداتهم، ألا وهو مقاتلتهم
الشيعة، وفريتهم على الله، في نسبة الزوجة لله والولد، تعالى الله عما
يقول الظالمون علواً كبيراً، وفي ذلك يقول تقدّست أسماؤه ﴿وَقَالَتِ
الْيَهُودُ عِزَّى ابْنُ اللَّهِ، وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، ذَلِكَ قَوْلُهُمْ
بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ، قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾
أي ذلك القول الشنيع والافتراء والبهتان، هو مجرد دعوى باللسان، من
غير حجة ولا برهان، ومعنى قوله تعالى ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
قَبْلُ﴾ أي يماثلون ويشابهون بهذا الكذب والزور، قول المشركين قبلهم
حين قالوا: الملائكة بنات الله، فقد التقت ضلالاتهم، وتشابهت
قلوبهم، على الكفر بالله، ونسبة ما لا يليق به جلّ وعلا ومعنى قوله
﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ دعاء عليهم بالهلاك أي أهلكهم الله كيف
يصرفون عن الحق إلى الضلال بعد وضوح الدليل؟ ثم ذكر تعالى سبباً
آخر يستدعي معاداتهم فقال جلّ شأنه ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً
مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً، لَا
إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ومعنى اتخاذهم الأحرار والرهبان
أرباباً، أنهم أطاعوهم فيما أحلّوا لهم وحرّموا كما يطاع الرب، وتركوا
أمر الله، فكأنهم عبدوهم من دون الله، روي عن عدي بن حاتم قال:
أتيتُ رسول الله ﷺ وفي عنقي صليبٌ من ذهب، فقال يا عدي: اطرح
عنك هذا الوثن، قال وسمعتَه يقرأ سورة براءة ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ

وَرَهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ﴾ : لم يكونوا يعبدونهم ، فقال عليه السلام : أليس يحرمون ما أحل الله تعالى فيحرمونه ، ويحلون ما حرم الله فيستحلون؟ فقلت : بلى ، قال : فذلك عبادتهم^(١) . ثم جمع الله المشركين واليهود والنصارى في سلك واحد في كيدهم للإسلام فقال ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ، وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ، وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ. هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ .

وهؤلاء اليهود والنصارى ، هم الذين غالوا غلوّاً شديداً في أمر الدين ، فزعموا أن عزيزاً ابنُ الله ، وأن المسيح ابنُ الله ، وقد ردّت عليهم الآيات بالحجة الساطعة ، والبرهان القاطع .

«تكالبهم على جمع حطام الدنيا»

ثم جاءت الآيات بعدها تصفهم بالسفه والضلال ، وتصف رؤساءهم بالتكبر والتجبر ، والطمع والجشع ، والحرص على حطام الدنيا ، والتكالب على أكل أموال الناس بالباطل ، باسم الكهنوت والدين ، فقد جعلوا الدين مطيّةً لنيل الدنيا ، وذلك منتهى الخسة والدناءة ، والتلاعب بعقول الناس ، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ و«الأحبار» هم علماء اليهود ، و«الرهبان» علماء النصارى ، ثم عطف تعالى على هؤلاء الأشقياء ، أرباب الأموال ، الذين كنزوا الذهب والفضة ولم يؤدوا زكاتها ، وسلكهم

(١) ذكره الإمام الواحدي في أسباب النزول ص ١٤٠ والنيسابوري في تفسيره غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٦٠/١٠ .

في سلكهم في العذاب والنكال، فقال تقدّست أسماؤه ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَبَشَّرَهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ والبشارة بالعذاب ضربٌ من التهكم والسخرية، فإنهم إنما جمعوا الأموال، وكدّسوا الثروات، من أجل راحتهم وسعادتهم، فكأنه تعالى يقول: بشّرهم بالسعادة في لظى الجحيم، ثم زاد تعالى في الإيضاح والبيان فقال ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ، وَجُنُوبُهُمْ، وَظُهُورُهُمْ، هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾.

«لماذا قرن بين الأحابر والكانزين للمال؟»

وإنما قرن تعالى بين «اليهود والنصارى» وبين الكانزين للمال، تغليظاً عليهم، وتنبهياً على أن من يأخذ السحت من أهل الكتاب، ومن لا يعطي من المسلمين، من طيّب ماله، سواءً في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم. وخصّ تعالى الجباه، والجنوب، والظهور بالذكر، لأن البخيل يرى الفقير قادماً نحوه يسأله العون، فيقطّب وجهه، ويعبس بجهته، فإذا جاءه أعرض بجانبه، فإذا طالبه بإحسان ولأه ظهره، فيعاقب بالكوي بالنار في هذه الأطراف، تحقيراً له وإهانةً، وجزاءً له على صنيعه السيئ، جزاءً وفاقاً.

«ما هو المال المكنوز؟»

والمال المكنوز هو الذي لم تؤدّ زكاته، سواءً كان من الذهب، أو الفضة، أو الأموال النقدية والعملات المتداولة، فكلُّ ما ادّخر ولم تؤدّ زكاته فهو كنز، ولو كان بين الأيدي غير مخبوء، وكلُّ ما أدّيت زكاته فهو غير كنز، ولو كان مدفوناً تحت الأرض، ويدل عليه ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من رجلٍ لا يؤدّي زكاة ماله، إلّا جُعل له يوم القيامة صفائح من نار،

فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ، وَجَبْهَتُهُ، وَظَهْرُهُ، فِي يَوْمٍ كَانَ مَقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ، إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ^(١).

«الْمَالُ نِعْمَةٌ أَوْ نِقْمَةٌ وَهُوَ وَسِيلَةٌ لَا غَايَةَ»

وَيَجْدُرُ بِنَا هُنَا أَنْ نُنَبِّهَ إِخْوَانَنَا الْمُسْلِمِينَ، إِلَى أَنَّ الْمَالَ نِعْمَةٌ، وَلَكِنَّهُ قَدْ يَنْقَلِبُ إِلَى نِقْمَةٍ، إِذَا لَمْ يَعْرِفِ الْعَبْدُ فِيهِ حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ الْمُسْكِينِ، وَضَنَّ بِهِ فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَ مَالِهِ، شُكْرًا لِلَّهِ عَلَى نِعْمَتِهِ، فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَكُونُ سَبَبًا لِلشَّقَاءِ وَالْدمَارِ، وَيَتِمَثَّلُ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُعْبَانًا فَظِيعًا يَلْتَفِ عَلَى عُنُقِهِ كَالطُّوقِ وَالْقَلَادَةِ، كَمَا أَخْبَرَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ عليه السلام فِيمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْهُ حَيْثُ قَالَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ «مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ، مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَجَاعًا أَقْرَعَ - أَيُّ ثُعْبَانًا فَظِيعًا - لَهُ زَبِيبَتَانِ - أَيُّ نَقَطَتَانِ سَوْدَاوَانِ مِنْ ضَخَامَتِهِ - فَيَأْخُذُ بِلَهْزِمَيْتِهِ - يَعْنِي شَدْقِيهِ - ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَتَرُكَ، وَتَلَا عليه السلام قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

وَالْمَالُ فِي الْإِسْلَامِ وَسِيلَةٌ وَلَيْسَ بِغَايَةٍ، وَسِيلَةٌ إِلَى نَيْلِ رِضَى اللَّهِ، بِالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِهِ، وَعَمَلِ الْبِرِّ وَالصَّالِحَاتِ عَمَلًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾. فَمَنْ أَخَذَهُ مِنْ حِلِّهِ، وَأَنْفَقَهُ فِي مَحَلِّهِ، فَنَعَمْ هَذَا الْمَالُ كَمَا وَرَدَ فِي الْأَثَرِ (نَعَمْ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ) وَمَنْ جَعَلَ الْمَالَ غَايَةً، فَجَمَعَهُ مِنْ حِلَالٍ وَحَرَامٍ، وَلَمْ يَبَالِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَ، وَلَا فِيمَ أَنْفَقَ، فَبُئِسَ هَذَا الْمَالُ الَّذِي سَيَكُونُ زَادًا لَهُ إِلَى جَهَنَّمَ، كَمَا قَالَ عليه السلام «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَكْسِبُ عَبْدٌ مَالًا حَرَامًا فَيَبَارِكُ لَهُ فِيهِ، وَلَا يَتَصَدَّقَ مِنْهُ فَيَتَقَبَّلَ اللَّهُ مِنْهُ، وَلَا يَتْرَكَ خَلْفَهُ إِلَّا كَانَ زَادَهُ إِلَى جَهَنَّمَ، إِنْ

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، وَرَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ بِأَطْوَلٍ مِنْهُ، وَانْظُرِ الْفَتْحَ الْكَبِيرَ ١١٣/٣.

الخبث لا يمحو الخبيث، إنما يمحو الخبيث الطيب»^(١).

«تبديلُ الشهور منكرٌ عظيم»

ثم عادت الآيات تذكر نوعاً آخر من قبائح أفعال اليهود والنصارى والمشركين، فقد تلاعبوا بالشهور والأعوام، حتى ضاعت معالم الشريعة، وتغيرت أوقات العبادات، بسبب ما قدموا وأخروا من الأيام والأعوام، حتى جاء الإسلام فأعادها إلى ما كانت عليه، يوم أن بدأ الله الخلق، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ، فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ، وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ وحين حجَّ رسول الله ﷺ حجة الوداع، كانت الأيام قد رجعت إلى ما كانت عليه، وصادف يومُ عرفة يومه الصحيح، فخطب النبي ﷺ في أصحابه فقال في خطبته «أَلَا إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ، يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلَاثَةٌ مَتَوَالِيَاتٌ ذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمَحْرَمِ، وَرَجَبُ الْمُضَرِّ الَّذِي بَيْنَ جَمَادَى وَشَعْبَانَ»^(٢). ولقد بلغ من سفه المشركين أن يستحلوا القتال في الأشهر الحرم ويستقرضوا حرمة شهرٍ لشهرٍ غيره، فقد كانوا أهل حروب وغارات، فإذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون، شقَّ عليهم ترك الحرب، فاستقرضوا حرمة شهرٍ لشهرٍ غيره، فربما أحلوا المحرم وحرموا صفر، وهذا ما يسمى بالنسيء، وهو

(١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه أحمد، والبيهقي، والحاكم، وانظر الفتح الكبير ٣٤١/١.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، ورواه أحمد في المسند، وانظر مختصر ابن كثير ١٤٠/٢.

تأخير شهر لشهر، وفي ذلك يقول القرآن الكريم ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ، يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاظِنُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ، زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

«دعوة المؤمنين إلى النفير العام»

وبعد أن ذكر تعالى قبائح المشركين، ونقضهم للعهود، وأمر بجهادهم وقتالهم، ليكف شرهم عن الإنسانية، جاءت الآيات بعدها تدعو المؤمنين إلى النفير العام، الذي به يعز شأن الإسلام والمسلمين، وتبقى رايته مرفوعة، وكلمتهم مسموعة، ويبقى لهم العز والتمكين في الأرض، لأن الجهاد في سبيل الله طريق العزة والسيادة، ولا عزة لأمة تركت الجهاد، وأخلدت إلى نعيم الدنيا، وفي ذلك يقول تقدرت أسماؤه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ؟﴾ والمعنى: ما لكم أيها المؤمنون إذا قيل لكم اخرجوا للجهاد أعداء الله، إغرازاً لدينه، تباطأتم وثاقلتم، وملتم إلى الدنيا وشهواتها، وتركتم مشاق السفر ومتاعه؟ وهو استفهام للإنكار يراد به التقرير والتوبيخ، وفيه عتاب لمن تخلف عن غزوة تبوك، وترك الجهاد في سبيل الله، ثم قال تعالى محذراً ومُنذراً ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ؟ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي هل رضيتم بنعيم الدنيا ومتاعها الفاني، بدل نعيم الآخرة وثوابها الخالد الباقي؟ فما التمتع بلذائد الدنيا في جنب الآخرة، إلا شيء مستحق قليل لا قيمة له بالنسبة لنعيم الآخرة، ثم توعدهم تعالى على ترك الخروج والنفير فقال عز شأنه ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا، وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ، وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

«الحديث عن غزوة تبوك»

روي أن النبي ﷺ لما رجع من الطائف، أقام بالمدينة أياماً، ثم أمر المؤمنين بالتجهز لجهاد الروم، وكان ذلك في السنة العاشرة من الهجرة، في وقت اشتداد الحر، وخلود الناس إلى الراحة والاستجمام، حين طابت الثمار، وكثرت الخضار، وتوفرت أسباب الرفاهية، فثقل ذلك على بعض المسلمين، لاسيما وأن الخروج كان في وقت الصيف، في شدة الحر، وبُعد المسافة، وقلة الزاد، وشدة الضيق، فكانت هذه الغزوة امتحاناً لإيمان الناس، وصبرهم على تحمل الشدائد والمكاره في سبيل الله، وهذه الغزوة اشتهرت بـ «غزوة تبوك» وهي أقصى الغزوات التي لاقاها المسلمون، حتى كانت تدعى «غزوة العُسرة» كما قال سبحانه ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾.

وقد روى الإمام الطبري عن عمر رضي الله عنه أنه قال: (خرجنا مع رسول الله إلى تبوك، في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش، حتى ظننا إن رقابنا ستنتقطع، حتى إن الرجل لينحر البعير فيعصر فرثه - أي كرشه - فيشربه، فقال أبو بكر يا رسول الله: إن الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا، قال تحب ذلك؟ قال: نعم، فدعا ورفع يديه فلم يرجعهما حتى سكبت السماء، فشربوا وملأوا ما معهم، قال: فرجعنا ننظر فلم نجد لها جاوزت العسكر)^(١).

وقد تخلف عن هذه الغزوة كثير من المنافقين، وبعض المهاجرين والأنصار، وأصحاب الأعدار، وقد نزل القرآن بالعتاب الشديد، والوعيد والتهديد، لأولئك المتخلفين الذين آثروا الراحة على التعب، فلم

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره الحافظ ابن كثير ١٧٥/٢.

يخرجوا مع رسول الله، وتركوا معونته ونصرته، وفيهم يقول القرآن الكريم ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ، إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ، إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

«هجرة النبي إلى المدينة المنورة»

والآية تشير إلى حادثة الهجرة، حين هاجر عليه أفضل الصلاة والتسليم، من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، ودخل غار ثور فاختفى فيه مع صاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه، وبقياً فيه ثلاثة أيام، حتى انقطع الطلب، وكان في ذلك من الآيات الباهرة، ما يدل دلالة واضحة، على حفظ الله لنبيه من كيد المشركين، وعصمته ونصرته له من أن تمتد إليه يدٌ بسوء، ومن أظهر الدلائل على ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال أبو بكر: «نظرتُ إلى أقدام المشركين ونحن في الغار، وهم على رؤوسنا، فقلتُ يا رسول الله: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه، فقال يا أبا بكر: ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟» وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ، إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

«الخروج للجهاد في المنشط والمكره»

ثم تتابعت الآيات تأمر المسلمين بالخروج للجهاد، في جميع الظروف والأحوال، في حال السعة وفي حال الضيق، في الصيف والشتاء، في الكثرة والقلّة، وفي اليسر والعسر، لأن الجهاد رمز دعوة الإسلام، وذروة سنامه، وما تركت أمة الجهاد في سبيل الله، إلا ذلتْ

وهانت، وفي ذلك يقول القرآن الكريم ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

والمعنى: اخرجوا لقتال الأعداء يا معشر المؤمنين، لإعلاء كلمة الله ونصرة دينه، شيوخاً وشباباً، مشاة وركباً، انفروا في جميع الأوقات والظروف والأحوال، في اليسر والعسر، والمنشط والمكره، وفي حال الشدة والرخاء، وجاهدوا أعداء الله بالأموال والأنفس، فإن ذلك خير لكم من التناقل إلى الأرض، والركون إلى الدنيا، والخلود إلى متاعها التافه الحقيق، وكذلك فهم الصحابة والسلف الصالح رضوان الله عليهم الآية، فسارعوا للجهاد في سبيل الله. روي عن صفوان بن عمرو قال: «كنت والياً على حمص، فلقيت شيخاً كبيراً قد سقط حاجباه، من أهل دمشق، على رحالته يريد الغزو، فقلت يا عم: لقد أعذر الله إليك، فرفع حاجبيه وقال يا ابن أخي: إن الله استنفرنا خفافاً وثقالاً فقال ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أَلَا إِنْ مِنْ يَحْبِهِ اللَّهُ يَبْتَلِيهِ»^(١).

«بدء الحديث عن المنافقين»

سورة التوبة رفعت راية الجهاد، وأعلت منار الحق، وأعزت دين الله، وفضحت أعداء الله من اليهود والنصارى والمنافقين، حتى سمّاها بعض الصحابة «الفاضحة» لأنها كشفت الستار، عن الأشرار الفجار، من أعداء الإسلام، فأظهرت خفايا نفوسهم، وبوجه خاص المنافقين منهم، فقد فضحتهم، وكشفت أسرارهم ومخازيهم، وعرّتهم أمام أبصار المؤمنين، حتى لم تدع لهم سترًا، ولم تبق لهم أمراً، وقد كانوا قبل اليوم، مستورين بستر دعوى الإسلام، فلما دعا داع الجهاد إلى غزوة

(١) ذكرها النيسابوري في تفسيره غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٩٣/١٠.

تبوك، وحثَّ الرسولُ المؤمنين على الجهاد، تخلف المنافقون، وأخذوا يشبطون العزائم، ثم جاءوا بعد ذلك يعتذرون عند الرسول بالمعاذير الواهية، ويحلفون أمامه الأيمان الكاذبة، ليهربوا من الغزو والجهاد، ولنستمع إلى الآيات البينات، وهي تكشف الستار عن هؤلاء المنافقين، حيث يقول تقدست أسماؤه ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبْعُوكَ، وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ، وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ومعنى الآية الكريمة: لو كان هذا الغزو الذي دعوت إليه المنافقين، مغنماً قريباً سهل المنال، أو كان السفر قاصداً أي سفراً قريباً غير بعيد، لخرجوا معك يا محمد، لا حباً في القتال، بل طمعاً في الغنيمة، ولكن بعدت عليهم المسافة لبعد الطريق، ولذلك اعتذروا عن الخروج، لما في قلوبهم من الضلال والنفاق، وسيحلفون لكم معتذرين بأعذار كاذبة، قائلين: لو قدرنا على الخروج معكم لما تأخرنا، وهم كاذبون في هذا الكلام.

والآية - أخي المسلم - إخبارٌ عن أمرٍ غريب، أخبر الله عزَّ وجلَّ عنه قبل أن يحدث أي سيحلفون لك يا محمد عند رجوعك من غزوة تبوك، معتذرين بهذه الأيمان الكاذبة، يقولون لك: لو كان في استطاعتنا الخروج لما تأخرنا، وقد حصل كما أخبر القرآن، فكان ذلك من أوضح المعجزات الغيبية، التي تنبئ عن صدق القرآن.

«عتاب للرسول عليه السلام بسبب المنافقين»

ولقد استأذن فريق من المنافقين رسول الله ﷺ قبل سفره إلى تبوك، فأذن لبعضهم ثقةً منه بصدقهم، فنزل القرآن معاتباً له على ذلك الإذن قبل التثبت، فإن المنافقين ديدنهم الكذب، لا يكادون يصدقون

في أمر، وقد كان الأليق ألا يأذن لهم ليتبين الصادق من الكاذب، وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ والمعنى: سامحك الله يا محمد، لم أذنت لهؤلاء المنافقين، في التخلف عن الخروج معك بمجرد الاعتذار، وهؤلاء تركتهم حتى يظهر لك الصادق منهم في عذره من الفاجر الكاذب؟ قال مجاهد: نزلت في المنافقين، قال أناس منهم: استأذنوا رسول الله، فإن أذن لكم فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا أيضاً، فقد كانوا مصرين على عدم الخروج، سواء أذن لهم الرسول ﷺ أم لم يأذن، فأراد الله أن يكشف حالهم لنبيه عليه السلام.

«تَلَطَّفُ فِي الْعِتَابِ ظَاهِرٌ»

ولننظر إلى هذا اللطف الإلهي، في مخاطبة النبي عليه الصلاة والسلام، فقد بشره بالعفو قبل أن يُخبره بالذنب ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ ثم قال معاتباً ﴿لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ ومن هذه الآية يعرف الإنسان مكانة الرسول عند ربه، وعلو منزلته، حيث قدم العفو على العتاب، إكراماً له، ولو بدأ الآية بقوله ﴿لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ لخيف عليه أن ينفلق فؤاده من شدة الحزن والكمد، ولهذا قال أحد علماء السلف: هل سمعتم بمعاتبة أحسن وألطف من هذا؟ ناداه بالعفو قبل المعاتبة^(١)!!

«تعليم المسلمين الأدب مع رسول الله ﷺ»

وفي هذا تعليمٌ للأمة أن يتأدبوا في مخاطبة الرسول، وأن يعرفوا مكانته، وعلو قدره عند ربه، فلا يقابلوه إلا بكل لطف وإحسان، كما

(١) مختصر تفسير الحافظ ابن كثير ١٤٥/٢ للصابوني.

قال سبحانه مؤدباً ومرشداً ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾ أي لا تنادوه ولا تخاطبوه كما يخاطب بعضكم بعضاً باسمه العلم، بل شرفوه وعظموه بذكر أرفع الألقاب، قال ابن عباس: كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم، فنهاهم الله عن ذلك إعظماً لنبيه، قال فقولوا: يا نبي الله، ويا رسول الله، وقال قتادة: أمر الله أن يُهاب نبيه، وأن يُجَلَّ، وأن يُعَظَّم وأن يُسَوَّد^(١).

«الاستئذان في ترك الخروج للجهاد من علامات النفاق»

ثم بعد أن بين تعالى في الآيات بعدها، أن ترك الخروج للجهاد، والتعلل بالمعاذير الواهية في شأن الاستئذان، لا يصدر من أصحاب الإيمان والصدق والوفاء، فالمؤمن يهرع لتلبية النداء، وأداء الواجب المقدس في الجهاد، لإعلاء كلمة الله، ولا يتأخر أو يتلصق، إنما الذي يتهرب ضعيف الإيمان، ولهذا جعل تعالى الاستئذان من علامات النفاق، كما قال سبحانه ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ. إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ، فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾.

«عدم خروج المنافقين فيه مصلحة للمسلمين»

وإذا كان من شأن المنافقين، الهرب من ميدان الحرب، لما في قلوبهم من المرض مرض العقيدة والنفاق فقد أوضح الباري جلّ وعلا، أنهم لو كانوا صادقين في الخروج مع الرسول للجهاد، لاستعدوا

(١) تفسير الحافظ ابن كثير ٦٤١/٢ من المختصر، ومعنى «يُسَوَّد» أي يذكر بلفظ السيادة، فهو صلوات الله عليه سيد ولد آدم، كما صحّ بذلك الحديث الشريف.

الاستعداد الكامل له بالسلاح والعتاد والزاد، ولكنهم لخبثهم كانوا يتظاهرون بالرغبة في الخروج، لولا الأعدار القاهرة، وهم كاذبون في هذا الادعاء، وقد فضحهم تعالى وبيّن للمؤمنين أن تخلفهم عن الخروج، كان فيه أعظم النفع والمصلحة، لئلا يكونوا عيوناً للكافرين على المسلمين، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً، وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ. لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا - أي لو خرجوا معكم ما زادوكم إلا شراً وفساداً - ولأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي ولأسرعوا بينكم بالدسائس والمشى بالنميمة والإفساد، وفيكم يا معشر المؤمنين من يسمع لهم ويصغي إليهم، فكان من حكمة الله أن صرفهم عنكم فلم يخرجوا معكم، فلا تأسفوا لتخلفهم فإن الله عالم بظواهرهم وبواطنهم، وهو عليم بالظالمين.

«الفتنة تركهم الجهاد في سبيل الله»

وتتابع السورة تخبرنا في آياتها البينات، عن أحوال المنافقين الذين تحدّث عنهم السورة الكريمة بإسهاب، وبشكل مكشوف فاضح، فضح الله بها أحوالهم، حتى سميت سورة الفاضحة، قال ابن عباس: «ما زال ينزل في المنافقين «ومنهم» و«منهم» حتى ظننا أن لن تُبقي أحداً منهم» فلقد ذكر تعالى في الآيات السابقة تباطؤهم عن الخروج للجهاد، وأنهم لو خرجوا مع المؤمنين ما زادوا الجيش إلا ضعفاً واندحاراً، بتفريق الجماعة، وتشيت الكلمة، ولما في قلوبهم من الشحنة والبغضاء لدين الإسلام، فهم يحزنون إذا انتصر المسلمون،

ويفرحون إذا انهزموا أو أصابتهم كارثة، وفي ذلك يقول جل ثناؤه وتقدست أسماؤه ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي﴾، أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ. إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ، وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ. قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا، هُوَ مَوْلَانَا، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾.

قال المفسرون: نزلت الآية الأولى في «الجَدِّ بنِ قَيْسٍ» سَيِّدِ بَنِي سَلَمَةَ، كان منافقاً يتظاهر بالإيمان، فلما أراد الرسول ﷺ الخروج لغزوة تبوك، قال له: يا أبا وهب، هل لك في جِلَادِ بَنِي الْأَصْفَرِ؟ - يعني الروم - فقال يا رسول الله: لقد عرف قومي أنه لا رجل أشدَّ عُجْباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيتُ نساء بني الأصفر ألا أصبر عنهن، فائذن لي ولا تفتني، وأعينك بمالي، فأعرض عنه النبي ﷺ وقال قد أذنت لك، فأنزل الله ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي﴾ أي ائذن لي في القعود عن الجهاد ولا تفتني بالنساء، قال تعالى تشيعاً عليه وتقيحاً له ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي إنهم سقطوا في عين الفتنة فيما أرادوا الفرار منه، بل فيما هو أعظم، ألا وهي فتنة التخلف عن الجهاد، وفتنة النفاق والضلال، ثم ختم الآية بقوله ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي لا مفر لهم منها، فإنها محيطَةٌ بالمنافقين إحاطة السوار بالمعصم، لا يخلصون من العذاب ولا ينجون، أما في الدنيا فبإفشاء الأسرار، وهتك الأسرار، وفضيحتهم أمام الأبرار، وأما بالآخرة فلمآل حالهم إلى الدرك الأسفل من النار.

«حقق المنافقين على الإسلام والمسلمين»

ثم ذكر تعالى ما في قلوبهم من المرض الخبيث، والحقق

الدين، على الإسلام والمسلمين فقال تباركت أسماؤه ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ، وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ﴾ أي إن تصيبك في بعض الغزوات حسنة، سواء كانت انتصاراً أو غنيمة، يسؤهم ذلك لما في قلوبهم من البغضاء والحسد، وإن أصابتك مصيبة من نكبة وشدة، أو هزيمة وكرب وبلاء، يفرحوا بذلك أشد الفرح، ويقولوا: قد احتطنا لأنفسنا، وأخذنا باليقظة والحذر، فلم نلق بأنفسنا إلى التهلكة، ولم نخرج للقتال من قبل ذلك، فنحن العقلاء وهم المغفلون، قال تعالى ﴿وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ أي ينصرفوا عنك يا محمد وهم فرحون مسرورون. قال تعالى مرشداً لنبيه والمؤمنين، إلى إجابتهم بالجواب القاطع المفحم ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا، هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي قل لهم: لن يصيبنا خير أو شر، ولا ظفر أو هزيمة، ولا رخاء أو بلاء، إلا بتقدير من المولى جل وعلا، ولن ينالنا إلا ما هو مقدر علينا، مكتوب لنا من الأزل في اللوح المحفوظ، فعلام تفرحون والمقدر لا بد أن يكون؟ فإن انتصرنا فبمحض فضل الله، وإن انكسرننا فبتقدير من الله مالك الملك.

«المؤمنون غانمون في جميع الأحوال»

وزيادة في البيان، وإخزاء لأولياء الشيطان، جاءت السورة تأمر المؤمنين بإغاظة أعداء الله، ببيان أنهم غانمون في كلتا الحالتين: في النصر، أو في الهزيمة، لأن الله يكرمهم في الدنيا بالعز والسيادة والأجر العظيم، إن غلبوا الأعداء وانتصروا عليهم، وإن قُتلوا يكرمهم بالشهادة في سبيله بدخول الجنان في دار الخلد والنعيم ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بَنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ، وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ

بأيدينا، فَتَرَبُّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿١﴾ والمعنى: قل لهم هل تنتظرون بنا يا معشر المنافقين، إلا إحدى العاقبتين الحميدتين: إما النصر، وإما الشهادة في سبيل الله؟ وكل واحدة منهما مقام رفيع، ففي الأولى إحراز الغنيمة والظفر بالأعداء، وفي الثانية إبقاء الذكر الحسن والفوز بنعيم الآخرة السرمدي، ونحن ننتظر لكم أسوأ العاقبتين الوخيمتين: أن يهلككم الله بعذابٍ من عنده، يستأصل به شأفتكم، أو يقتلكم ويهلككم بأيدينا في معركة من المعارك، ثم قال سبحانه ﴿فَتَرَبُّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ أي انتظروا ما يحلُّ بنا، ونحن ننتظر ما يحلُّ بكم، وهو أمرٌ يتضمن الوعيد والتهديد، وفيه ضرب من السخرية كقوله تعالى ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾.

«الإيمان أصلٌ لقبول الأعمال الصالحة»

ثم تابعت الآيات تذكر لأولئك المنافقين، المتربصين بالمؤمنين الدوائر، أنهم بنفاقهم ضيعوا أئمن شيء، ألا وهو الإيمان الذي يرتكز عليه صالح العمل، فإن الأعمال لا تُقبل عند الله إلا إذا اعتمدت على دعامة الإيمان، وهم قد دمروا إيمانهم فضيعوا عملهم، فمهما أنفقوا من خير فلن يُقبل منهم، ومهما أحسنوا عملهم فهو ذاهب أدراج الرياح ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا، لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ، إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي أنفقوا طائعين أو كارهين، فمهما أنفقتم الأموال، وبذلت في طرق الإحسان، فلن يتقبل الله منكم، لأنكم فسقة فجرة، خارجون عن طاعة الله، ثم بين تعالى السبب وعِلل الحكم بأوضح بيان وأعظم برهان فقال ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ، إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى، وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ وتلك هي

سيما المنافقين: العصيان لأوامر الرحمن، والتشاغل عن الصلاة، وعدم الإنفاق إلا عن كراهية وجبر، لأنهم يعدونها مغرمًا لا مغنمًا، فهم لا يرجون لها ثوابًا، ولا يخافون لها عقابًا.

«انخداعهم بالأموال والبنين وهي سبب عذابهم»

وهذه السورة الكريمة من أشد ما نزل في المنافقين، إذ تناولت بالتفصيل أخبارهم، وكشفت أسرارهم، وظلّت تقذفهم بالحُمم، حتى لم تُبق منهم ديارًا، لأنهم جمعوا مع الكفر أسلوب المكر والخداع، وبشس هذا الثوب ملبسًا لأهل النفاق والرياء، وفيهم يقول الله جل وعلا محذّرًا من الاغترار بما هم عليه من الأموال والأولاد ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ والمعنى: لا تستحسن أيها السامع ولا تفتن، بما أوتوا من زينة الدنيا وبهرجها الخادع، فإنما هو عَرَضٌ زائل، ولا تغتر بما أنعمنا عليهم من الأموال والأولاد، فظاهره نعمة وباطنه نقمة، إنما يريد الله بذلك استدراجهم ليعذبهم بها في الدنيا، ويموتوا كافرين، مشغولين بالتمتع بزينة الدنيا، عن النّظر في أمر العاقبة، فيشتد في الآخرة حسابهم وعذابهم.

وقد يقول قائل: كيف يُعَذَّبُ المنافق والكافر بماله وولده؟ والمال والولد نعمة يفرح بها الإنسان، فكيف تكون سببًا لعذابه في الدنيا؟

والجواب: أن الأموال والأولاد، قد يكونان سببًا للتعذيب في الدنيا قبل الآخرة، وذلك أن كل ما كان حبُّ الإنسان للشيء أشدَّ، كان خوفه من فواته أكثر، وحزنه على فقده أعظم، فصاحب المال أبدًا في

قلق واضطراب، فهو إما في خوف فوات المال، وإما في حزن فقده، وإما في تعب جمعه وحفظه وتثمينه.. ثم إنه إن بقي المال عنده إلى آخر عمره، فعند الموت يعظم أسفه على مفارقتها، وتعظم حسرته، وكان كمن ينتقل من بستانٍ ونعيم، إلى سجنٍ وجحيم، وعند الحشر يكون حلاله حساباً، وحرامه عذاباً، فهذا هو وجه العذاب في الدنيا بالأموال والأولاد!!

«الأسلحة الفتاكة نوع من أنواع العذاب والدمار»

وثمة وجه آخر للعذاب الدنيوي، وهو ما كشفت لنا «حضارة القرن العشرين»، إذ يتسابق الشرق والغرب، للتسلح بأحدث الأسلحة الجهنمية الفتاكة، التي تفتقت عنها عبقرية إبليس، فمن دبابات، ومدافع، وصواريخ، وطائرات حربية، وقنابل ذرية، وهيدروجينية، وغير ذلك من أنواع الدمار للبشرية، ينفقون فيها الأموال، ويخسرون الرجال، أفليس هذا من أعظم العذاب والبلاء، الذي يعيشه هؤلاء الكفار؟ ولو بحثنا عن ميزانية الدول، لوجدنا أن ما يقرب من خمس الميزانية في كل دولة تذهب إلى التسلح، لعمل الأدوات الجهنمية، وصنع الأسلحة الفتاكة، التي يقتل بها الإنسان أخاه الإنسان، أفليس هذا من العذاب لهم في الدنيا؟ وصدق الله ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

«الأيمان الكاذبة شعار المنافقين»

ثم تنتقل الآيات إلى الحديث عن لونٍ آخر من ألوان القبائح والجرائم، التي تميّز بها المنافقون، فقد اتخذوا الأيمان الكاذبة درعاً لهم، يتقون بها غضب المؤمنين، وجعلوا التلون والتذبذب شعاراً لهم

ودثاراً، فإذا رأوا المؤمنين، حلفوا لهم أغلظ الأيمان أنهم معهم ومنهم، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون، وفيهم يقول تقدست أسمائه ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ أي ولكنهم قوم جناء، يخافون أن تقتلوه، إن أظهروا لكم دخيلة نفوسهم، لذلك يُظهرون الإسلام تقيّة، ويؤيدونه بالإيمان الفاجرة.. ثم زاد تعالى في بيان خورهم وجبنهم، مؤكداً نفاقهم وضلالهم فقال ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ، أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ و«المغارات» جمع مغارة، وهي الموضع الذي يغور الإنسان فيه أي يستتر، و«المدخل» بالتشديد المسلك الذي يدخل فيه الإنسان ولو ضيقاً ليسلم من الخطر، والمعنى: إن هؤلاء المنافقين لو رأوا حصناً يلجأون فيه، أو سرايب يختفون فيها، أو مسلكاً ضيقاً يسلكونه في الكهوف والجبال، لانصرفوا نحوها، وأقبلوا يُسرعون لها إسرعاً كالفرس الجموح، من شدة بغضهم وتأذيتهم من الرسول والمسلمين، فهم لو قدروا على الهروب منهم ولو في شر الأمكنة وأحسنها لفعلوا، فلا تغتروا يا معشر المؤمنين بأيمانهم الكاذبة.

«عيبهم للرسول في قسمة الصدقات»

وتتابع السورة سرد قبائح المنافقين، فتذكر اتهامهم الشنيع للرسول عليه الصلاة والسلام بعدم العدل في قسمة الغنائم، والطعن في الرسول طعن في الدين، ولهذا كان هذا الأمر خطيراً عند الله، ولذلك شدد فيه النكير ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ، فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا، وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسَخَطُونَ﴾ والمعنى: ومن المنافقين من يعيبك يا محمد في قسمة الصدقات، فإن أعطيتهم منها استحسنا فعلك

وقسمتك، وإن لم تعطهم منها سخطوا عليك وعابوك.. قال المفسرون: «كان الرسول يقسم غنائم حنين، فجاء إليه رجل من المنافقين، يُقال له «ذو الخويصرة» فقال له: اعدل يا محمد فإنك لم تعدل، فقال: ويلك إن لم أعدل فمن يعدل؟ ثم قال ﷺ: إنه يخرج من ضئضئ هذا - أي من أصله ونسله - قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإنهم شرُّ قتلى تحت أديم السماء»^(١) وفي رواية أن النبي ﷺ قال بعد أن سمع كلمة المنافق «رحم الله أخي موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر».

«الرضى بقسمة الرسول أصل في الإيمان»

ثم بين تعالى حقيقة المسلم، وهو الذي يستسلم لحكم الله، ولحكم رسوله، ويرضى بما قسمه الله له فقال سبحانه ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ، سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ، إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ فقد تضمنت هذه الآية أدباً عظيماً، وسراً شريفاً، حيث جعل الرضى بما قسمه الله ورسوله، والتوكل على الله وحده، والرغبة فيما عنده جل وعلا، هو الأساس في الإيمان واليقين، وجواب «لو» محذوف تقديره: لو فعلوا ذلك لكان خيراً لهم عند الله، وأبقى وأبر، وترك الجواب في هذا المعرض أدل على التعظيم والتهويل، ثم ختم تعالى الآيات ببيان المستحقين للصدقات فقال جل ثناؤه ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ، وَالْمَسْكِينِ، وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ، وَفِي الرِّقَابِ، وَالْغَارِمِينَ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَابْنِ السَّبِيلِ، فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ

(١) الحديث أخرجه الشيخان من رواية أبي سعيد الخدري، وانظر مختصر ابن كثير للصابوني ١٤٩/٢.

وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١﴾ وإنما حصر مصرف الزكاة في تلك الأصناف ليقطع طمع المنافقين في أموال الصدقات.

«إيذاء المنافقين للنبي ﷺ»

أسلفنا فيما تقدم أن السورة الكريمة معظمها إنما نزل في المنافقين، وهم الصنف الدخيل على الإسلام والمسلمين، فهم «الطابور الخامس» في كل زمان وحين، يثيرون الفتن، ويفككون الصف، ويشبطون العزائم عن الجهاد في سبيل الله، ويأججون نار العداوة بين صفوف المسلمين، ولا ينفكون عن الأذى لعباد الله، حتى امتد أذاهم في الزمن الأول إلى صاحب الرسالة محمد بن عبدالله، صلوات الله وسلامه عليه، وفي هؤلاء المنافقين يقول تقدست أسماؤه ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ، وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ، قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ، يُؤْمِنُ بِاللَّهِ، وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ، وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال المفسرون: كان جماعة من المنافقين، يؤذون رسول الله بالكلام فيه والطعن في رسالته، فقال بعضهم لبعض: لا تفعلوا فإننا نخاف أن يبلغه ذلك، فيوقع بنا ما نكره، فقال لهم «الجلأس بن سويد» - وكان رأساً في المنافقين - نقول ما شئنا ثم نأتيه فنقول أمامه ما يرضيه، فيصدقنا بما نقول، وإنما محمد أُذُنٌ - أي يُصَدَّقُ كل ما يسمع - فأنزل الله هذه الآية ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ قال الجوهري: يُقال رجل أُذُنٌ: إذا كان يسمع مقال كل أحد، ويقبل قول كل أحد، سُمِّيَ بالجارحة التي هي آلة السماع قال الشاعر:

قَدْ صِرْتُ أُذُنًا لِلْوُشَاةِ سَمِيعَةً يَنَالُونَ مِنْ عَرَضِي وَلَوْ شِئْتَ مَا نَالُوا

(١) انظر غرائب القرآن للنيسابوري ١١٩/١٠ والمحزر الوجيز لابن عطية ٥٤٧/٦.

ومعنى الآية الكريمة: ومن المنافقين أناسٌ يؤذون الرسول بأقوالهم وأفعالهم ويقولون: هو أذن أي يُصدّق بكل خيرٍ يسمعه، ويقبل قول كل إنسان، وقصدوا بذلك - قاتلهم الله - مذمته عليه السلام، وأنه ليس ذا ذكاء ولا بعيد غور، بل هو سليم القلب، سريع الغترار بكل ما يسمع، قال تعالى ردّاً عليهم ﴿قُلْ أَذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾ أي هو أذن خيرٍ لا أذن شرٍّ، يسمع الخير فيعمل به، ويقبل معاذيركم، ويتغافل عن جهالاتكم ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يُصدّق الله فيما يقول، ويُصدّق المؤمنين فيما يخبرونه به، لعلمه بإخلاصهم ﴿وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ أي وهو رحمة للمؤمنين، وحجة على الكافرين، ثم قال ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي والذين يعيبون رسول الله، ويقولون ما لا يليق بجنابه الشريف، لهم عذاب مؤلم موجه في الآخرة، وأبرز اسم «الرسول» ولم يأت به ضميراً ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ ولم يقل: يؤذونه، تعظيماً لشأنه عليه السلام، وجمعاً له بين الرتبتين العظيمتين: «رتبة النبوة» و«رتبة الرسالة» وأضافه إليه زيادةً في التكريم والتشريف، فصلوات ربي وسلامه على من شرفه ربه وعظمه.

«الحلف والكذب والسخرية والاستهزاء صفات المنافقين»

ثم تلتها الآيات الكريمة، تتحدث عن صورة أخرى من صور قبائح المنافقين، فلقد اتخذوا الكذب مطيّةً، يركبونها كلّمًا داهمهم الخطر، أو فضحهم سوء القول والعمل، فظهرت للناس دخائلهم، وكُشِفَتْ أسرارهم، ولا يكتفون بالكذب المفضوح، بل يحلفون معه الأيمان المغلظة ليدفعوا عنهم العتاب، ويُرَضُوا بذلك الأصحاب، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ. أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَأَنَّ لَهُ

نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا، ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿١﴾ والحلف بالله كذباً وزوراً، جريمة أخرى تنضم إلى جريمة احتراف الكذب والبهتان، لأن فيه استهانةً بعظمة الله وجلاله، وكأنه لا يبالي بعقاب الله وعذابه، أو لا يؤمن بقاء الله، فلذلك يُقدم على الحلف بالله كاذباً، لأنه إذا هان عنده اسم الله، هان عليه الحلف بالله كاذباً، وهذا ضرب من الاستهزاء بالله وآياته، حذر منه القرآن الكريم، وعدَّ فاعله مجرمًا كافرًا فقال: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ، قُلْ اسْتَهِزَّؤْا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ. وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، قُلْ أْبَالِلُكُمْ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ. لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ، إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ، نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

روى عن السُّدِّي أَنَّهُ قَالَ: «اجتمع ناس من المنافقين، فيهم جَلَّاسُ بْنُ سُوَيْدٍ» و«وَدِيعَةُ بْنُ ثَابِتٍ» و«مَخْشِيُّ بْنُ حُمَيْرٍ» وكانوا في طريقهم مع رسول الله ﷺ يسرون، وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتَحْسَبُونَ جَلَادَ بَنِي الْأَصْفَرِ - أي قتال الروم - كقتال العرب بعضهم بعضاً، والله لكأننا بأصحاب محمد مقرنين غداً بالحبال، قالوا ذلك إرجافاً وترهيباً للمؤمنين، فنزل الوحي على رسول الله بما قالوا، فقال الرسول الكريم لعمار بن ياسر: أدرك القوم فإنهم قد احترقوا، فاسألهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بل قلت كذا وكذا، فانطلق إليهم عمار فقال لهم ذلك، فأتوا رسول الله يعتذرون إليه، ويقولون: إنما كنا نخوض ونلعب، فنزلت الآية^(١).

وروي عن قتادة قال: «بينما النبي في غزوة تبوك، وركب في

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره من رواية ابن إسحاق.

المنافقين يسرون بين يديه، فقالوا: يظن هذا - يعنون محمداً ﷺ - أنه يفتح قصور الروم وحصونها؟ هيهات، هيهات، فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا، فقال: عليَّ بهؤلاء نفر، فدعاهم فقال: قلتم كذا وكذا، فحلفوا ما كنا إلا نخوض ونلعب، فأنزل الله عز وجل هذه الآيات ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، قُلْ أَبِاللَّهِ، وَآيَاتِهِ، وَرَسُولِهِ، كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ؟ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ يُعَذِّبُ طَائِفَةٌ بَأْسُهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ ففضحهم الله على رؤوس الأشهاد.

وفي بعض الروايات أن رجلاً من المنافقين قال في غزوة تبوك: ما رأيت مثل هؤلاء القراء، أرغب بطوناً - أي أوسع بطوناً - ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء من هؤلاء القوم، - يعني رسول الله وأصحابه - فقال واحد من المؤمنين، كذبت يا عدو الله وأنت منافق، ثم ذهب ليخبر رسول الله ﷺ بما قاله، فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلى الرسول ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته، فقال يا رسول الله: إنا كنا نلعب ونتحدث بحديث الركب، نقطع به عنا الطريق.. « قال ابن عمر: ورأيت عبدالله بن أبي يشتدُّ قدام رسول الله والحجارة تنكبه وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب، والنبي ﷺ يقول: «أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟ ما يلتفت إليه ولا يزيد عليه». بمثل هذا الضلال والبهتان كان المنافقون يهزؤون ويسخرون، فلا عجب أن تنزل فيهم تلك القوارع والزواجر!!

«من أخلاق المنافقين الشنيعة»

وتمضي السورة الكريمة تتحدث عن المنافقين، الذين هم شرُّ

الخليقة عند الله عز وجل، لأنهم جمعوا مع الكفر، فنون المكر والكذب والدهاء، فظاهرهم نور، وباطنهم فجور، وهم يستترون بالإسلام تستراً، لا عن إيمان واعتقاد، بل عن مكرٍ وخديعة، وهم كما قال الشاعر:

يُعْطِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ حَلَاوَةً وَيَرُوغُ فِيكَ كَمَا يَرُوغُ الثَّغْلَبُ

ولما كان خطرهم عظيماً، وضررهم جسيماً، فقد أسهب القرآن الكريم في ذكر مثالبهم، وتعداد قبائحهم، ليحذر الناس شرهم وأذاهم، وليجتنبوا ما هم عليه من النفاق والفجور، ولشد ما يعجب المرء من أحوال هؤلاء المنافقين، فإنهم على نقيض طريق المؤمنين تماماً، مفسدون، كاذبون، فاسقون، يدعون إلى القبيح، ويمنعون من فعل كل خيرٍ ومعروف، ويبخلون بالإِنفاق في سبيل الله، ضناً منهم بالمال، أن يصرفوه في غير الأهواء والشهوات، وفيهم يقول القرآن الكريم ﴿وَالْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ، بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ، وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ، نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ، إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ صفات ثلاث من أقبح ما اتصف به المنافقون والمنافقات:

الأمر الأول: أمرهم بالمنكر ونهيهم عن المعروف، على عكس صفات المؤمنين الأبرار، والمنكر: هو كل قبيح من الأقوال والأعمال، ينكره العقل، ولا يرتضيه الشرع، وأعظم ذلك وأشنعه تكذيبُ الله ورسوله، والاستهزاء بشعائر دين الله، والمعروف: هو كلُّ حسن عقلاً أو شريعاً، وأعظم ذلك الإخلاص في الإيمان، وإليه يشير قوله تعالى ﴿وَالْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾.

الأمر الثاني: الشحُّ والبخل عن الإِنفاق في سبيل الله، وتلك هي

سِمَةُ المنافقين، لأنهم لا يرجون لها ثواباً، ولا يهابون عقاباً، لعدم إيمانهم بالله، وإلى ذلك يشير قوله تعالى ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي يمسكون أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله، وقبض الأيدي كناية عن الشح والبخل، كما أن بسط الأيدي كناية عن الكرم والسخاء.

الأمر الثالث: خلاء قلوبهم من محبة الله وذكره، وطاعته وشكره، فهم قد غفلوا تماماً عن الله، ولم يعد له في نفوسهم تعظيم ولا تمجيد، وإذا استهان المرء بعظمة الله، هان عليه مخالفته وعصيان أمره، وسوّت له نفسه الأمارة بالسوء فعل الفجور والآثام، وإلى هذا يشير قوله تعالى ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ أي أغفلوا أمره، وتركوا ذكره، فجازاهم بأن جعلهم بمنزلة الشيء المنسي من رحمته وفضله، جزاءً وفاقاً، قال الحافظ ابن كثير في هذه الآية ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ أي نسوا ذكر الله تعالى، فعاملهم معاملة من نسيهم، كما قال تعالى في آية أخرى ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾^(١) أي نترككم في عذاب الجحيم، مثل نسيانكم لقاء هذا اليوم العظيم، ونعاملكم معاملة من نسيهم فلم ينظر إليهم، ولم يُشفق عليهم، وهذا الجزاء من جنس العمل، وأما الله تعالى فلا يشذ عن علمه شيء، ولا ينساه، كما قال سبحانه ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ وقال تعالى ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾.

«مصيرهم المشثوم في الآخرة»

وبعد أن ذكر تعالى أحوالهم، ذكر مصيرهم ومآلهم، وما أعدّه لهم من العذاب والنكال في دركات الجحيم فقال تقدست أسماؤه ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا، هِيَ حَسْبُهُمْ،

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ١٥٣/٢.

وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿١٠﴾ فقد سلك تعالى المنافقين مع الكفار في سلكٍ واحدٍ، لأنهم جميعاً يلتقون على حرب ومعاداة الإسلام، فكرتهم واحدة، وعقيدتهم واحدة، وهم يلتقون على هدفٍ واحدٍ، ألا وهو الكفر بآيات الله، والتكذيب لرسل الله، وإن اختلفوا في الأسماء والأشكال والصور، ومعنى قوله تعالى ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ أي نار جهنم هي كفايتهم في العقاب والعذاب، إذ ليس هناك عذابٌ يعادلها ويوازئها، ومع ذلك فقد لعنهم الله أي أبعدهم من رحمته وأهانهم، ليكون العذاب مقروناً بالإهانة والطرده والحرمان.

«ضرب الأمثال للمنافقين بالطغاة السابقين»

ثم تابعت السورة الكريمة، تضرب الأمثال لهؤلاء المنافقين، بمن سبقهم من الطغاة الفجرة المتمردين، الذين عصوا أمر الله، فدمرهم الله وأهلكهم، مع ما كان لهم من القوة في الأجسام، والبسطة في العيش، والكثرة في المال، ومع كل هذا فلم يفلتوا من عقاب الله، وفيهم يقول تقدست أسماؤه مذكراً ومنذراً ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً، وَكَثَرُوا أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً، فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ، فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ، وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا، أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ومعنى الآية الكريمة: حالكم يا معشر المنافقين كحال من سبقكم من المكذبين، وصفتكم كصفتهم، وقد كانوا أقوى منكم أجساماً، وأشد بطشاً، وأكثر أموالاً، وأوفر أولاداً، ومع ذلك لم يعجزوا الله حين أهلكهم ودمرهم، فاحذروا أن يحل بكم ما حلَّ بهم من العذاب والنكال، ومعنى قوله ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ﴾ أي تمتعوا بحظهم

ونصييهم من ملاذ الدنيا، وحُرموا من سعادة الآخرة، بسبب استغراقهم في تلك الحظوظ ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ أي استمتعتم بملاذ الدنيا وشهواتها، كما استمتع أولئك الذين سبقوكم بنصييهم منها، وخضتم في الباطل والضلال، كما خاضوا هم فيه، وقد ذكر تعالى من عاقبة أولئك الكفار، أنهم لم يحصل لهم إلا حبوط الأعمال، أما في الدنيا فبسبب الفقر، والانتقال من العز إلى الذل، ومن القوة إلى الضعف، وأما في الآخرة، فلأنهم هلكوا وبادوا، وانتقلوا من النعيم إلى الجحيم، ومن الراحة والرفاهية إلى العقاب الدائم المهيمن، فقال تقدست أسماؤه ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

«هلاك الأمم السابقة بأنواع العذاب»

وبعد أن شبه تعالى المنافقين، بالكفار المتقدمين، في تكذيبهم الرسل والأنبياء، واشتغالهم بالنعيم الزائل، وضرب لهم الأمثال بما حلَّ بهم من العذاب والنكال، أعقبه بذكر العقوبات التي نزلت بالطغاة المفسدين من الأمم السابقة، فقال تباركت أسماؤه ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ؟ قَوْمُ نُوحٍ، وَعَادٍ، وَثَمُودَ، وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ، وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ، وَالْمُؤَنَفِكَاتِ، أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ، فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

فقد ذكر تعالى من أولئك الأقوام المهلكين ست طوائف، نالوا أشد أنواع الخزي والعذاب، في هذه الحياة الدنيا، وقد سمع العرب بأخبارهم، لأن بلادهم كانت قريبة من بلادهم، وقد بقيت آثارهم مشاهدة لهم، ولهذا صَدَّرَ الله الآية الكريمة بحرف الاستفهام المفيد

للتقرير والاعتراف ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾؟ أي قد جاءكم يا معشر المنافقين، خبر الأمم السابقين، الذين كذبوا رسلهم، ماذا حلَّ بهم؟ وماذا أصابهم؟ حين عتوا عن أمر ربهم وعصوا رسله، ثم ذكرهم تعالى بالتفصيل.

فأولهم: قوم نوح وقد أهلكوا بالغرق والطوفان، الذي عمَّ الأرض كلها، ولم ينج منهم إلا من آمن بنوح عليه السلام، وركب معه في السفينة، وهم عدد محدود كما قال تعالى ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

وثانيهم: عاد قوم هود، وقد أهلكهم الله بالريح العقيم، التي وصفها لنا القرآن الكريم بقوله ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ وذلك حين كذبوا رسولهم هوداً عليه السلام، وقد كان قوم عاد ذوي أجسام ضخمة، وقوة رهبة، حتى اغتروا بما هم عليه من القوة والشدة فقالوا من أشدُّ منا قوة؟ ومع ذلك أهلكهم الله، ودمرهم عن آخرهم، كما قال جلَّ ثناؤه وتقدست أسماؤه ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَقَالُوا: مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ. فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ، لِنُنْذِقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى، وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾.

وثالث الأقوام المهلكين «ثمود» قوم نبي الله صالح عليه السلام، وقد أهلكهم الله بالصيحة المدمرة، والرجفة والزلزلة، التي قطعت قلوبهم، وأخمدت أنفاسهم، حين كذبوا صالحاً عليه السلام، وما أصابهم من الذل والهوان عند نزول العذاب، كما قال ربنا تقدست أسماؤه ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ، فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى، فَأَخَذَتْهُمْ

صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ - أي الموقع في الهوان والذل - بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ. وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٠﴾

ورابعهم: قوم إبراهيم، ورئيسهم النمرود الجبار، وقد أهلكهم الله بأيسر مخلوقاته، بالبعوض الذي أرسله عليهم، فامتصّ دماءهم، وأفسد أبدانهم، ونشر فيهم الحمى حتى ماتوا ولم يذكر القرآن الكريم نبأ هلاكهم بالتفصيل، واكتفى بذكر عذابهم ضمن الأقوام المعذبين «فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ...» الآية.

وخامسهم: أصحاب مدين «قوم شعيب» وقد أهلكهم الله بعذاب يوم الظلة، لما كذبوا نبيهم شعيباً عليه السلام، وطففوا المكيال والميزان كما قال سبحانه عنهم في سورة الشعراء ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ، إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ومعنى عذاب يوم الظلة، ما ذكره الحافظ ابن كثير عن يزيد الباهلي قال: سألت ابن عباس عن هذه الآية ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ قال: بعث الله عليهم رعدةً وحرّاً شديداً، فأخذ بأنفاسهم، فخرجوا من البيوت هرباً إلى البرية، فبعث الله عليهم سحابةً فأظلمت من الشمس، فوجدوا لها برداً ولذة، فنادى بعضهم بعضاً، حتى إذا اجتمعوا تحتها، أرسل الله عليهم ناراً، قال ابن عباس: فذلك عذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم. وقد جمع الله لهم بين الرجة - وهي الزلزلة العظيمة - كما قال سبحانه في سورة الأعراف ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ وبين عذاب يوم الظلة كما قال سبحانه ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾.

وسادس الأقوام المهلكين «المؤتفكات» وهم قوم لوط، الذين انقلبت بهم ديارهم، حتى صار عاليها سافلها، وأمطروا بحجارة من سجيل، مأخوذ من الائتفاك ومعناه في اللغة الانقلاب، كما قال سبحانه

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾ وسميت مدائنهم بذلك، لأن الله قلبها عليهم، ومن لم يمت منهم بالقلب، أصابته الحجارة التي كانت تنزل عليهم كال مطر، حتى بادوا عن بكرة أبيهم، كما أخبر تعالى عنهم في سورة هود بقوله ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ. مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.

وقد جمع القرآن الكريم ما أصاب هؤلاء الكفرة المجرمين، من العقوبات وأنواع العذاب والنكال في آية واحدة في سورة العنكبوت، حيث قال تقدست أسمائه: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُبِهِ، فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا، وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ، وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ، وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وهنا قال سبحانه ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ، فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فبين الآيتين تشابه في العقوبة ظاهر، وبيان واضح لسبب ذلك العذاب المشئوم، ألا وهو الكفر والعصيان، والتكذيب بآيات الرحمن، وفي الآية الكريمة شيء محذوف مقدّر، يدرك من السياق، فإن قوله تعالى ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي جاءتهم رسلهم بالمعجزات الواضحات، والبراهين الساطعات، التي تدل على صدقهم، فكذبوهم ولم يؤمنوا بهم، فحذف من الآية فكذبوهم لدلالة السياق عليه، ولهذا ختمها تعالى بقوله ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي بإهلاكهم ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾.

«المقارنة بين أوصاف المؤمنين والمنافقين»

ولقد تناولت الآيات السابقة الحديث عن المنافقين، وذكرت

أوصافهم القبيحة، وأفعالهم الشنيعة، من الصدّ عن دين الله، والتكذيب لرسول الله، وهم يزعمون الإسلام، ويرتكبون عظام الإجرام، في حق هذا الدين وأهله، وقد ذكر تعالى من قبائحهم اجتماعهم على حرب الإسلام، ودعوتهم إلى منكرات الأعمال، ونهيهم عن فعل المعروف والإحسان، وبخلهم عن الإنفاق في سبيل الله، وبعدها ذكر تعالى هنا صفات المؤمنين الأبرار، وما أعدّه لهم من النعيم المقيم، في دار الخلد والجنان، وذلك ليظهر الفرق بين الفريقين، ويتميّز أهل الهدى من أهل الضلال، وبضدها تميز الأشياء، فقال تقدست أسماؤه ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ، وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وقد رتب الله تعالى على ذلك الصنيع الجميل الذي صدر من المؤمنين، أكرم الجزاء والمثوبة فقال ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ثم بيّن ما أعدّه لهم في الآخرة من أنواع النعيم والرضوان فقال تباركت أسماؤه ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، خَالِدِينَ فِيهَا، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

«المؤمنون والمنافقون على طرفي نقيض»

وبالمقارنة بين صفات المنافقين والمؤمنين، نجد الأحوال متباينة، والأفعال والأعمال متناقضة تماماً، فالمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض أي هم في الشر والخبث سواء، هم صنف واحد، إنانهم كذكورهم، متشابهون في النفاق، والبعد عن التحلي بالأخلاق، كتشابه أجزاء الشيء الواحد ثم هم يدعون إلى عكس ما أمر الله ﴿يَأْمُرُونَ

بالمُنكر وينهون عن المعروف ﴿﴾ خلافاً لصفات المؤمنين تماماً، حيث وصفهم تعالى بأنهم دعاة، هداة، مرشدون فقال ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ ومعنى قوله تعالى ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي هم إخوة في الدين، يتناصرون، ويتعاضدون، ويتراحمون، فبينهم أخوة في الدين، أعظم من أخوة النسب والقرابة، رَبط الله بينها برابطة العقيدة والإيمان ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ ومن واجب هذه الأخوة التعاون والتناصر، لنصرة دين الله .

وإذا كان من صفات المنافقين: التمرد والعصيان، والشح عن الإنفاق في وجوه الخير والبر والإحسان، فإن من صفات المؤمنين الطاعة والإذعان، وبسط اليد في الإنفاق في رضى الرحمن، فهناك ذكر تعالى عن المنافقين أنهم ﴿يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ وهنا ذكر عن المؤمنين طاعتهم وسخاءهم وكرمهم فقال ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ فقد جمعوا بين حق الله، وحق العباد، وهناك ذكر من صفات المنافقين أنهم ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ أي تركوا عبادته وطاعته، فنسيهم تعالى من رحمته وثوابه، وحرّمهم من واسع فضله وإنعامه، وهنا ذكر عن المؤمنين دوام الطاعة والإنابة فقال ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهناك قال ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ وهنا قال ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

«مصير المنافقين ومصير المؤمنين»

وقد ذكر تعالى مصير المنافقين، وما أعدّه لهم من العذاب والنكال هناك، فقال تقدست أسماؤه ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ الْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا، هِيَ حَسْبُهُمْ، وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ وهنا

ذكر مآل المؤمنين المتقين، وما أعد لهم من أنواع الإكرام والتنعيم، في دار السرور والحبور فقال تباركت أسماؤه ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وشتان بين المصيرين، مصير المنافقين الفجار، ومصير المؤمنين الأبرار، فأولئك في الأغلال والسعير، وهؤلاء في جنات الخلد والنعيم، ومعنى قوله تعالى ﴿وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أي لهم مساكن وقصور، حسنة البناء، طيبة الظلال، يطيب فيها العيش، في جنات الخلد والإقامة.

قال الحسن البصري: هي قصور من اللؤلؤ، والياقوت الأحمر، والزبرجد، أعدّها الله لعباده المؤمنين^(١). وفي الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان أن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة مائة درجة، أعدّها الله للمجاهدين في سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألت الله فاسأله الفردوس، فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، ومنه تفجّر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن»^(٢).

وفي مسند الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال «قلنا يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها؟ فقال عليه الصلاة والسلام: لَبَنَةٌ ذَهَبٍ، وَلَبَنَةٌ فَضَّةٌ، وَمَلَأُهَا الْمَسْكُ - وحسبها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها يَنَعَمُ ولا يبأس، ويخلد ولا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه» وفي سنن ابن ماجة أن النبي ﷺ قال في وصف الجنة «هي نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، وخبرة

(١) انظر صفوة التفاسير ٥٤٨/١ وتفسير الكشاف ٢٨٩/٢.

(٢) الحديث أخرجه البخاري، ومسلم عن أبي هريرة، وانظر مختصر ابن كثير ١٥٥/٢.

ونعمة، في محلة عالية بهية»^(١) وأعظم من هذا النعيم كله، رؤية الباري جلّ وعلا، وإحلال رضوانه عليهم كما ختم الله هذه الآية بقوله تقدست أسماؤه ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي ورضى الله عنهم أكبر وأجل وأعظم من كل ذلك النعيم، كما وضحه الحديث النبوي الشريف فيما رواه البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون لبيك ربنا وسعديك، والخير في يدك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟! فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب وأي شيء أفضل ذلك؟ فيقول: أحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»^(٢).

اللهم ارزقنا رحمتك ورضوانك، والنظر إلى وجهك الكريم في جنات النعيم، يا رب العالمين.

«الجهاد بالسيف وباللسان»

جرت عادة القرآن الكريم - كما بينا مراراً - على أن يقرن الوعد بالوعيد، والترغيب بالترهيب، ليظلّ العبد بين الخوف والرجاء، فيجدّ ويجتهد في عمل الخيرات، والبعد عن المعاصي والمنكرات، وقد سبق الحديث في الآيات المتقدمة عن صفات المؤمنين الأبرار، وما أعده الله تعالى لهم في دار الجزاء والقرار، ثم عادت السورة لتحدث مرة أخرى عن شرح أحوال الكفار والمنافقين، وما هم عليه من الزيغ والضلال المبين، فأمرت بجهادهم وقتالهم وإغلاظ القول لهم، ثم بينت مآلهم ومصيرهم المشوم الذي

(١) وفي الحديث أنه قال لهم «ألا هل من مُشْمَرٍ إلى الجنة؟ قالوا: نعم يا رسول الله نحن المشْمُرُونَ» وانظر مختصر ابن كثير ١٥٥/٢.

(٢) أخرجه أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وانظر الدر المنثور للسيوطي.

ينتظرهم في الآخرة، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسمائه ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

والجهد ليس بالقتال فحسب، بل تارة يكون بالسيف، وتارة يكون باللسان، وتارة يكون جامعاً بينهما، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية الكريمة: جاهد الكفار بالسيف، والمنافقين باللسان، «وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ» بالجهد والقتال والإرعاب، وقال ابن مسعود: جاهدكم تارة باليد، وتارة باللسان، فمن لم يستطع فليكثر في وجهه - أي يظهر لهم العبوس والكراهية بوجهه - فمن لم يستطع فبالقلب.

وإنما جُمع المنافقون في الآية مع الكفار، لأنهم وافقوهم في الكفر والضلال، وزادوا عليهم بطرق المكر والاحتيال، فأظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، فجمعوا بين خُبثِ الباطن، وخُبثِ الظاهر، فكانوا جديرين بالمجاهدة والمناضلة، وإغلاظ القول لهم، وقد ختم الله الآية بقوله ﴿وَمَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي مسكنهم ومثواهم نار جهنم، وبئس هذا المكان مستقراً، ومصيراً يصيرون إليه في الآخرة. وإتماماً لما انطوت عليه نفوس المنافقين من الكذب والزور والبهتان، وما ألفوه من قبيح الأعمال وشنيع الفعال، جاءت السورة الكريمة تُثبت عليهم ما تلفظوا به في حقِّ الرسول والمؤمنين، من السباب والشتائم، وما عزموا عليه من الفتك والقتل، وبذلك كانوا شرَّ الخليقة عند الله وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسمائه ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ، وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ، وَهُمْ مِمَّا لَمْ يَنْأَلُوا، وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ، وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَالَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

«سبب نزول الآيات الكريمة»

روى المفسرون عن قتادة رضي الله عنه قال: نزلت الآية في عبدالله بن أبي بن سلول، وذلك أنه اقتتل رجلاً من جهني، وأنصاري - أي رجل من جهينة ورجل من الأنصار - فعلا الجهنني على الأنصاري، فقال ابن سلول للأنصار: ألا تنصرون أحاكم؟ والله ما مثَلنا ومثَل محمد إلا كما قال القائل «سَمَنْ كَلْبِكَ يَأْكُلُكَ» وقال ﴿لَيْتَن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ فسمعها رجل من المسلمين، فسعى بها إلى النبي ﷺ يخبره بما قال عدو الله ابن سلول، فأرسل إليه رسول الله يسأله، فجاء مع بعض إخوان من المنافقين، يحلف بالله ما قال من ذلك شيئاً، ففضحه الله عز وجل فأنزل فيه ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا، وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ، وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾^(١) الآية.

وروى ابن جرير الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة فقال: إنه سيأتيكم إنسان، ينظر إليكم بعيني شيطان، فإذا جاء فلا تكلموه، فلم يلبثوا أن طلع عليهم رجل أزرق العينين، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: علام تشتمني أنت وأصحابك؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا، حتى تجاوز عنهم رسول الله، فأنزل الله عز وجل ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾^(٢) أي يحلف المنافقون ما قالوا الذي بلغك يا محمد عنهم من السب والشتيمة، وهم كاذبون في ذلك ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ أي والحال أنهم قد قالوا ذلك، وأظهروا الكفر بعدما كانوا يُظهرون الإسلام، فلا تنخدع بأيمانهم.

(١) أخرجه ابن جرير الطبري، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة، (وانظر الدر المنثور، وفتح القدير).

(٢) انظر جامع البيان للطبري ١٨٧/١٠.

وأما قوله تعالى ﴿وَهُمْوَا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ فهو إرادتهم الفتك برسول الله ﷺ عند مرجعه من تبوك، فقد رُوي أن نفرًا من المنافقين عزموا على أن يغتالوا رسول الله ﷺ وكانوا بضعة عشر رجلاً، وتعاهدوا أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي إذا صعد العقبة بالليل، وكان «عمار بن ياسر» آخذاً بخطام راحلته يقودها، و«حذيفة» خلفها يسوقها، فبينما هم كذلك إذ سمع حذيفة بوق أخفاف الإبل، وبَقَعَقَةِ السلاح - أي صوت السلاح - فالتفت فإذا هم قوم مُتَلَثِّمُونَ، فقال: إليكم إليكم يا أعداء الله فهربوا فذلك قوله تعالى ﴿وَهُمْوَا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ ثم قال تعالى ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي وما أنكروا وما عابوا على الرسول، وليس له عندهم ذنب، إلا أن الله تعالى أغناهم ببركته ويمن سعادته، وهذا على حد قول الشاعر:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُوقٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ
وقد كانوا حين قدم الرسول المدينة، في ضنك من العيش، لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة، ثم نالوا كل ذلك في عهده الميمون.

«قصة المنافق ثعلبة وما نزل فيه»

ثم تتابعت السورة الكريمة تذكر جانباً آخر من قبائح المنافقين، فهم إن مُنِعُوا سَخِطُوا، وإن أُعْطُوا بَخِلُوا، ولا يكاد الإنسان يجد منهم بذلاً وسخاءً في سبيل الله، وكما نافقوا مع المؤمنين، كذلك نافقوا مع رب العالمين، يُروى أن رجلاً من المنافقين، كان يُدعى «ثعلبة» جاء إلى رسول الله عليه السلام، فقال يا رسول الله: أَدْعُ الله أن يرزقني مالاً!! فقال له النبي الكريم: ويحك يا ثعلبة، قليلٌ تؤدي شكره، خير من كثير لا تطيقه، فقال: والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله أن يرزقني مالاً،

لأعطينَ كل ذي حقِّ حقه، ولأتصدَّقنَّ في سبيل الله، فقال رسول الله: اللهم ارزق ثعلبة مالاً، فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدودُ، فضاقت عليه المدينة، فتنحَّى عنها فنزل وادياً من أوديتها حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواههما، ثم نمت وكثرت حتى ترك الجمعة والجماعة، فسأل رسولُ الله عنه فأخبروه بخبره، فقال: يا ويحَ ثعلبة، هَلْكَ ثعلبة، ثم لما بعث رسول الله ﷺ بعض أصحابه لجمع الصدقات - أي صدقات الزكاة - مروا عليه فأطلعوه على كتاب رسول الله ﷺ فقال: ما هذه إلا جزيةٌ أو أخت الجزية، انطلقوا حتى أرى رأيي، وأبى أن يدفع الزكاة فأنزل الله هذه الآيات الكريمة ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الشاكرين. فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولَّوا وهم معرضون. فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون. ألم يعلموا أن الله يعلم سرَّهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب﴾؟ وكان من آخر أمره أنه مات على النفاق، وينبغي أن نعلم أن «ثعلبة» هذا هو غير «ثعلبة بن أبي حاطب» الصحابي المشهور، وإنما هذا رجل من المنافقين يدعى ثعلبة وذلك رجل صالح من المؤمنين كما نبه عليه المفسرون.

«سخريتهم بالمؤمنين في الإنفاق»

لا نزال نتابع معكم الحديث عن مقاصد سورة التوبة، لنستجلي ما فيها من إشراقات وأنوار، ولا نزال السورة الكريمة تطالعنا بصورٍ من مخازي المنافقين، وأفعالهم وأقوالهم الشنيعة، فهم لا يكفون عن الأذى لعباد الله المؤمنين، ولا يعرفون حرمةً لمؤمن، ولا قدراً لمسلم، همُّهم السخرية والاستهزاء بأتباع النبي عليه السلام، لا يسلم أحدٌ من

شرهم، ولا يتخلص من عيبتهم ولمزهم في جميع الحالات، إن جاء أحد من المؤمنين بمالٍ وفير ليتصدق به في سبيل الله قالوا: هذا مرءٍ، وإن جاء بشيء يسير، قالوا إن الله لغنيٌّ عن صدقته، ولهذا جاءت السورة الكريمة تكشف أسرارهم، وتهتك أستارهم، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ، وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ، سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والآية - كما هي واضحة - تتحدث عن المنافقين.

«حُضُّ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى الْإِنْفَاقِ»

روى الإمام البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت آيةُ الصَّدَقَةِ كُنَّا نُحَامِلُ عَلَى ظَهْرِنَا - أي نُوَجِّرُ أَنْفُسَنَا بِالْحَمْلِ عَلَى ظَهْرِنَا لِنَتَصَدَّقَ - فجاء رجل فتصدَّق بشيء كثير، فقالوا: مرءٍ، وجاء رجل فتصدَّق بصاع، فقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا فنزلت الآية. وروى ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ خطبهم ذات يوم، وحثَّ على أن يجمعوا الصدقات، فجاءه «عبد الرحمن بن عوفٍ» بأربعة آلاف درهم، وقال يا رسول الله: كان لي ثمانية آلاف درهم، فأمسكتُ لنفسي وعيالي أربعة آلاف، وهذه الأربعة أقرضتها ربي، فقال له عليه السلام: بارك الله لك فيما أعطيتَ وفيما أمسكتَ - قال الإمام الفخر: وقد استجاب الله دعاء الرسول فيه، حتى إنه لما تُوفي ترك ثروة كبيرة، فصالحت إحدى نسائه وهي «تُمَاضِر» عن ربع الثمن، وهو حقها من الإِثْر على ثمانين ألف درهم - قال ابن عباس: وجاء «عاصمُ بن عَدِيٍّ» بمائة وَسَقٍ من تمر - قال: الجوهرى: والوسقُ: ستون صاعاً - وجاء «أبو عقيل الأنصاري» بصاعٍ من تمر، وقال يا رسول الله: آجرتُ نفسي

الليلة الماضية من رجل لإرسال الماء إلى نخيله، فأخذت صاعين من تمر، أمسكت أحدهما لعيالي، وأقرضت الآخر ربي، فأمره الرسول الكريم بوضعه في الصدقات، فغمزهم المنافقون فقالوا: ما أعطى «عبد الرحمن» و«عاصم» إلا رياءً وسُمة، وأما «أبو عقيل» وإنما جاء بصاعه ليذكر مع سائر الأكابر، وإن كان الله ورسوله لغنيين عن صاع هذا؟ فأنزل الله هذه الآية ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ، سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ومعنى الآية الكريمة: أي هؤلاء المنافقون هم الذين يعيبون المؤمنون المتطوعين في الإنفاق، أغنياء كانوا أو فقراء، فإن جاء الغني بالمال الكثير عابوه ولمزوه، واتهموه بالرياء وحب الشهرة، وإن جاء الفقير بالقليل واليسير، عابوه وسخروا منه وقالوا: ما قيمة ما قدمه وتصدق به؟ إن الله لغني عن صدقته، فالإنسان في الحالتين لا يخلص من أذاهم وسخريتهم، ولذلك توعدهم الله وندد بهم، وجازاهم على قبيح صنيعهم جزاءً وفاقاً، فقال عن المؤمنين الفقراء الذين قدّموا ما لديهم من الصدقة ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ أي يعيبون الذين لا يجدون ما يتصدقون به، إلا الشيء اليسير الذي هو بوطاقتهم ومستطاعهم، وهو القليل من النفقة، فيهزءون ويسخرون منهم، وقال عن المنافقين العائبين ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي جازاهم على سخريتهم بما يستحقونه من العذاب الأليم في دركات الجحيم، واللفظ جاء على سبيل المقابلة، لأن الجزاء من جنس العمل، فسخريته تعالى منهم، جاءت بمقابلة استهزائهم وسخريتهم بالمؤمنين، المنفقين في سبيل الله، فعاملهم تعالى معاملة من سخر منهم انتصاراً لأوليائه، ويسمى هذا في

علم البلاغة بـ «المشاكلة» وهي الاتفاق في اللفظ، مع الاختلاف في المعنى، فالسخرية منهم سَفَهٌ واستهزاء، والسخرية منه تعالى بهم عقوبة وبلاء، وكما يَدِينُ الإنسان يُدان.

«النهى عن الاستغفار للمنافقين»

ولما كان المنافقون قد قطعوا شوطاً كبيراً في الغيِّ والضلال، وتسابقوا في الصدِّ عن سبيل الله بقبیح الفعال، وشعروا بازدياد المؤمنين لهم، بعد افتضاح أمرهم بنزول آيات القرآن، أرادوا أن يُظهروا الندم والتوبة، فجاءوا إلى رسول الله ﷺ يطلبون منه أن يستغفر الله لهم، وألحوا عليه في طلب الاستغفار، وكان من خلق النبي الرحيم أنه لا يرُدُّ لسائلٍ طلباً، فوعدهم واشتغل بالاستغفار لهم، فأنزل الله عز وجل هذه الآيات البينات ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْلاً تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، إِنَّ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿ثُمَّ بَيَّنَّ تعالى السبب في عدم قبول استغفار الرسول لهم فقال ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي عدم المغفرة لهم بسبب كفرهم بالله الكفر الشنيع حيث أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وأرادوا بذلك مخادعة الله كما خدعوا المؤمنين، ولكن الله لهم بالمرصاد، لأنه لا تخفى عليه خافية.

قال الحسن البصري: كان المنافقون يأتون رسول الله ﷺ فيعتذرون إليه بمعاذير كثيرة، يقولون: والله يا محمد ما أردنا بذلك الأذى، ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾ و﴿مَا أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ فكان يقبل منهم ويستغفر لهم فنزلت الآية الكريمة ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْلاً تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ والمعنى: سواء عليك يا محمد أستغفرت لهؤلاء المنافقين أم لم تستغفر لهم، فلن يغفر الله لهم أبداً، وقوله تعالى ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً

فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿١﴾ جَارٍ مجرى المثل في كلام العرب للتكثير، كما تقول لإنسان: جئتُ إليك سبعين مرة فلم أجدك، ونصحتُ فلاناً سبعين مرة فلم يقبل، والمعنى: مهما أكثرت من الاستغفار وطلب الرحمة والتوبة لهم، فلن يغفر الله لهم مطلقاً.

روي أن «عبدالله بن أبيّ» رأس المنافقين، كان إذا خطب رسول الله عليه السلام، قام بعده وقال: هذا رسول الله، أكرمه الله وأعزه ونصره - يوهم بذلك الثناء وهو يريد السخرية والاستهزاء - فلما انكشف أمره يوم أحد، برجوعه بثلاث الجيش مع أنصاره المنافقين، أراد ذات يوم أن يقوم بعد خطبة الرسول كعادته فيتحدث - فقال له عمر: اجلس يا عدو الله فقد ظهر كفرك، ورماه الناس من كل جهة بنظر الازدراء، فخرج من المسجد ولم يُصلِّ، فلقيه رجل من قومه فقال: ما صرفك؟ فحكى له القصة، فقال: ارجع إلى رسول الله يستغفر لك، فقال: ما أبالي، استغفر لي أو لم يستغفر لي، فنزل قوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُؤُوسَهُمْ﴾ ثم مات بعد ذلك على النفاق.

«تخلف المنافقين عن الخروج لتبوك»

ثم تابعت الآيات الكريمة تكشف لنا عن أستار المنافقين، وتذكر لنا صوراً من مخازيهم وقبائحهم، وشنيع أعمالهم، فقد اتخذوا الإسلام درعاً يتقون به سخط المؤمنين، وكانوا يشبّطون عن الخروج للجهاد ولا يخرجون، ويتعلّلون بالمعاذير الواهية عند الرسول ليأذن لهم بالقعود، وكان بعضهم يوصي بعضاً بعدم الخروج إلى الجهاد، يخشون أن يعزَّ الإسلام وتعلو رايته، ويقولون لإخوانهم: الوقتُ وقتُ حرٍّ، فلا تُعرّضوا

أنفسكم للخطر والمعاطب، فأنزل الله تقدست أسماؤه فيهم هذه الآيات
 البينات ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ، وَكَرِهُوا أَنْ
 يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ، قُلْ
 نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ. فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا، وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا،
 جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

«غزوة تبوك كانت في الصيف»

قال المفسرون: إن النبي عليه السلام استنفر أصحابه لغزوة
 تبوك، وكان ذلك في وقت حرٍّ شديد، عند طيب الظلال، ونضوج الثمار،
 فاستجاب له المؤمنون، وتخلف عنه المنافقون، وقال بعضهم لبعض:
 لا تنفروا في الحرِّ فإننا نخاف عليكم الهلاك، فتباطؤوا ولم يخرجوا
 فنزلت فيهم الآيات، ومعنى المخلف: الذي تخلف عن الخروج للجهاد
 بغير عذر، وهم أتباع «أبي بن سلول» رئيس المنافقين، شُبَّهوا بالنساء
 الخوالف اللواتي جلسن في البيوت، لعدم قدرتهن على حمل السلاح
 والجهاد، ومعنى الآية الكريمة ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ
 اللَّهِ﴾ أي فرح المنافقون الذين تخلفوا عن رسول الله عليه السلام في
 «غزوة تبوك» بعودهم بعد خروج الرسول وأصحابه، مخالفةً له ﷺ حين
 مضى للمعركة وسار، وبقوا قابعين في بيوتهم لا يخرجون لجهادٍ أو قتال
 ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي وكرهوا
 الخروج إلى الجهاد، إيثاراً للراحة، وخوفاً لإتلاف النفس والمال، لما
 في قلوبهم من ظلمات الكفر والنفاق ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ أي
 قال بعضهم لبعض: لا تخرجوا إلى الجهاد في وقت الحرِّ، فقد جمعوا
 ثلاث خصالٍ من الكفر والضلال: الفرح بالعود، وكرهية الجهاد في

سبيل الله، ونهي الغير عن ذلك، قال تعالى رَدًّا عليهم، وتسفيهاً لأحلامهم ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ أي قل لهم يا محمد: نار جهنم التي تصيرون إليها بثاقلكم وتخلفكم عن الجهاد، أشدُّ حرًّا مما فررتم منه من الحر، فإن حر الشمس يزول ولا يبقى، وحرُّ جهنم دائم لا يَفْتُر، فما لكم تخافون من حرٍّ يسير، ولا تخافون من حرِّ نار السعير؟ وهل يمكن المقارنة بين حرِّ الدنيا، والخلود الأبدي في لظى الجحيم؟ فلو كنتم عقلاء لخرجتم مع الرسول في الحر، لتتقوا به حرَّ جهنم، الذي هو أضعاف نار الدنيا كلها مجتمعة، ولكنكم كما قال الشاعر: «كالمستجير من الرمضاء بالنار» وفي هذا استجهال عظيم لهم.

«ما أعدّه الله للمنافقين من العذاب والنكال»

ثم أفاض تعالى في ذكر ما أعدّه لهم من العذاب والنكال، في دار الخلد يوم القيامة فقال: ﴿فَلْيُضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وهو أمرٌ خرج عن ظاهره، إلى إرادة الخبر المحقق الذي لا يتخلف، أي: فسيضحكون قليلاً، وسيبكون كثيراً، جزاءً لهم على تخلفهم عن الجهاد، واجتراحهم لفنون المنكرات والموبقات، قال ابن عباس: الدنيا زمنها قليل، فليضحكوا فيها ما شاءوا، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله عز وجل، استأنفوا بكاءً لا ينقطع أبداً، ويروى أن المنافقين يكون في النار عمر الدنيا، لا يرقأ لهم دمع، ولا يكتحلون بنوم، وفي الحديث الصحيح (نارُ بني آدم التي يوقدونها، جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم، فقالوا: يا رسول الله، والله إن كانت لكافية - أي تكفي نار الدنيا ألا يطيقها بشرٌ، وحرارتها وافية كافية - فقال عليه السلام: فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً، كلُّها مثل حرّها)^(١).

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وفي الموطأ من حديث أبي هريرة.

«منعهم من الخروج للجهاد»

ثم حذر تعالى رسول الله ﷺ من قبول معاذير المنافقين، ونهاه أن يقبل بعد تلك الغزوة خروج أحدٍ منهم معه، فهم إن خرجوا ما زادوا المؤمنين إلا ضعفاً وتثبيطاً، فليس في خروجهم أية منفعة أو مصلحة، بل على العكس في خروجهم أنواع الفساد، فإنهم يتآمرون مع الكافرين على المؤمنين، لذلك يجب حرمانهم من شرف الجهاد في سبيل الله، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ، فَاسْتَأْذِنُوكَ لِلْخُرُوجِ، فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا، وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا، إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ والمعنى: إن ردك الله يا محمد من غزوة تبوك، إلى طائفة من المنافقين الذين تخلفوا بدون عذر، وطلبوا الخروج لغزوة أخرى، فقل لهم: لن تخرجوا معي إلى الجهاد أبداً، ولن يكون لكم شرف القتال معي لأعداء الله أبداً، لأنكم قعدتم عن الخروج أول مرة، حين لم تخرجوا إلى تبوك، فلا حاجة لنا بعد اليوم إليكم، فاقعدوا مع المتخلفين عن الغزو، من الشيوخ والنساء والصبيان.

«النهى عن الصلاة على المنافقين»

ثم جاءت السورة الكريمة تنهى النبي عن الصلاة على أحدٍ من المنافقين، فالصلاة شفاعاً واستنزال للرحمة، وهؤلاء ليسوا أهلاً للشفاعة والرحمة، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ. وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا، وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ ومعنى القيام على قبره هو

النَّهْيُ عَنْ تَشْيِيعِ جَنَازَتِهِ، أَوْ الْحُضُورَ عِنْدَ دَفْنِهِ لِلدُّعَاءِ وَالِاسْتِغْفَارِ، رَوَى
 الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ أَنَّ «عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي بَنْ سُلُوفٍ» رَأْسَ الْمُنَافِقِينَ، لَمَّا
 تُوُفِيَ جَاءَ ابْنَهُ «عَبْدَ اللَّهِ» إِلَى رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَسَأَلَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ
 قَمِيصَهُ لِيَكْفُنَ أَبَاهُ فِيهِ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَامَ
 رَسُولُ اللَّهِ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَامَ عُمَرُ فَأَخَذَ بِثُوبِ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ
 فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تُصَلِّيُ عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَاكَ رَبُّكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ؟ فَقَالَ
 رَسُولُ اللَّهِ: إِنَّمَا خَيْرَنِي اللَّهُ فَقَالَ ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْلاً تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ، إِنْ
 تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ وَسَازِيدُهُ عَلَى سَبْعِينَ، قَالَ يَا
 رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّهُ مُنَافِقٌ؟! قَالَ: فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عِزَّ
 وَجَلَ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾
 رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ، وَفِي رِوَايَةٍ لِلتِّرْمِذِيِّ (قَالَ عُمَرُ: فَعَجِبْتُ مِنْ
 جَرَأَتِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا كَانَ يَسِيرًا حَتَّى نَزَلَتْ هَاتَانِ
 الْآيَتَانِ ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ الْآيَةُ، فَمَا صَلَّيْتُ رَسُولَ
 اللَّهِ بَعْدَهُ عَلَى مُنَافِقٍ، وَلَا قَامَ عَلَى قَبْرِهِ حَتَّى قَبَضَهُ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَ، اللَّهُمَّ
 إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّقَاقِ وَالنَّفَاقِ وَسُوءِ الْأَخْلَاقِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ
 الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

«الْمُنَافِقُونَ أَجَبِنَ النَّاسَ وَأَحْرَصَهُمْ عَلَى الْحَيَاةِ»

ظَهَرَ لَنَا بِوُضُوحٍ أَنَّ مَعْظَمَ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ كَانَ يَتَنَاوَلُ فَرِيقَ
 الْمُنَافِقِينَ، الَّذِينَ اسْتَمْرَعُوا النِّفَاقَ وَاسْتَعَذَّبُوهُ، وَصَارَ طَبْعاً لَهُمْ مَلَاذِماً،
 لَا يَفَارِقُهُمْ أَبَدًا، وَهُمْ شَرُّ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، لِأَنَّهُمْ يَدْبُرُونَ الْمَكَايِدَ
 لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الْخِفَاءِ، وَيَتَظَاهَرُونَ بِالْمَحَبَّةِ وَالْإِيمَانِ، وَصُدُورُهُمْ مَمْلُوءَةٌ
 حَقْدًا وَغِيظًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَقَدْ تَحَدَّثَتِ السُّورَةُ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ عَنْ

احتياهم في التخلف عن رسول الله، والقعود عن الغزو، بحجج واهية هي أوهى من بيت العنكبوت، وجاءت الآيات هنا لتتحدث عن الدوافع التي منعتهم عن الجهاد في سبيل الله، ألا وهي ضعف الإيمان، وتسلب حب الدنيا على قلوبهم، حتى أعمى ذلك أبصارهم، فهم لا يخرجون لقتال ولا يحبون أن يلاقوا عدواً، خشية أن تفوتهم زهرة الدنيا، فيخسروا التجارة والربح الوفير، وفي ذلك يقول ربنا قدست أسماؤه ﴿وَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ، اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطُّولِ مِنْهُمْ، وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ ومعنى الآية الكريمة: وإذا أنزلت عليك يا محمد سورة جليلة الشأن، فيها الأمر بالجهاد والقتال، نصرة للحق وإعزازاً لدين الله، استأذنتك في التخلف عن الجهاد أصحاب الثروة والمال، والبسطة في الرزق، وقالوا: دعنا يا محمد نكن مع الذين لم يخرجوا للغزو، وقعدوا بسبب العذر، قال تعالى تقيحاً لهم وتشنيعاً ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ، وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ، فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي رضوا بأن يكونوا مع المتخلفين، من النساء والمرضى والعجزة، الذين قعدوا بسبب الأعذار فلم يخرجوا للقتال، ورضوا لأنفسهم بالعار، والقعود في البلد مع النساء بعد خروج الجيش؛ فإذا وقع حرب كانوا أجبن الناس، وإذا كان أمن واستقرار كانوا أكثر الناس تبجحاً وكلاماً، وذلك لأن الله ختم على قلوبهم، فهم لا يفهمون ما في الجهاد وطاعة الرسول من السعادة والفلاح، وما في التخلف عنه من التعاسة والشقاء.

«المجاهدون المخلصون وما أعدّه الله لهم»

ثم تتابعت السورة الكريمة تذكر بالشأن العاطر أولئك الشجعان الأبطال، وما أعدّه الله للمؤمنين المجاهدين، الذين قدموا الأنفس

والأموال، رخيصةً لإعزاز دين الله، فقال تقديست أسماؤه ﴿لَكِنَّ الرَّسُولُ
وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ،
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وقد أشارت الآية الكريمة إلى أنهم
بذلوا المهج والأرواح، فنالوا أعظم النعيم في جنات الفردوس، وفازوا
بجز الدنيا والآخرة، وقد رتب تعالى على إخلاصهم وجهادهم، نيل
أعلى المراتب، من الخيرات، والفوز بأعلى الدرجات، ودخول الجنات
التي تجري من تحت قصورها الأنهار العديدة، أنهار اللبن، والعسل،
والخمر، والماء السلسيل، وكل ذلك إنما هو جزاء لهم على ما بذلوا في
سبيل مرضاة الله، ثم ختمها تعالى بالخلود في الجنان وذلك هو الفوز
العظيم.

«المنافقون من أهل البادية»

وبعد أن شرح أحوال منافقي المدينة، شرع في ذكر أحوال
المنافقين في أطراف الجزيرة العربية من أهل البدو فقال تقديست أسماؤه
﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ
وَرَسُولَهُ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ومعنى الآية الكريمة ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾
أي جاء المعتذرون من الأعراب، الذين انتحلوا الأعذار وتخلفوا عن
الجهاد، ليستأذنوا الرسول في ترك الجهاد، قال البيضاوي: وهم «أسد»
و«غطفان» استأذنوا في التخلف، معتذرين بالجهد وكثرة العيال، ﴿وَقَعَدَ
الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي وقعد عن الجهاد أناس آخرون، كذبوا الله
ورسوله في دعوى الإيمان، وهم قوم لم يجاهدوا ولم يعتذروا عن

تخلفهم ، واكتفوا بإظهار دعوى الإيمان مكرراً ونفاقاً، قال تعالى في بيان عاقبة هؤلاء المنافقين ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي سيصيبهم أشد أنواع العذاب المهين في الآخرة، بسبب كفرهم وكذبهم في دعوى الإيمان، وتخلفهم عن الجهاد في سبيل الله .

«الذين لا يستطيعون الجهاد من أهل الأعذار»

ثم توالى السورة الكريمة لتضع حداً فاصلاً بين أهل الأعذار الحقيقية، وبين الكاذبين المنتحلين للأعذار بالطرق الملتوية، فاستثنى من التكليف بالجهاد الشيوخ المسنين، والمرضى العاجزين، الذين لا يستطيعون الجهاد، لعجزهم أو مرضهم، كالأعمى والأعرج، والمحموم والمبطون، وكالشخص الذي لا يجد الأهبة ولا السلاح، وهو فقير لا يملك ثمن ما يقاتل به، من راحلة أو سيف ورمح، فأسقط تعالى عنهم التكليف بالخروج للجهاد، رحمةً بهم وقبولاً لأعذارهم الشرعية، فقال تقدست أسماؤه ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى، وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ. وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أُحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ، تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا، أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ. إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ، رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ، وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

«سبب نزول الآيات»

قال المفسرون: نزلت هذه الآيات في البكائين، وهم جماعة من أصحاب النبي عليه السلام، أرادوا الغزو مع رسول الله، فجاءوا إليه

يطلبون منه أن يحملهم، ليجاهدوا مع إخوانهم المؤمنين، وكانوا فقراء لا يملكون مركباً، فقالوا يا رسول الله: قد نذرنا الحروج فاحملنا نغزو معك، فقال لهم عليه السلام: والله لا أجد ما أحملكم عليه، فتولّوا وهم ييكون، وعزّ عليهم أن يجلسوا عن الجهاد، ولا يجدون نفقةً ولا محملاً، فلما رأى الله حرصهم على الجهاد، ومحبتهم لله ولرسوله، أنزل عذرهم في كتابه العزيز فقال ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ، تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا، أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ فعاملهم تعالى بصدق نيّتهم، وأشركهم في الأجر مع المجاهدين، لأن الله سبحانه يجازي الإنسان على نيّته لا على عمله فحسب، ولهذا جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَاماً مَا قَطَعْتُمْ وادياً، وَلَا سَرْتَمَ سِيراً، إِلَّا وَهُمْ مَعَكُمْ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟ قَالَ: نَعَمْ، حَبَسَهُمُ الْعَذْرُ»^(١) وفي رواية لمسلم «مَا قَطَعْتُمْ وادياً، وَلَا سَلَكَتُمْ طَرِيقاً إِلَّا شَرَكُوكُمْ فِي الْأَجْرِ، حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ» اللهم اجعلنا ممن جاهد في سبيلك، وارزقنا إخلاص النية وحسن العمل إنك سميع مجيب الدعاء.

«اعتذارهم بالإيمان الكاذبة»

لا تزال السورة الكريمة تطالعنا في آياتها البينات، بصورٍ متنوعة، من قبائح المنافقين ومخازيهم وقد أفاضت السورة بتعديد جرائمهم، ليحذرهم المؤمنون، وينتبهوا إلى خطرهم، فهم عنصر الفساد في كل زمانٍ ومكان، وقد كشف الله عنهم الستار في هذه السورة الكريمة،

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وابن ماجه في كتاب الجهاد.

وعرّاهم أمام الأبصار، أبصار المؤمنين، وحذر رسوله من دسائسهم ومكائدهم، ونبه المؤمنين على أن تخلفهم عن الخروج مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، لم يكن بدافع من مرضٍ أو عذر صحيح، إنما هو بما استحکم من قلوبهم من الخبث، والمكر، والنفاق، ولذلك لا ينبغي أن يُسارع المؤمنون، إلى تصديقهم في تلك الأعدار التي ينتحلونها، حتى ولو أقسموا بأعظم الأيمان، فهم كذبة، فسقة، فجرة، لا يكادون يصدقون في قول، ولا ينصحون في سرٍّ أو علن، شعارهم الكذب، وديدنهم المكر والخداع، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى مذكراً ومحذراً ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ، وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ، ثُمَّ تَرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، فَيُبَيِّنُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ثم زاد تبارك وتعالى في الإيضاح والبيان، فذكر استهانتهم بجلال الله وعظمته، حيث يقدمون على الحلف بالله كذباً، دون رادع من دين، أو وازع من ضمير، وذلك ليدفعوا عتاب المؤمنين عنهم، ويتقوا غضبهم وسخطهم، حتى ولو أغضبوا الله بكذبهم، وجرأتهم على انتهاك حرمت الله، وما ذلك إلا لخبث بواطنهم، وفساد عقائدهم، يحسبون حساباً للمخلوق، أكثر مما يحسبون للخالق، ونفوسهم مملوءة بالحق والكيد، ولهذا قال تقدست أسماؤه ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ، فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ، إِنَّهُمْ رِجْسٌ، وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ، يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

ومعنى الآية الكريمة: سيحلف لكم يا معشر المؤمنين هؤلاء المنافقون، إذا رجعتم إليهم من غزوة تبوك، معتذرين لكم بالأعدار

الكاذبة، لتصفحوا عنهم وتعرضوا عن ذمهم، قال تعالى ﴿فَاعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ﴾ أي فأعرضوا عنهم إعراض مقتٍ وسخطٍ، وخلوهم وما اختاروا من الكفر والنفاق، لأنهم كالقذر والنجس، لخبث سرائرهم، وفساد بواطنهم ﴿وَمَا أَوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي مصيرهم إلى جهنم، هي مسكنهم ومأواهم، جزاء لهم على نفاقهم في الدنيا، وما اكتسبوه من الجرائم والآثام.

«الأعراب أشد الناس كفراً ونفاقاً»

وبعد هذا الإيضاح والبيان، عادت السورة لتذكر فريقاً آخر من المنافقين، هم أشدُ خبثاً ونفاقاً من منافقي المدينة، وهم المنافقون من الأعراب سكان البوادي، الذين ضمُّوا إلى النفاق السَّفه والجهل وقلة الفهم، فهم يعيشون كالأوباش، لا يعرفون معروفاً ولا يُنكرون منكراً، بل هم كالدُّواب السارحة، التي لا تعرف إلا الأكل والمرعى، وفيهم يقول ربنا تقدست أسماؤه ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا، وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والأعراب جمع أعرابي، قال أهل اللغة: يُقال: رجل عربي إذا كان منسوباً إلى العرب، وجمع العربي عربٌ، ويُقال «أعرابي» إذا كان بدوياً يطلب مساقط الغيث والكلاء، سواء كان من العرب أو من مواليهم، ويُجمع الأعرابي على الأعراب، فمن استوطن المدن العربية فهو من العرب، ومن نزل البادية فهو من الأعراب، والآية الكريمة تقول ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ ولم تقل: العرب أشدُّ كفراً ونفاقاً، لتشير إلى سكان البوادي، الذين قسا طبعهم، وساء فهمهم، وإنما كان أهل البدو أشدَّ كفراً وأعظم نفاقاً من أهل الحضرة، لجفائهم وقسوة قلوبهم، وقلة مشاهدتهم لأهل الخير

والصلاح، وبعدهم عن العلم الذي يربي النفوس ويَهْدِبُ الطباع، ومعنى قوله تعالى ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ أي هم أولى بأن لا يعلموا ما أنزل الله على رسوله من الأحكام والشرائع، ولذلك فإن نفاقهم أعظم، وجهلهم أفصح، وميلهم إلى الشر أكثر، ولهذا كانت بينهم الغارات والسلب والنهب.

قال الإمام أبو حيان في تفسيره البحر المحيط: وإنما كان الأعراب - وهم أهل البوادي - أشد كُفراً ونفاقاً، لفخرهم، وطيشهم، وتربيتهم بلا سائسٍ ولا مؤدب، فقد نشأوا كما شاءوا. وبعدهم عن مشاهدة العلماء، ومعرفة كتاب الله وسنة رسوله، فكانوا أطلقَ لساناً بالكفر من منافقي المدينة.

«قصة غريبة لبعض الوعاظ مع الأعراب»

ومن لطيف ما حدّث به المفسرون، ما رُوي عن الأعمش أن أعرابياً جلس ذات يوم في حلقة درسٍ لعالم من كبار التابعين يدعى «زيد بن صوحان» وكان يُحدّث أصحابه بما يرقُّ القلوب، وكانت يده قد أصيبت يوم «نَهَاوند» فقطعت كفّه، فقال الأعرابي لزيد رضي الله عنه: والله إن حديثك ليعجبني، وإن يدك لتُربيني - أي تُدخل الشك في قلبي أن تكون قد قطعت في سرقة - فقال له زيد: يا أعرابي ما الذي يُريبك من يدي؟ إنها الشمال، فقال الأعرابي: والله ما أدري اليمين يقطعون أم الشمال؟ فقال زيد عند ذلك صدق الله العظيم ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾.

وقال الإمام الفخر: والسبب في هذا أن أهل البدو يشبهون

الوحوش، لاستيلاء الهواء الحار اليابس عليهم، وذلك يوجب مزيد التيه والتكبر، والنخوة والفخر والطيش عليهم، وكونهم بلا سياسة سائس، ولا تأديب مؤدب.

«البخل عن الإنفاق في سبيل الله»

ثم ذكر تعالى من صفات الأعراب الذميمة، البخل عن الإنفاق في سبيل الله، وحبّ الأذى لعباد الله، وتربُّص الدوائر بالمؤمنين، فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا، وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ، عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ومعنى الآية الكريمة: أي من هؤلاء الأعراب الجهلاء، من يعدُّ ما يصرفه في سبيل الله، ويتصدق به غرامة وخسراناً، لأنه لا يُنفقه احتساباً لوجه الله وابتغاء ثوابه، وإنما ينفقه تقيّة من المسلمين ورياءً ثم قال تعالى ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ أي ينتظر بكم مصائب الدنيا ليتخلص من أعباء الإنفاق ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي عليهم إن شاء الله الهلاك والدمار، فلا يرون في محمد ودينه إلّا ما يسوءهم، وبمواجهة هؤلاء المنافقين من الأعراب، ذكر تعالى فريقاً آخر من الأعراب، نشأوا على التقى والصلاح، والإيمان بالله ورسله، والإنفاق في سبيل مرضاة الله، فهم وإن كانوا قلة، لكنهم بفضل الله مؤمنون صادقون، وقد أثني تبارك وتعالى عليهم بذلك الشئ العاطر فقال تقدست أسماؤه ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ أي يجعل ما ينفقه في سبيل الله طلباً لرضى الله ودعاء الرسول واستغفاره له، قال تعالى ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهكذا ميز الله بين الفريقين، فريق أهل الضلالة، وفريق أهل الإيمان.

«صفات المؤمنين المتقين»

وبعد أن ذكر تعالى في الآيات المتقدمة صفات المنافقين، من أهل الشقاء والضلال، ذكر تعالى بعدهم صفات المؤمنين المتقين، من المهاجرين والأنصار، والتابعين لهم بإحسان، وهم الذين نالوا أعلى المراتب، وفازوا بأسمى الدرجات، في جنات الخلد والنعيم، وبالمقارنة بين الفريقين، يظهر البون الشاسع بين أهل الهدى، وأهل الضلال، فالمنافقون في أسفل الدرجات في نار جهنم، والسابقون الأولون في أعلى الدرجات في جنات النعيم، وفيهم يقول ربنا تقدست أسمائهم ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

والسابقون الأولون هم الذين سبقوا إلى الإيمان، وسبقوا في الهجرة والنصرة، فنالوا قصب السبق دنیا وآخرة، وبسبب إيمان هؤلاء وجهادهم وصبرهم، عز الإسلام وانتصر، وارتفعت رايته، وعلت كلمته، ودخل الناس في دين الله أفواجا، ولولا جهاد أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم، وتضحيتهم وتفانيهم في الإخلاص لهذا الدين، لما كان هناك عز وانتصار لدعوة الإسلام، ولكنهم ضحوا في سبيل هذا الدين بالمهيج والأرواح، ولهذا أثنى الله تبارك وتعالى عليهم ذلك الثناء العاطر، وأكرمهم بأنواع الإكرام، من الرضوان، ودخول الجنان، والفوز العظيم بدار النعيم، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر كما قال سبحانه ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي تجري من تحت قصورها وأشجارها أنهار الجنة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي

مقيمين في الجنان من غير انتهاء، ذلك هو الفوز الذي لا فوز بعده،
والسعادة السرمدية التي لا نهاية لها.

«ثناء عاطر على المهاجرين والأنصار»

والآية عامة في كل من سبق في الهجرة والنصرة، ولا شك أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما من أول من يدخل فيها، فهما من المهاجرين، وهما من السابقين إلى الإسلام، وكذلك سائر المهاجرين والأنصار. قال الحافظ ابن كثير عند تفسير هذه الآية: «فقد أخبر الله العظيم، أنه قد رضي عن السابقين الأولين، من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان. . . فيا ويل من أبغضهم أو سبهم، أو أبغض أو سب بعضهم، ولا سيما سيّد الصحابة بعد الرسول، وخيرهم وأفضلهم، أعني الصديق الأكبر، والخليفة الأعظم «أبا بكر» رضي الله عنه، فإنّ الطائفة المخذولة من الرافضة، يعادون أفضل الصحابة، ويبغضونهم، ويسبّونهم - عياداً بالله من ذلك - وهذا يدلُّ على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن، إذ يسبّون من رضي الله عنهم، وأما أهل السنة فإنهم يترضّون عمّن رضي الله عنه، ويسبّون من سبّه الله ورسوله، ويوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وهم متّبعون لا مبتدعون، ويقتدون ولا يبتدون، وهؤلاء هم حزب الله المفلحون» انتهى كلام الحافظ ابن كثير رحمه الله^(١).

«عودة للحديث على أهل النفاق»

وبعد الحديث عن المهاجرين والأنصار، عاد الحديث عن

(١) ابن كثير ١٦٦/٢ من المختصر، وقد شدّد الرسول النكير على من سبّ الصحابة أو بعضهم فقال ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً، ما بلغ مدّ أحدكم ولا نصيفه» أخرجه الشيخان.

المنافقين الأشرار، الذين ما فتئوا يكيدون للإسلام والمسلمين، وذلك تنبيهاً على خطرهم وعظيم ضررهم، وفيهم يقول تقدست أسماؤه ﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق، لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾ ومعنى قوله تعالى «مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ» أي استمروا وثبتوا على النفاق وبرعوا فيه، ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ أي لا تعلمهم أنت يا محمد لمهارتهم في النفاق، بحيث يخفى أمرهم على كثيرين، ولكن نحن نعلمهم ونخبرك عن أحوالهم، ثم قال تعالى ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ أي سنعذبهم في الدنيا بالقتل والأسر، وعند الموت بعذاب القبر، ثم في الآخرة يُرَدُّونَ إلى أسوأ العذاب وهو نار جهنم «لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا» وهو العذاب الذي أعده الله للكفار الفجار.

«إقرار بعض المؤمنين بذنوبهم»

ثم ذكر تعالى قوماً آخرين، أقرُّوا بذنوبهم، واعترفوا بخطئهم عن التخلف مع رسول الله في غزوة تبوك، ولم يعتذروا عن تخلفهم بالمعاذير الكاذبة، وإنما شعروا بالحسرة والندم، ولهم أعمال صالحة وجهاد وتضحية، فلم يكونوا كالمنافقين الذين تخلفوا نفاقاً وشكاً، وإنما أناس مسلمون تخلفوا كسلاً وفتوراً، ثم ندموا وتابوا، وفيهم أنزل الله تقدست أسماؤه هذه الآيات البينات ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قال ابن عباس: نزلت في «أبي لُبابة» وجماعةٍ من أصحابه،

تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فلما رجع رسول الله عليه السلام من غزوته، ربطوا أنفسهم بسواري المسجد - أي أعمدة المسجد - وحلفوا ألا يحلّهم إلا رسول الله ﷺ، فلما أنزل الله هذه الآية ﴿وَأَخْرُؤْنَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أطلقهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم، وكان من آخر أمرهم أن الله عز وجل تاب عليهم وغفر لهم تلك الزلّة.

روى الإمام البخاري عن سمرة بن جندب قال قال رسول الله ﷺ: أتاني الليلة آتيان - أي في المنام - فابتعثاني، فانتهايا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب، ولبن فضة، فتلقانا رجال شطّر من خلقهم كأحسن ما أنت راء، وشطّر كأقبح ما أنت راء - أي نصف منهم في أجمل صورة وشكل، ونصف آخر في أقبح شكل - فقالا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر، فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة، قالوا لي: هذه جنة عدن، وهذا منزلك، قالوا: وأما القوم الذين كانوا شطّر منهم حسن، وشطّر منهم قبيح، فإنهم «خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً» تجاوز الله عنهم.

«قبول التوبة والدعاء للمتصدقين في سبيل الله»

ولما نزلت توبة هؤلاء، جاءوا إلى رسول الله عليه السلام بأموالهم، وقالوا يا رسول الله: هذه أموالنا. وإنما تخلفنا عنك بسببها فخذها وتصدّق بها وطهرّنا، فقال لهم عليه السلام: ما بذلك أمرت وأبى أن يأخذ من أموالهم شيئاً فنزلت الآيات البيّنات ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ،

وَسَرُّدُونَ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١﴾ ومعنى قوله تعالى ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ أي ادع الله لهم بالمغفرة، فإن صلاتك ودعاءك طمأنينة لهم ورحمة، وقد كان عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم إذا جاءه أحدٌ بزكاة ماله أو صدقته، دعا له بالمغفرة والرحمة، كما ثبت في صحيح مسلم عن عبدالله بن أبي أوفى قال: «كان النبي ﷺ إذا أتى بصدقة قوم صلى عليهم، فأثابه أبي بصدقته فقال: اللهم صل على آل أبي أوفى» ومن فضل الله وإنعامه على العبد، أن الله يتقبل صدقة العبد فيربّيها لصاحبها حتى تكون التمرة مثل جبل أحد كما جاء في الحديث الصحيح «إن الله يقبل الصدقة، ويأخذها بيمينه، فيربّيها لأحدكم كما يربّي أحدكم مُهرَه - أي فرسه - حتى إن اللقمة لتكون مثل أحد، وتصدق ذلك في كتاب الله عز وجل ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١)؟

«الحديث عن مسجد الضرار»

وبعد الحديث عن المؤمنين المذنبين، المتخلفين عن غزوة تبوك، الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ثم تاب الله عليهم، عادت الآيات تقذف بالحمم أولئك المنافقين الزائفين، الذين اتخذوا دين الله هزواً ولعباً، وساروا بقيادة الشيطان، يدبّرون المكائد، ويخططون المخططات، لبذر بذور الفتنة والنزاع بين المسلمين، وقد وصل بهم الكيد في التآمر على الإسلام، أن اتخذوا بيوت الله أوكاراً. للتخريب والتدمير، وإلقاء الفتنة بين أهل الإيمان، في المسجد الذي بنوه في

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير للصابوني ١٦٨/٢.

أطراف المدينة المنورة، والذي عُرف بـ «مَسْجِدِ الضَّرَارِ»، لأنه بُني للإضرار، فصار هذا الاسم شهرة له، وفيهم يقول ربنا تقدست أسماؤه ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا، وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ، وَلِيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا، لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾.

ومعنى الآيات الكريمة: أي ومن المنافقين جماعة بالغوا في الإفساد والإجرام، حتى ابتنوا مجمعا يدبرون فيه الشر، وسمّوه مسجدا مضارة للمؤمنين، يفرّقون بواسطته بين الجماعات الإسلامية، ليصرفوهم عن «مسجد قباء» الذي أسس على الإيمان والتقوى، ومعنى قوله تعالى ﴿وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي وترقباً وانتظاراً للمنافقين أعداء الله، الذين حاربوا رسوله، وعلى رأسهم «أبو عامر الفاسق» الذي قال للرسول ﷺ: «لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم»، وهو الذي أمرهم ببناء هذا المسجد ليكون وكراً ومعقلاً له ولأصحابه المنافقين، قال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَلِيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي وليقسمن ما أردنا ببنائه إلا الخير والإحسان، وعبادة الرحمن، والرفق بالمسكين، والتوسعة على المصلين، والله يعلم علم اليقين كذبهم في هذه الأيمان الفاجرة، ثم حذر تعالى نبيه ونهاه عن الصلاة في مسجد الضرار، وعن الاستجابة لطلبهم في قدوم الرسول للصلاة فيه - وقد حرصوا كل الحرص على أن يشهده الرسول ويصلي فيه - فقال تقدست أسماؤه ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ أي لا تُصل يا محمد أبداً في هذا المسجد، لأنه لم يُبنَ على طاعة الله، وإنما بُني ليكون معقلاً وحصناً

لأهل الضلال والنفاق، يتآمرون فيه ويكيدون للإسلام وأهله، ثم بين تعالى السبب في النهي عن الصلاة فيه فقال ﴿لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ أي لمسجد قباء الذي بُني على طاعة الله وتقواه، من أول يوم ابتدئ في بنائه، أولى وأجدر بأن تُصلي فيه من مسجد الضرار.

«الثناء على أهل مسجد قباء»

ثم أثنى تعالى على أهل هذا المسجد - مسجد قباء - فقال ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ أي في هذا المسجد رجال مؤمنون أتقياء - وهم الأنصار - يحبون أن يتطهروا من الذنوب والآثام، والله يحب المبالغين في الطهارة، ظاهراً وباطناً، حساً ومعنى . . ثم بين تعالى الفارق الكبير بين المسجدين: «مسجد التقوى» و«مسجد الضرار» وبين من قصد بعمله وجه الله، وبين من قصد به إرضاء الشيطان، فقال تقدست أسماؤه: ﴿أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ، خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ، فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ والمعنى: هل من أسس ببناء دينه على التقوى والإخلاص، كمن أسسه على الضلال والنفاق؟ فانهار به البناء وتهدم على رأسه، لأنه لم يضع له دعائم ليرتكز عليها البناء؟ وهذا تمثيل في غاية الروعة والجمال، لمن أخلص النيّة، ولمن ساء في الطويّة، فقد مثل تعالى لفريق أهل الإخلاص والإيمان، بمن بنى قصرًا مشيداً، على دعائم قوية متينة راسخة، ووضع له أساساً في غاية القوة والمتانة، فارتفع البناء، وشيد الصرح فكان راسخاً كالجبال، ومثل لأهل النفاق والضلال، بمن بنى داراً ليسكنها على طرف وادٍ

سحيق، ولم يضع له أساساً يعتمد عليه، فانهار به البناء وتهدم وهلك هو وعياله، كذلك أمر أهل النفاق حينما بنوا مسجد الضرار، انهار بهم البناء إلى قرار النار. قال المفسرون: إنهم لما بنوا مسجدهم، وافق ذلك غزوة تبوك، فأتوا رسول الله عليه السلام، فقالوا يا رسول الله: إنا بنينا مسجداً لذي العلة، والحاجة، والليلة المطيرة، والأيام الشاتية، ونحن نحب أن تصلي لنا فيه، وتدعو لنا فيه بالبركة، فقال لهم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم: إنا على جناح سفر، وحال شغل، وإذا قدمنا إن شاء الله صلينا فيه، فلما قفل من الغزوة ورجع إلى المدينة، جاءه رؤساء النفاق، وسألوه إتيان المسجد للصلاة فيه، وفاء بالوعد، فهزم رسول الله ﷺ أن يذهب معهم، ودعا بثوبه ليلبسه، فنزل عليه جبريل بهذه الآيات البينات، فدعا ﷺ بعض أصحابه فقال لهم: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله وحرّقه واهدموه، فذهبوا إليه فحرّقه وهدموه، وأمر أن يتخذ مكانه كناسة تُلقى فيه الجيف والقمامة^(١).

«قصة أبي عامر المنافق»

قال الحافظ ابن كثير: سبب نزول هذه الآيات الكريمة، أنه كان بالمدينة - قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها - رجل من الخزرج يقال له «أبو عامر الراهب» وكان قد تنصّر في الجاهلية، وقرأ علم أهل الكتاب، وله شرف في الخزرج كبير، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر - أي غلبوا المشركين - شرق اللعين «أبو عامر» بريقه، وبارز بالعداوة وظاهر بها، وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش، يمالئهم على حرب رسول الله، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب،

(١) انظر البحر المحيط، وتفسير القرطبي، وابن كثير، وفتح القدير.

وقدموا عام أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتحنهم الله عز وجل، ثم كانت العاقبة للمتقين. وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر في أحد فيما بين الصفين، فوقع في إحداهن رسول الله عليه السلام، وأصيب ذلك اليوم، فجرح وجهه، وكسرت رباعيته، وشُجَّ رأسه الشريف، وتقدم «أبو عامر» في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار، فخطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا له: لا أنعم الله بك عيناً، يا فاسقُ يا عدوَّ الله، ونالوا منه وسبوه، فرجع وهو يقول: والله قد أصاب قومي بعدي شرٌّ، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله - قبل فراره - وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يُسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله عليه السلام أن يموت بعيداً طريداً، فنالت هذه الدعوة، وذلك لما فرغ من أحد، ورأى أمر الرسول في ارتفاع وظهور، ذهب إلى «هرقل» ملك الروم، يستنصره على النبي عليه السلام، فوعده ومناه وأقام عنده، فكتب إلى جماعة من قومه من أهل النفاق والريب، يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ويغلبه، ويردُّه عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً، ويكون مَرَصِداً له إذا قدم عليهم المدينة، فشرعوا في بناء مسجدٍ مجاورٍ لمسجد قباء، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله إلى تبوك، وجاءوا الرسول فسألوه أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم، فعصمه الله، ونزلت فيه هذه الآيات». وقد ختم الله هذه الآيات البيّنات، بذلك البيان الذي يكشف الستار عن سرائر المنافقين فقال تقدست أسماؤه ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ، إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي لا يزال في قلوب أهل مسجد الضرار، شك ونفاق وارتياب، بسبب هدمه، يحسبون أنهم كانوا في بنائه محسنين، فكيف هدمه رسول الله؟ ولا يزالون في ارتياب

وغيظ إلا أن تتصدع قلوبهم فيموتوا، والله عليم بأحوال المنافقين، حكيم في تدبيره، وهكذا كانت نهاية مسجد الضرار وأهله، وكفى الله الإسلام والمسلمين شرهم وكيدهم وخُبثهم، وفضحهم إلى يوم الدين.

«بيعة رابحة مع أكرم الأكرمين»

وبعد أن انتهى الحديث عن أحوال أهل النفاق، المتخلفين عن الجهاد، المشبطين لعباد الله عنه، وما كان من أمرهم في بناء مسجد الضرار، الذي اتخذوه وكرًا ومعقلًا لحرب الإسلام، والتشكيك في دعوته، جاء الحديث عن المؤمنين المجاهدين، الذين باعوا أنفسهم لله، وقدموا الغالي والنفيس، وبذلوا المهج والأرواح، في سبيل نصرة دين الله عز وجل، وقد أثنى الله تعالى عليهم في محكم فرقانه، وذكر ما أعد له لهم في دار الخلد والنعيم، جزاءً على ما قدموه في هذه الحياة، فقال تقدست أسماؤه ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ، وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ، وَالْإِنْجِيلِ، وَالْقُرْآنِ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟ فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

والآية الكريمة جاءت في ذروة البلاغة والفصاحة، والتمثيل الرائع الذي يعجز عنه البيان، فقد شبه تعالى بذل المؤمنين لأنفس والأموال ابتغاء رضوان الله، وقتالهم لإعلاء كلمة الله، وما نالوا من كريم الجزاء على ما قدموا من تضحيات ألا وهو الجنة، شبه ذلك بصورة عقد بين متبايعين، عقد فيه بيع وشراء، وشهادة وضمنان، البائع فيه المؤمن، والمشتري فيه ربُّ العزة جل وعلا، والضمن فيه الجنة، والشهود فيه الملائكة، والضمنان فيه الكتب السماوية، والواسطة فيه محمد عليه

الصلاة والسلام، فأعظم به من عقد وثيق، ربحه مضمون، ولا يحوم حوله أبداً خسران.

قال الحسن البصري: بايعهم والله فأغلى لهم الثمن، وانظروا إلى كرم المولى جل وعلا، أنفساً هو خلقها، وأموالاً هو رزقها، ثم وهبها لهم، ثم اشتراها منهم بهذا الثمن الغالي، فإنها لصفقة رابحة، ولهذا قال سبحانه ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِّبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وقال الحسن أيضاً: اسمعوا والله بيعة رابحة، وكيفة رابحة، بايع الله بها كل مؤمن، والله ما على الأرض مؤمن إلا وقد دخل في هذه البيعة.

بهذه الروعة من السمو والبيان، والتثيل الذي يفوق التصور والخيال، جاءت الآية الكريمة لتقرر جزاء المجاهدين، الذين بذلوا أرواحهم لله، واستشهدوا في سبيله، إيماناً بوعده تعالى، وتصديقاً بما سجله لهم في كتبه المنزلة، فلا أحد أكرم من الله، ولا أحد أوفى بعهده من الله، ولنمنع النظر مرة أخرى في كتاب رب العالمين، لنرى جزاء المجاهدين ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ ثم بين السبب فقال ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ ثم ذكر تعالى الضمان فقال ﴿وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ ثم أكد العقد بأنه عقد التزام لا بد من الوفاء به ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ استفهام بمعنى النفي، أي لا أحد أوفى منه تعالى بما وعد، ولا أحد أعظم وفاءً بعهده من رب العزة جل وعلا، وختم الآية بالبشارة العظيمة بالخبر الجازم القاطع بدخول دار النعيم ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِّبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

«بيعة الأنصار ليلة العقبة»

روى المفسرون عن محمد بن كعب القرظي قال: «لما بايعت الأنصار رسول الله ﷺ ليلة العقبة، وهم سبعون نفساً، قال عبدالله بن رواحة لرسول الله عليه السلام: اشترط يا رسول الله لربك ولنفسك ما شئت، فقال: أشترطُ لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترطُ لنفسي أن تمنعوني ممَّا تمنعون منه أنفسكم وأموالكم، قالوا: فإذا فعلنا ذلك فماذا لنا؟ قال: الجنة، قالوا: ربح البيع، لا نُقِيلُ ولا نستقيل»^(١).

«أصناف السعداء أهل الجنة»

ثم ذكر تعالى أصناف السعداء، الأبرار الأطهار، الذين هم أهلُ لدخول جنات النعيم، فقال تقدست أسماؤه ﴿التَّائِبُونَ، الْعَابِدُونَ، الْحَامِدُونَ، السَّائِحُونَ، الرَّاكِعُونَ، السَّاجِدُونَ، الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذه الآية تفصيل وتوضيح لأوصاف المؤمنين الذين باعوا أنفسهم لله، فنالوا عزَّ الدنيا والآخرة، وقد ذكر تعالى من صفاتهم تسع صفات، كلُّها جليلة رفيعة:

الأولى: التوبة النصوح، وهي التوبة من الشرك، والبراءة من النفاق، وترك الفواحش والمنكرات، وإليها الإشارة بقوله تعالى ﴿التَّائِبُونَ﴾.

الثانية: العبادة الصادقة، وهي بالمحافظة على فرائض الله، قال الحسن: هم الذين عبدوا الله في السراء والضراء، وإليها الإشارة بقوله ﴿الْعَابِدُونَ﴾.

(١) تفسير غرائب القرآن للنيسابوري ٢٤/١١ والتفسير الكبير ١٦/١٩٩ وتفسير القرطبي وابن كثير.

الثالثة: الشكر على نعم الله التي لا تحصى، وذلك باللسان، والجَنان، والأركان، وإليها الإشارة بقوله تعالى ﴿الحامدون﴾.

الرابعة: السياحة في الأرض، وهي السير والذهاب في المُدن والقفار، للعة والاعتبار، وإليها الإشارة بقوله ﴿السائحون﴾.

الخامسة والسادسة: المحافظة على الصلاة، والإكثار من الركوع والسجود في الأسحار، وإليها الإشارة بقوله ﴿الراكعون الساجدون﴾. وإنما كُنِيَ تعالى عن الصلاة بالركوع والسجود، لأنه في الانحناء في الركوع تعظيم الرب المعبود، وفي السجود غاية الخضوع والذل، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد كما ورد في الحديث الصحيح.

السابعة: الأمر بالمعروف، وهو كل ما استحسنة الشرع من قول أو عمل، ويدخل فيه النصيح والإرشاد، وإليه الإشارة بقوله ﴿الأمرون بالمعروف﴾.

الثامنة: النهي عن المنكر، وهو كل ما استقبحة الشرع من قول أو عمل، ويدخل فيه الكبائر والصغائر، وإليه الإشارة بقوله ﴿والنَّاهون عن المنكر﴾.

التاسعة: الوقوف عند حدود الله، والاستمساك بما شرع الله من أحكام، وحلال وحرام، وإليه الإشارة بقوله ﴿والحافظون لحدود الله﴾.

وقد ختم الله الآية الكريمة بالبشارة بالسعادة المنشودة التي يسعى إليها كل عاقل فقال ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بشر المؤمنين يا محمد بالفوز بجنات النعيم، وحذف تعالى المبشِّر به، إشارة إلى أنه لا يدخل تحت

حصر، بل لهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولو قال مثلاً: بشرهم بالحدود العينية، أو بالبساتين والأنهار لكان اللفظ قاصراً.

«النهي عن الاستغفار للمشركين»

وبعد هذا البيان الشافي عن أحوال السعداء الأبرار، ذكر تعالى مآل الكفرة الفجار، فنهى المؤمنين عن الاستغفار لهم، أو طلب الرحمة والشفاعة، بعد أن ماتوا على الكفر والضلال، فقال تقديست أسماؤه ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

والمعنى: ما صحَّ ولا استقام عقلاً ولا شرعاً أن يطلب الرسول والمؤمنون الشفاعة والمغفرة للكفار، بعد أن وضح لهم أنهم أصحاب النار، ولا ينبغي للنبي ولا لأحدٍ من المؤمنين أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أقرباء لهم، لأن الإيمان والكفر ضدان لا يجتمعان، والمؤمن حبيبٌ لله، والكافر عدوٌّ لله فكيف يلتقيان؟ وقد روى مسلم في صحيحه في سبب نزول هذه الآية أنه «لما حضرت أبا طالب الوفاة، دخل عليه رسول الله ﷺ، وعنده «أبو جهل» و«عبدالله بن أمية» فقال: أي عمّ قل «لا إله إلا الله» كلمةً أشهد لك بها عند الله، فقال أبو جهل وابن أبي أمية يا أبا طالب: أترغبُ عن ملة عبد المطلب؟ - أي أتترك دين آبائك وأجدادك وتدخل في دين محمد؟ - فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول «لا إله إلا الله» فقال رسول

الله ﷻ: أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك، فأنزل الله عز وجل هذه الآية ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ..﴾ الآية ونزل قوله تعالى ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ..﴾ ثم ذكر تعالى السبب الذي حمل إبراهيم الخليل على الاستغفار لأبيه المشرك فقال تقدست أسماؤه ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ وكأن الآية تقول: اقتد يا محمد بإبراهيم الخليل، فإنه ما استغفر لأبيه، إلا لأن أباه آزر كان قد وعده أن يؤمن، فكان يستغفر له بناءً على ذلك الوعد، فلما تبين لإبراهيم أن أباه مُصِرٌّ على الكفر، تبرأ من أبيه وترك الاستغفار.. اللهم إنا نعوذ بك من حال أهل النار، ونسألك مغفرتك ورضوانك يا أرحم الراحمين^(١).

«الحديث عن غزوة تبوك وما فيها من غرائب»

لا تزال أحداث «غزوة تبوك» تظالنا بأخبارها العجيبة، وأحوالها المدهشة، فلقد خرج المسلمون إلى تبوك في سنة مجدية، وحرًا شديد، وعسير من الزاد، والماء، والراحلة، ولهذا تسمى هذه الغزوة بـ«غزوة العسرة» وقد حدثت للمسلمين فيها شدائد وأهوال، ونالوا المتاعب والمصاعب، من شدة الحر، وبعد الطريق، وقلة الزاد والمركب، وكثرة العدو الذي لاقوه، وبالجملية فقد كانت أصعب الغزوات وأشدّها على المسلمين، وقد ذكرها تبارك وتعالى في كتابه العزيز، وصوّرها بصورتها الواقعية، لبيان ما فيها من الشدائد والمتاعب فقال تقدست أسماؤه ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ

(١) انظر فتح القدير للشوكاني، وروح المعاني للألوسي، والمحرق الوجيز لابن عطية.

مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ.

روى الحافظ ابن كثير عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة، فقال عمر: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد - أي حر شديد - فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر البعير - يعني الجمل - فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر يا رسول الله: إن الله عز وجل قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا - يعني عودك استجابة دعائك فادع الله أن يغشنا فقد كدنا نهلك - فقال ﷺ: وتحب ذلك؟ قال: نعم، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى سالت السماء، فأهطلت ثم سكنت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر، فلم نرها جاوزت العسكر» والتعبير بقوله تعالى ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾ يوحي بالشدة والهول، والكرب العظيم الذي نال المسلمين، حتى كاد بعضهم يفتن في دينه، فيترك المعركة ويولي أذباره راجعاً إلى المدينة، ولكن الله عصمهم فصبروا، وثبتوا، واحتسبوا، ولهذا قال تعالى ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي وفقهم للثبات في الميدان، وتاب عليهم لما ندموا ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي لأنه تعالى لطيف بالمؤمنين رحيم بهم، لا يريد لهم إلا الخير والأجر، والمغفرة والمثوبة.

«المتخلفون من المؤمنين عن غزوة تبوك»

ولقد كان من المؤمنين الصالحين أناس تخلفوا عن غزوة تبوك، كسلًا وميلًا إلى نعيم الدنيا، ولم يتخلفوا عنها نفاقاً وبغياً، كما فعل كثير من المنافقين، وكان من جملة هؤلاء الذين تخلفوا من أهل الإيمان،

ثلاثة أشخاص، يشهد الجميع لهم بالتقى والصلاح، والحب لله ورسوله، وهم «كعب بن مالك» و«هلال بن أمية» و«مرارة بن الربيع» وفيهم نزل القرآن الكريم معاتباً ثم تائباً، وفيهم يقول تقدرست أسمائهم ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ، وَظَنُّوا أَنَّهُ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

«قصة الثلاثة كما في البخاري»

ولنفسح المجال لشيخ المحدثين الإمام البخاري رحمه ليحدثنا عن قصتهم، وقصة توبتهم، وما كان من أمرهم في آخر المطاف: عن عبدالله بن كعب قال «سمعتُ «كعب بن مالك» يُحدِّثُ بحديثه حين تخلف عن رسول الله في غزوة تبوك، قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قطُّ، إلَّا في غزوة تبوك، غير أنني تخلفتُ في «غزوة بدر» ولم يُعاتب أحدًا تخلف عنه، ولقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواتقنا على الإسلام، وما أحبُّ أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدرٌ أذكرُ في الناس منها، وكان من خبري حين تخلفتُ عن رسول الله ﷺ في «غزوة تبوك» أنني لم أكن قطُّ أقوى ولا أيسرُ مني حين تخلفتُ عنه في تلك الغزوة، والله ما جمعتُ قبلها راحلتين قطُّ حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله يريد غزوةً إلَّا ورى بغيرها - أي أوهم أنه يريد غيرها - حتى كانت تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً، واستقبل عدواً كثيراً، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم - أي ليستعدوا بما يلزمهم في سفرهم - فأخبرهم بوجههم الذي يريد، والمسلمون مع

رسول الله كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ - يريد بذلك الديوان - قال كعب: فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه، ما لم ينزل فيه وحى من الله عز وجل، وغزا رسول الله تلك الغزوة، حين طابت الثمار والظلال، فأنا إليها أصغر - أي أميل إليها - فتجهز رسول الله والمسلمون معه، وطفقت أغدو كي أتجهز معه، فأرجع ولم أقض شيئاً، وأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت.

فلم يزل يتمادى بي حتى استمر بالناس الجُد، فأصبح رسول الله غادياً والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً، فلم يزل ذلك بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، فهممت أن أرتحل فأدركهم، فيا ليتني فعلت، ثم لم يُقدَّر لي، فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى لي أسوة، إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق - أي مطعوناً عليه بأنه منافق - أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب بن مالك؟ فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه بُراذه والنظر في عطفه، فقال معاذ بن جبل: بش ما قلت! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله قد توجه قافلاً من تبوك، حضرني بئى - أي حضرني الحزن الشديد - فطفقت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سخطه غداً، وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، وأصبح رسول الله قادماً، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون - أي المتخلفون عن الخروج معه إلى تبوك - يعتذرون إليه ويحلفون، وكانوا بضعاً وثمانين رجلاً، فقبل منهم علانيتهم وبايعهم

واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت فلما سلّمتُ
تَبَسَّمْ تَبَسُّمُ الْمَغْضَبِ ثُمَّ قَالَ: تعال، فجئت أمشي حتى جلستُ بين
يديه، فقال لي: ما خَلَّفَكَ؟ ألم تُكُنْ قد ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟ - أي اشتريت
راحلة - قلت يا رسول الله: إني والله لو جلستُ عند غيرك من أهل
الدنيا، لرأيتُ أني سأخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيتُ جدلاً - أي
فصاحة وبراعة - ولكني والله لقد علمتُ لئن حَدَّثْتُكَ اليومَ حديثَ كَذِبٍ
ترضى به عني، ليوشكنَّ الله أن يسخطك عليّ، وإن حَدَّثْتُكَ بحديثٍ
صدقٍ تجد عليّ فيه، إني لأرجو عقي ذلك، والله ما كان لي من عذر،
والله ما كنت قطُّ أفرغ ولا أيسرَ مني حين تخلفْتُ عنك، فقال رسول
الله ﷺ: «أما هذا فقد صدّق، فقم حتى يقضي الله فيك» فقمْتُ،
فقلت: هل لقي معي هذا أحدٌ؟ قالوا: نعم لقيه معك رجلان، قالوا مثل
ما قلت وقيل لهما مثل ما قيل لك، قلت: من هما؟ قالوا «مُرارةُ بنُ
الربيع» و«هلالُ بن أمية» فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا، لي
فيهما أسوة، ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا نحن الثلاثة من بين من
تخلف عنه، فاجتنبنا الناس، حتى تنكرت لي في نفسي الأرضُ فما هي
بالأرض التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، حتى إذا مضت
أربعون من الخمسين واستلبث الوحي - أي تأخر نزول الوحي - إذا
إنسان يأتيني فيقول إن رسول الله ﷺ يأمرُك أن تعتزل امرأتك، فقلت
لامرأتي إلحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر،
وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك، فلما كمل لنا خمسون ليلة، قد ضاقت
عليّ نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ
يقول بأعلى صوته: يا كعبَ بن مالك أبشِرْ، فخررت ساجدًا وعرفت أنه
قد جاء فرج، فأذن رسول الله ﷺ الناسَ بتوبة الله علينا حين صلّينا صلاة

الفجر، وجعل الناس يتلقوني يهتفوني بالتوبة، فجئت إلى رسول الله فلما سلمت عليه قال - وهو يبرق وجهه من السرور - أبشر بخير يومٍ مرَّ عليك مذ ولدتك أمك؟ فقلت يا رسول الله: إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقةً إلى الله ورسوله، فقال ﷺ: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك، فأنزل الله عز وجل هذه الآيات ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ...﴾ إلى قوله ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ...﴾ الآية.

«عتابٌ لبعض الصحابة رضوان الله عليهم»

لا نزال نلقي الأضواء على سورة التوبة، لنستجلي ما فيها من إشرافات وأنوار، ولا نزال السورة الكريمة تطالعنا في آياتها البينات بأحداث «غزوة تبوك» وما كان فيها من عبرٍ وعظات، وأنباءٍ مثيرة تستدعي منا التدبر والتفكير، والوقوف قليلاً على مشارف تلك الغزوة المجيدة.

لقد تخلف عن الخروج مع رسول الله ﷺ كثير من المنافقين، وتخلف عنه بعض المؤمنين الصالحين المخلصين، تخلفوا عنه خلوداً إلى الراحة، وخوفاً من شدة الحر وبعد الطريق، وكان الواجب عليهم أن يهرعوا مع رسول الله عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وألاً يُؤثروا أنفسهم عن نفسه بالراحة، ويتركوه يلاقي المتاعب والشدائد، ولهذا عاتبهم الله عز وجل أشدَّ العتاب، وأمرهم أن يلازموا رسول الله في السَّفر والحَضَر، وأن يكونوا دائماً مع أهل الصدق والوفاء، والبذل والفداء، وأن يُفدوا رسول الله بالمُهَجِّ والأرواح، وأن يكابدوا معه ما يكابد من الأهوال والخطوب، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿يَا

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٤﴾ أي راقبوا الله في جميع أقوالكم وأفعالكم، وكونوا دائماً مع أهل الصدق واليقين، وأشرفهم وأعلامهم في هذا الميدان كعباً رسول الله ﷺ، فكأنه يقول: لا تفارقوه أبداً، بل لازموا صحبته، ثم أكد تعالى هذا المعنى بقوله تقدست أسماؤه ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ، وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجَرَ الْمُحْسِنِينَ. وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً، وَلَا يَقْطَعُونَ وادياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِحَظِّهَا﴾. اللَّهُ أَحْسَنُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾.

فقد أشارت الآيات الكريمة إلى أمور أربعة هامة وهي:

أولاً: ملازمة التقوى لله سبحانه في السر والعلن.

ثانياً: الانضمام في زمرة أهل الصدق وهجر أهل النفاق.

ثالثاً: إثارة الرسول وتفضيله على أنفسهم في اليسر والعسر، وملازمتهم له في البأساء والضراء.

رابعاً: تقرير الأجر لهم في كل العبادات والطاعات، وأن الثواب على قدر المشقة.

أما الأمر الأول: فقد نبهت عليه الآية الأولى، وهو أن يكون العبد متقياً لله في السر والعلن وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ والتقوى ملاك الدين كله، فمن اعتصم بالتقوى حفظ دينه، واستقام على المنهج السوي، فكان لله خاشعاً، وله مطيعاً ولحرماته مجتنباً واكتفى بذلك عن مراقبة الناس له، وخلاصة التقوى كما قال

بعض العلماء الربانيين: أن لا يراك حيث نَهَاكَ، وأن لا يفقدك حيث أمرك، والتقوى وصية الله عز وجل للأولين والآخرين ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ .﴾ وما أحسن قول القائل: وَاتَّقِ اللَّهَ فَتَقْوَى اللَّهَ مَا جَاوَرَتْ قَلْبَ امْرِئٍ إِلَّا وَصَلَ لَيْسَ مَنْ يَقْطَعُ طُرْقًا بَطَلًا إِنَّمَا مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ الْبَطْلُ

أما الأمر الثاني: فهو ملازمة أهل الصدق واليقين، ومجانبة أهل الضلال والنفاق، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ فمن انضم إلى زمرة أهل الصُّدْق اكتسب من طباعهم الحميدة، وشمالهم الفاضلة، لأن صاحب صاحب كما يقولون، وإذا أردت أن تعرف إنساناً فاسأل عمن يصاحبه، وكما قال المصطفى ﷺ (المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل)^(١) ولقد نجا كعب بن مالك وزملاؤه بسبب الصدق، وهلك المنافقون بسبب الكذب، كما مر في قصة المتخلفين عن غزوة تبوك.

«قصة الأعرابي مع النبي ﷺ»

وفي الآية دلالة على فضيلة الصدق، وكمال درجته، ومن خصائص الصدق تلك القصة العجيبة، فقد رُوي أن أعرابياً جاء إلى رسول الله عليه السلام، فقال إني أريد أن أومن بك، إلا أنني أحبُّ الخمر، والزنى، والسرقة، والكذب، والناس يقولون: إنك تُحرِّم هذه الأشياء كلها، ولا طاقة لي بتركها بأسرها، فإن قنعت مني بترك واحدٍ منها آمنتُ بك، فقبل ذلك وشرط عليه الصُّدْق وترك الكذب، ثم أسلم

(١) من تفسير غرائب القرآن للئيسابوري ٣٥/١١ والفخر الرازي ٢٢١/١٦.

الأعرابي، فلما خرج من عند رسول الله عليه السلام عرضوا عليه الخمر، فقال: إن شربتُ وسألني رسولُ الله عن شربها وكذبتُ فقد نقضتُ العهد، وإن صدقتُ أقام عليَّ الحدَّ فتركها، ثم عُرِضَ عليه الزنى فجاءه ذلك الخاطِرُ فتركه، وكذا في السرقة تفكر في عقوبتها فتركها، ثم جاء إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام، وقال له: ما أحسنَ ما فعلتُ، لما منعني عن الكذب انسَدَّتْ أبواب المعاصي كُلِّها عليَّ، وتبَّتْ عن الجميع.

أما الأمر الثالث: فهو فداؤهم للرسول عليه السلام وإشاره وتفضيله على أنفسهم وأهليهم، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾.

والمعنى: ما صحَّ ولا استقام لأصحاب النبي من أهل المدينة، ولا لمن حولهم من سكان البوادي من الأعراب، أن يتخلفوا عن الغزو مع رسول الله، ولا يترفعوا بأنفسهم عن نفسه، بأن يكرهوا له الشدائد والمكاره، ولا يكرهوها له عليه السلام، فحقه عليهم أن يفدوه بالمهج والأرواح، وأن يؤثروه على أنفسهم بالراحة وطيب المقام، فكيف يتخلفون عنه ويتركونه يقاسي الأهوال والخطوب؟ دون أن يسارعوا إلى مرافقته في تلك الغزوة؟ وقد دلت الآية على أن شأن المؤمن الصادق أن يؤثر الرسول ويقدمه على نفسه، وأن يحبه أكثر مما يحبُّ نفسه وأولاده، كيف وقد قال عليه أفضل الصلاة والتسليم «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من نفسه، ووالده، وولده، والناس أجمعين» ومعنى قوله تعالى ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي لا يصح لهم أن يرغبوا عن صحبة رسول الله بسبب صلاح أنفسهم

وراحتها، بل عليهم أن يصحبوه على البأساء والضراء، ويرضوا لأنفسهم ما يرضاه الرسول لنفسه، لأن نفسه أعزُّ نفسٍ عند الله، فإذا تعرضت - مع كرامتها - للخوض في الشدائد، وجب على سائر الأنفس ألا يرضوا بها على ما سمح بنفسه عليه الصلاة والسلام، وفي هذا النهي تهيج شديد، وتوبيخ عظيم لمن ثاقل عن الخروج مع رسول الله في غزوة تبوك.

أما الأمر الرابع: فقد رَغِبَ تعالى في الجهاد، وذكر ما فيه من الأجر والثواب، على كل أمرٍ نالهم به مشقة، صغيرة أو كبيرة، فوضَّح لهم أنهم مثابون على أنواع المتاعب وأصناف الشدائد، بل على جميع الحركات والسكنات، مدة الذهاب والإياب، وإليه الإشارة بقوله تقدست أسماؤه ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ..﴾ فذكر تعالى خمسة أشياء في هذه الآية من ألوان الشدائد والمكاره التي تنال الإنسان: أولها الظمأ وهو: شدة العطش، وثانيها النَّصَبُ وهو: الإعياء والتعب، وثالثها المخمصة وهي: المجاعة الشديدة التي يظهر بها ضمور البطن، ورابعها وطىء أراضي الكفار، وفي ذلك ذل لهم وهوان، وإغاظه لهم شديدة، وخامسها نيلهم من الأعداء بالأسر والقتل، والتشريد والهزيمة، ثم رَتَّبَ على ذلك البيان الساطع الواضح فقال ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ أي كتب لهم به الأجر والثواب عند الله، ثم زاد في البيان فقال ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ اللهم ارزقنا الإخلاص في القول والعمل، والجهاد في سبيلك لنفوز بالنعيم المقيم في دار الخلد والكرامة.

«صور من البطولات والتضحيات»

لا تزال السورة تتحدث عن المتخلفين عن رسول الله عليه السلام في غزوة تبوك، وقد نبّه تعالى المؤمنين في الآيات السابقة إلى أنه لا يصيبهم أدنى بلاءٍ أو كرب في خروجهم للجهاد في سبيل الله، إلاّ عوضهم الله عليه أعظم الأجر والثواب، وأنهم لا ينفقون أية نفقة، كانت صغيرة أو كبيرة، إلاّ كانت في ميزان حسناتهم يوم القيامة، يرونها أضعاف أضعاف ما قدّموه، لأن الله تعالى كريم وخزائنه لا تنفذ، وفي غزوة تبوك تجلت صور من البطولات، والتضحيات، والسخاء والكرم، المنقطع النظير، فقد روي أن النبي ﷺ حثّ أصحابه على البذل والإنفاق، لتجهيز جيش العسرة، فقام عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال يا رسول الله: عليّ مائة بعيرٍ بأحلاسها وأقتابها - أي مجهّزة بكامل الركاب وما يحتاج إليه الغازي - ثم حثّ الناس أيضاً فقال عثمان: عليّ مائة بعيرٍ أخرى بأحلاسها وأقتابها، ثم نزل ﷺ عن درجة المنبر، وحثّ الناس على الإنفاق، فقال عثمان: عليّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها، قال الراوي: فرأيت رسول الله ﷺ قال بيده هكذا يحركها «ما على عثمان ما عمل بعد هذا»^(١) ثم تتابع الناس في الاندفاع نحو العطاء حتى تجمّع بين يدي رسول الله ﷺ المال الكثير، وجاء بعض الصحابة بألف دينارٍ فصّبّها في حجر النبي عليه أفضل الصلاة والتسليم، وهكذا كان كل فردٍ منهم يبذل بقدر استطاعه ليشترك في أعباء غزوة تبوك، وقد سمعوا قول الله العلي الكبير ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا

(١) انظر تفصيل القصة في تفسير ابن كثير «المختصر» ١٧٨/٢.

كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ولذلك سارعوا نحو البذل والعطاء، بنفوس رضية، وهمم عليّة، فنالوا عزّ الدنيا وعزّ الآخرة.

«لا ينبغي للمؤمنين أن يخرجوا جميعاً للجهاد»

ولما نزلت آيات العتاب للمتخلفين عن غزوة تبوك، وشدّد الله النكير على أهل النفاق، قال المؤمنون والله لا نتخلف عن شيء من الغزوات مع الرسول عليه السلام ولا عن سرية، فلما قدم الرسول الكريم المدينة المنورة، وأرسل السرايا لغزو الكفار، نفر المسلمون جميعاً إلى الغزو، وتركوا الرسول عليه السلام وحده بالمدينة، فأنزل الله جلّ وعلا هذه الآية الكريمة ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً، فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ، وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

والمعنى: أنه لا يجوز للمؤمنين أن ينفروا بكلّيتهم إلى الغزو والجهاد، بحيث تخلو منهم البلاد، بل ينبغي أن يصيروا طائفتين: طائفة تنفر إلى الغزو، وطائفة تبقى في خدمة الرسول، لتتفقه في الدين، وتتعلّم الشرائع والأحكام، حتى إذا ما رجع الغزاة المجاهدون، علّمهم هؤلاء المتفقهون ما نالوه بصحبة الرسول عليه السلام، وذلك لأن الإسلام في بدء دعوته، كان محتاجاً إلى الغزو والجهاد لدفع العدوان، وقهر الأعداء، وكان أيضاً بحاجة إلى وضع الأسس التي تسير عليها الدولة الإسلامية، فكانت التكاليف تحدّث، والشرائع تنزل، وآيات الذكر الحكيم، ترسم لهم المنهج المستقيم، ليسيروا على ما شرعه لهم رب العالمين، فكان بالمسلمين حاجة إلى من يكون مقيماً بحضرة الرسول، فيتعلّم تلك الشرائع، ويحفظ تلك التكاليف، ويبلغها إلى

الغائبين، وبذلك يتم أمر الدين، وتعلو رايته، ويستقيم نظام الحياة.

ومعنى قوله سبحانه ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ أي فهلأ نفر من كل جماعة كثيرة، فئة قليلة، ليظلوا مع الرسول، وليتفقهوا في الدين، فيعرفوا الحلال من الحرام؟ ثم قال تعالى ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ أي وليخوفوا قومهم ويرشدوهم إذا رجعوا إليهم من الغزو، لعلهم يخافون معاصي الله فلا يفعلون شيئاً مما يسخط الله؟!.

«فضل التفقه في الدين»

والآية الكريمة تشير إشارة واضحة إلى فضل التفقه في الدين، حيث إن الله عز وجل أسقط فريضة الجهاد عن بعض المجاهدين، من أجل التفقه في الدين، فالفقه في دين الله، يعادل الخروج في سبيل الله، فهناك جهاد السلاح، وهناك جهاد الكلمة، وجهاد الدعوة إلى الله، ومن أجل ذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»^(١) وفي الحديث الصحيح «فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد»^(٢) ولهذا أمر القرآن الكريم أن تمكث طائفة في المدينة المنورة مع الرسول، لتتلقى عنه علوم الشريعة الغراء، وتنفقه في دين الله، حتى إذا ما عاد المجاهدون من غزوتهم، علّمهم هؤلاء ما اقتبسوه من هدي النبوة، ومن تعاليم الوحي، فكانوا جميعاً ورثة الأنبياء، كما نبهت الآية الكريمة إلى أنه ينبغي أن يكون المقصود من التفقه والتعليم، دعوة الخلق إلى الحق، وإرشادهم إلى الدين القويم، والصراط المستقيم، لأن الآية تشير على أنه تعالى أمرهم بالتفقه في

(١) الحديث رواه البخاري، ومسلم، وابن ماجه، ورواه الطبراني بأوسع من هذا.

(٢) الحديث رواه البيهقي، والدارقطني، وتمامه (ولكل شيء عماد، وعماد هذا الدين الفقه).

الدين، ليعلموا إخوانهم ويرشدوهم، ويحذروهم سخط الله وانتقامه كما قال سبحانه ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ فكلُّ من تفقَّه وتعلم لهذا الغرض الشريف، كان على المنهج القويم، والصراط المستقيم، ومن عدل عنه وطلب الدنيا بالدين، كان من الأخسرين أعمالاً ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾.

«البدء في الجهاد بالأقرب فالأقرب»

ثم تنتقل السورة الكريمة لترشد المؤمنين إلى الطريق الأصوب والأصلح في أمر قتال الأعداء، فإنَّ الواجب على الأمة أن تطهِّر مجتمعها أولاً من الأعداء، ثم تنتقل إلى ما حولها، ثم تسعى إلى تطهير الأرض من رجس الكفرة المجرمين، وتلك هي إحدى الخطط الحربية الهامة، التي أرشدنا إليها القرآن الكريم، أن يبدأ المسلمون بالأقرب فالأقرب، حتى يصلوا إلى الأبعد فالأبعد، لأن قتال الجميع دفعةً واحدة متعذر، فيبدأ بقتال العدو القريب لنا من جانبه ثم إلى من بعده، وهكذا إلى أن نقضي على الكفار، وفي ذلك ربنا تقدست أسماؤه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ، وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

والمعنى: قاتلوا يا معشر المؤمنين أعداء دينكم، الذين هم أقرب إلى دياركم، حتى تأمنوا شرهم، ثم انتقلوا إلى مَنْ بعدهم، فإن ذلك أصلح لكم وأنفع لبقاء قوتكم، والانتصار على عدوكم، ولا تقاتلوا البعيد وتركوا القريب، وليجد هؤلاء الكفار منكم قسوةً وشدة عليهم، واعلموا أن الله مع المتقين بالنصر والعون والتأييد.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله عند تفسير هذه الآية: «أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام، ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة والطائف، وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر الأحياء في دين الله أفواجا، شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم لأنهم أهل الكتاب، فبلغ تبوك، ثم رجع لأجل جهد الناس، وجذب البلاد، وضيق الحال، وذلك سنة تسع من هجرته عليه السلام، ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجة الوداع، ثم عاجلته المنية صلوات الله وسلامه عليه بعد حجته بواحد وثمانين يوماً، فاختره الله لما عنده، وقام بالأمر بعده وزيره وخليفته «أبو بكر» الصديق رضي الله عنه، فأدى عن الرسول ما حملة، ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم، عبدة الصليبان، وإلى الفرس عبدة النيران، ففتح الله ببركة سفارته البلاد، وأرغم أنف كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد، وأنفق كنوزهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ، وكان تمام الأمر على يدي وصيه من بعده وولي عهده «الفاروق» عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين، واستولى على الممالك شرقاً وغرباً، وهكذا كسا الله الإسلام حلة سابغة، وعلت كلمة الله وظهر دينه، وبلغت الملة الحنيفية من أعداء الله غاية مآربها، وكلما غلبوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم، ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار، امتثالاً لقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ صدق الله العظيم.

«نهاية النفاق والمنافقين»

وبعد أن أمرت السورة بقتال الكفرة أعداء الله، عادت لتُنقَّب عن أحوال المنافقين، وتكشف الستار عنهم مرّة أخرى، وتفضح أمرهم أمام أبصار الناس أجمعين، فهم العدو الأول، وهم العدو الأخطر، لأنهم يتزيون بزي الدين، ويلبسون جلود الضأن من اللين، يُظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ويزعمون أنهم مسلمون، قاتلهم الله أنى يؤفكون، ولما انطوت عليه نفوسهم الخبيثة من المكر، والخبث، والدهاء، ولما يحملون في صدورهم من الشحاء والبغضاء، على الإسلام وأهله، والدين وحزبه، جاءت الآيات الكريمة لتطلعنا على قبائح المنافقين ومخازيهم، ولتوضّح الصورة الناطقة عن معتقدهم الخبيث في القرآن والرسول والمؤمنين، ولتكشف الأستار عن أولئك الكفرة الفجار، وفيهم يقول ربنا تقدست أسماؤه ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ، فَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا؟﴾ يقولون ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء، إمعاناً في الكفر والضلال واستخفافاً بالقرآن ومُنزله، قال تعالى ردّاً عليهم ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

فقد حكى تعالى أنه حصل للمؤمنين بسبب نزول الآيات البينات أمران: أحدهما: ازدياد الإيمان واليقين، والثاني: الاستبشار بوعده الجبار، وما أعدّه لهم من الثواب في دار القرار، فالؤمن يزداد بنزول الآيات تصديقاً و يقيناً، وذلك لما يتجدد عنده من البراهين والأدلة، عند نزول كل سورة أو آية، فيقرّبها ويعترف بأنها حقٌّ من عند الله، فيقوى رجاءه، ويشتدُّ شوقه إلى الجنة ونعيمها ولذلك قال سبحانه ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وأما المنافقون الذين تقمّصوا ثوب الإيمان، وتظاهروا

بالصلاح وخشية الرحمن، فقد حصل لهم أمران أيضاً:

أولهما: زيادة الرجس والضلال، فقد كانوا في نفاق وشك، وضلال جهل، وسفه وتكذيب، فزادوا بنزول الآيات رجساً فوق رجسهم، وضلالاً فوق ضلالهم، وسفهاً وجهلاً فوق ما هم فيه من الرجس والضلال، وهذا معنى قوله تعالى ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي مرض النفاق والإيمان، لا مرض الجسم والبدن ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ أي زادتهم نزول الآيات نفاقاً إلى نفاقهم، وكفرأ إلى كفرهم.

الأمر الثاني: أن نزول تلك الآيات، كانت سبباً لشقائهم وتعاستهم، فإنهم لما كذبوا بها أورثتهم ظلمة في قلوبهم، وعمى في أبصارهم، حتى هلكوا وهم مصرّون على التكذيب والجحود، وهذا معنى قوله تعالى ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ وكان المفروض أن تستير بصائرهم بنور القرآن، وهُدَى الرحمن، ولكن الأمر انعكس، فأصبح القرآن الذي هو سبب الهداية، سبباً للغواية والعمية، كما قال سبحانه ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى، أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾. وقال تقدست أسماؤه ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾.

وتمعن إلى هذه المقارنة والنتيجة بين الفريقين: فريق المؤمنين المهتدين، وفريق المنافقين الضالين، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ لترى الفارق الكبير بين جند الرحمن، وجند الشيطان!! وهذه من جملة شقائهم وارتكاسهم في مهاوي الضلال.

ثم تتابع السورة الكريمة الحديث عن المنافقين الزائغين، فتصور إمعانهم في الضلالة، فهم مع كل الآيات والنذر، لا يعتبرون ولا يتعظون، وما ذلك إلا لانطماس بصائرهم، واستحواذ الشيطان عليهم، ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ والأسلوب أسلوب إنكار وتوبيخ، وتعجب للسامع من حالهم، والمعنى: أو لا يرى هؤلاء المنافقون، المستهزون بآيات الله، أننا نمتحنهم ونبتليهم بفضح سرائرهم، وكشف مخازيهم كل سنة مرة أو مرتين حين ينزل فيهم الوحي، ثم لا يرجعون عما هم فيه من النفاق والغى ولا يعتبرون؟ فما لهم لا يفقهون، وهذا نهاية التهكم بهم والازدراء.

ثم زاد تعالى في الإيضاح والبيان فقال تباركت أسماؤه وتقدس صفاته ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا، صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ والمعنى: وإذا أنزلت سورة من القرآن، فيها عيبُ المنافقين وفضيحتهم، وهم في مجلس النبي عليه الصلاة والسلام، ضجوا واشمأزوا، ونظر بعضهم إلى بعض، هل يرانا أحد من المسلمين لنصرف، فإننا لا نصبر على استماع القرآن وهو يفضحنا، ثم قاموا فانصرفوا من مجلس رسول الله اشمأزاً وكراهية، قال تعالى ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي صرف الله قلوبهم عن الهدى والإيمان، لأنهم قوم سفهاء لا يفهمون الحق ولا يتدبرون، فهم حمقى غافلون.

«الرحمة المهداة»

وبعد أن انتهى الحديث عن المنافقين، جاءت السورة لتحدث

عن سيد المرسلين، الذي بعثه الله رحمة للعالمين، وختم الله السورة الكريمة ببيان أوصاف هذا النبي العظيم، الذي أكرم الله به الإنسانية، فنقلها من ظلمات الجهل والضلال، إلى نور المعرفة والهداية ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

«أوصافه السنية ﷺ»

فقد وصفه تعالى بأوصاف زكية سنية، عظيمة جليلة، واختار له تعالى من أسمائه القدسية اسمين: «الرءوف» و«الرحيم» فقال ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ولا عجب فذلك مقام من رفع الله قدره على العالمين، وفضله على جميع الأنبياء والمرسلين. وانظر إلى هذا البدء في الآية الكريمة، حيث جاء بأسلوب التأكيد بـ«قد» و«لام القسم» ليدكرنا بالنعمة العظمى، والمنة الكبرى، ببعثة السراج المنير ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ أي والله لقد جاءكم أيها القوم وأيها العرب، رسول عظيم القدر، رفيع الشأن، ثم قال ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي من جنسكم، رسول عربي، هاشمي، قرشي، يبلغكم رسالة الله، تعرفون حسبه ونسبه، وصدقه وأمانته، ونزاهته وطهارته، ثم قال تعالى ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي صعب وشاق عليه ما يوقعكم في المشقة والعناء، ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي حريص على هدايتكم، ووصول النفع إليكم ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي هو عليه السلام شديد الرأفة والرحمة بالمؤمنين، لا يريد لهم إلا كل إحسان وجميل، قال ابن عباس: لم يجمع الله بين اسمين من أسمائه إلا له عليه السلام!

«مثله ﷺ مع أمته»

وقد مثل عليه الصلاة والسلام له مع أمته، بهذا المثل الجميل الرائع، الذي يدل على عظيم الشفقة والرحمة لهم فقال: «مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً، فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها، وهو يذبهن عنها - أي يطردهن عن الوقوع في النار - وأنا آخذ بحُجَزكم عن النار - أي ممسك بكم من معقد الزنار وسط البطن - وأنتم تفلتون من يدي» «رواه مسلم».

وأخرج الإمام أحمد في المسند عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أتاه ملكان فيما يرى النائم، فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجله، فقال الذي عند رجله للذي عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أمته، فقال: إن مثله ومثل أمته، كمثل قوم سفر، انتهوا إلى رأس مفازة - أي صحراء - ولم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة، ولا ما يرجعون به، فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حلة حبرة - أي في بردة حمراء - فقال: رأيتم إن وردت بكم رياضاً معشبة، وحياضاً رؤاءً تتبعوني؟ فقالوا: نعم، فانطلق بهم فأوردتهم رياضاً معشبة، وحياضاً رؤاءً، فأكلوا، وشربوا، وسمنوا، فقال لهم: ألم ألقكم على تلك الحال فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً أن تتبعوني؟ فقالوا: بلى، فقال: فإن بين أيديكم رياضاً هي أعشب من هذه، وحياضاً هي أروى من هذه فاتبعوني، فقالت طائفة: صدق لتتبعنّه، وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه^(١) وهكذا شأن الرسول مع أمته يدلهم على ما هو أسعد وأحسن وأنفع، ويخرجهم من الضلال إلى الهدى.

(١) انظر مسند الإمام أحمد، ومختصر تفسير ابن كثير.

وقد ختم الله السورة الكريمة بالبراءة من أهل الكفر والضلال،
والثقة بنصر الله وكفايته فقال سبحانه ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ وهكذا يتم التناسق
البديع بين مطلع السورة وختمها الرائع.

* * *

سُورَةُ يُونُسَ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّانَهَا مِائَةٌ وَتِسْعٌ عَشْرَةٌ آيَةٌ

«الأهداف الأساسية لسورة يونس»

● سورة يونس من السور المكية، التي تعنى بأصول العقيدة الإسلامية، من الإيمان بالله خالق الأكوان، ومبدع الإنسان، والإيمان باليوم الآخر، وبالكتب والرسل، وسائر أركان الإيمان، وهذه السورة تتميز بطابع التوجيه إلى الإيمان بالرسالات السماوية، وبوجه أخص إلى «القرآن العظيم» خاتمة الكتب المنزلة، والمعجزة الخالدة لمحمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، الباقية على مدى العصور والدهور.

● تحدثت السورة الكريمة في البدء عن الرسالة والرسول، وبيّنت أن هذه سنة الله في الأولين والآخرين، فما من أمة خلت إلا بعث الله إليها رسولاً، فلا داعي للمشركين للإنكار أو التعجب من بعثة خاتم المرسلين ﴿آلر. تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ. أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ، قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾.

● ثم تلتها الآيات الكريمة وهي تكشف الستار عن بيان حقيقة «الربوبية» و«الألوهية» و«العبودية» وأساس الصلة بين الخالق والمخلوق، والعابد والمعبود، وعرفت الناس بالإله الحق، الذي ينبغي

أن يعبدوه، وأن يُسلموا وجوههم إليه، فهو وحده الخالقُ الرازق، المحيي المميت، المعزُّ المذلُّ، المدبِّرُ الحكيم، وكل ما سوى الله فباطلٌ وهباءٌ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ، مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ، ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ؟ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً، وَعَدَ اللَّهُ حَقّاً، إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

● وتناولت السورة الكريمة موقف المشركين المعاندين من الرسالة والقرآن، فنبهت إلى أن هذا القرآن العظيم هو المعجزة الخالدة، الدالة على صدق النبي الأمي، وأنه يحمل برهانه الساطع، ودليله القاطع، على صدق النبي الأمي، الذي جاءهم بهذا الكتاب الخالد، الذي سيظل يحمل برهانه في تفردهِ وإعجازه، على أنه منزل من عند الله العلي الكبير، وقد تحداهم على أن يأتوا بسورةٍ واحدة من مثله، فعجزوا وانقطعوا، مع أنهم أساطين الفصاحة، وملوك البيان ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ، وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ، وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ. وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ الآيات.

● وانتقلت السورة لتعريف الناس بصفات الإله الحق، بذكر آثار قدرته ورحمته، وعظمته وجلاله، الدالة على التدبير الحكيم، ولفتت الأنظار إلى ما في هذا الكون المشاهد من آثار القدرة الباهرة، والدلائل الساطعة، التي ينبغي ألا يغفل عنها الناس، لأنها تشير إلى وجود الله

ووجدانيته، وهي من أوضح البراهين على عظمته وجلاله وسلطانه ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ، إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ. هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ الآيات.

● وتحدثت السورة عن قصص الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فذكرت بالإجمال قصة «نوح» عليه السلام مع قومه المكذبين، وقصة نبي الله «موسى» عليه السلام مع فرعون الجبار، وقصة النبي الكريم «يونس» عليه السلام مع قومه، وما كان من أمرهم بعد أن يئس من صلاحهم، ثم توبة الله عليهم بعد أن فارقههم مغاضباً لهم، والذي سميت السورة باسمه تخليداً لذكراه، وكل هذه القصص لبيان سنة الله الكونية في نصره المؤمنين، وإهلاك الظالمين ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ، فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ.﴾ إلى قوله سبحانه ﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ، وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ، وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾.

● وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول عليه الصلاة والسلام بالاستمساك بشريعة الله، ودينه القويم، والصبر على ما يلقي من الأذى في سبيل تبليغ دعوة ربه، فإن العاقبة للمتقين ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ. وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ صدق الله العظيم.

«الحروف المقطعة في أوائل السور للتنبيه على إعجاز القرآن»

ولنبداً الآن بتفصيل ما أجملته السورة الكريمة، وما فيها من الإشعاعات النورانية، والفيوضات القدسية، سائلين المولى العلي القدير، أن يفتح علينا فتوح العارفين، لندرك بعض أسرار هذا الكتاب المبين.

يقول تقدست أسماؤه ﴿آلر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ أي هذه آيات القرآن المحكم المبين، الذي لا يدخله شك، ولا يعتريه كذب ولا تناقض، وبدء السورة بالحروف المقطعة «آلر» للإشارة والتنبيه على أن هذا الكلام المعجز البليغ، مكوّن من جنس الأحرف التي يتكون منها كلام العرب، فمن هذه الحروف وأمثالها تتألف آيات الكتاب العزيز، الذي أحكمت آياته، وسطعت دلائله وبيّناته، فإذا عجزوا عن الإتيان بمثله، فذلك أعظم برهان على إعجاز القرآن، يقول العلامة ابن كثير رحمه الله: «إنما ذكرت هذه الحروف المقطعة في أوائل السور، بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، مع أنه مركب من هذه الحروف التي يتخاطبون بها، وهو قول جمع من المحققين، وإليه ذهب الإمام ابن تيمية».

«موقف المشركين من بعثة سيد المرسلين»

ثم تلتها الآيات تذكر موقف المشركين المعاندين، من بعثة سيد المرسلين، فقد استبعدوا أن يكون محمد ﷺ رسولاً، وتعجبوا أن يختار الله رجلاً من الناس يرسله إليهم مع قدرته على بعثة الملائكين المقربين، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لما بعث الله تعالى

محمداً ﷺ أنكرت الكفار، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، أما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبي طالب؟» فأنزل الله تعالى ﴿أَكَاَنَّ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ، قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ .

«دلائل القدرة والوحدانية منبهة في الكون»

ثم ذكر تعالى من دلائل وحدانيته، وعظمته، وسلطانه، ومن دلائل القدرة الباهرة، والإبداع في الخلق والتكوين، خلقه للسموات والأرض، وعلوه على عرشه، وتدبيره لشؤون العالم، فقال تقدست أسماؤه ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ، ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ واستواؤه تعالى على العرش حقيقة لا نعلم كيفيتها، فهو سبحانه قد علا على عرشه علواً يليق بجلاله، من غير تكيف ولا تشبيه، ولا تجسيم ولا تعطيل قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح، وهو إمرارها كما جاءت، من غير تشبيه ولا تعطيل، والمتبادر إلى أذهان المشبهين منفيٌّ عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة، والأخبار الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلال الله، فقد سلك سبيل الهدى» انتهى كلام الحافظ ابن كثير.

«امتنان الخالق على عباده بما أوجد وأبدع»

وبعد أن ذكر تعالى دلائل القدرة والوحدانية في خلقه للسموات

والأرض، وتديره لشؤون الخلق، واستوائه على عرشه، وأمر الناس بعبادته وتوحيده، ذكر تعالى بعدها رحمته ورأفته بعباده، وامتنانه عليهم بخلق الشمس والقمر، وتسخيرهما للناس بما يحقق مصالحهم، فوق سطح هذا الكوكب الأرضي، الذي يعيشون عليه، ولولا الشمس والقمر لما أمكن العيش، ولا كان زرع أو نبات، ولا إنسان أو حيوان، ولكنه تعالى بقدرته وحكمته، نظم العلاقة بين الأفلاك العلوية، والمخلوقات السفلية، وربط بين أجزاء الكون المعمور، برباطٍ محكم متقن، وذكرنا بتلك المنافع، التي أوجدها من أجلنا فقال تقدست أسماؤه ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا، وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ، لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ، مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ، يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾.

«كل ما في الكون لمصالح العباد»

والمعنى الذي نبهت إليه الآيات الكريمة، أنه تعالى هو وحده الخالق المبدع، المدبر لشؤون العالم، فهو تعالى بقدرته جعل الشمس مضيئة ساطعة بالنهار، كالسراج الوهاج، وجعل القمر منيراً بالليل، وقدر سيره في منازل معروفة وهي البروج، وكلُّ هذا التدبير لمصالح الخلق، ليعرف الناس حساب الأيام والأعوام، فبالشمس تعرف الأيام، وبالقمر تعرف الشهور والأعوام، وبذلك تتحقق الحكمة من خلق هذين النيرين.

ولننظر إلى تفريق القرآن الدقيق في التعبير بين الشمس والقمر، فمن المعلوم أن القمر جرم مظلم وإنما يستمد نوره من الشمس، والشمس هي السراج الوهاج، والقبس المضيء بنفسه، ولا تكتسب

نورها من غيرها، وتلك حقيقة اكتشفها علماء الفلك، وكانت الفكرة السائدة عند القدامى، أن القمر كوكب مضيء من نفسه، إلا أن ضياءه أقل من ضياء الشمس، وهذه فكرة خاطئة، لذلك نجد القرآن العظيم يلفت أنظارنا، ويوجّه انتباهنا إلى أن الشمس هي مصدر الحرارة، والإشعاع، والضياء الساطع، وأن القمر ليس بمنزلتها بل هو يستمد نوره من انعكاس ضوءها عليه فيقول سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً﴾ أي ذات ضياء وإشعاع وهّاج ﴿وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ أي وجعل القمر منيراً يستمد نوره من غيره، فسبحان من فارق بينهما في التعبير، كما فارق بينهما في الخلق والتصوير.

«طغيان أهل مكة»

ثم تلتها الآيات الكريمة، تذكر موقف المكذبين الطاغين، المنكرين للقاء الله، المكذبين بالبعث والنشور، بعد أن رأوا الآيات والعبر، وشاهدوا الدلائل النيّرة والبراهين الساطعة، التي تدل على وجود المدبّر الحكيم، ثم جحدوا وعاندوا، وكذبوا واستهزءوا، وبيّنت مصيرهم المشئوم، ألا وهو الخلود في نار جهنم، وفيهم يقول تقدست أسماؤه ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا، وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا، وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ. أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

ومعنى ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي لا يتوقعون لقاء الله أصلاً، ولا يخطر على بالهم، لأنهم لا يؤمنون بالمعاد، فهم ذاهلون عن طلب اللذات الحقيقية، فارغون عن التوجه نحو السعادات الباقية، فقد أعمتهم الشهوات، عن التصديق بما سيكون بعد الممات، وفي قوله

سبحانه ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا﴾ ما يوحى بتمام الغفلة، واستحكام عمى القلب، إذ آثروا الخسيس على النفيس، وفرحوا بزهرة الحياة الدنيا، وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل، كما قال سبحانه ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

«حال السعداء الأبرار»

وبعد أن ذكر تعالى حال الأشقياء الفجار، أردفه بذكر حال السعداء الأبرار، فقال تقდست أسماؤه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ. دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ، وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ، وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ركنان أساسيان للفوز بالسعادة الأبدية: أولهما الإيمان الصادق، وثانيهما العمل الصالح مع الإخلاص لله وحسن النية، ونلاحظ أن القرآن الكريم يقرن دائماً بين الإيمان والعمل الصالح «آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» فلا يكفي إيمان بلا عمل، ولا يغني عمل بلا إيمان، بل لا بدّ منهما جميعاً حتى يسعد الإنسان وينال مبتغاه، وقد قررت الآية الكريمة النتيجة التي سيلقاها المؤمن على إيمانه وعمله، ألا وهي الهداية المحققة للسعادة، الموصلة إلى الفوز بالرضوان في جنات النعيم، ولهذا قال سبحانه ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ أي يهديهم بسبب إيمانهم إلى طريق الجنة، ثم زاد في البيان والتكريم فقال ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أي تجري من تحت قصورهم، ومن تحت أسرّتهم أنهار الجنة: أنهار اللبن، والعسل، والخمر، وأنهار الماء السلسيل، ولهم مع هذا النعيم الدائم، أنواع العزّ والتكريم، حيث

تُحْيِيهِم الملائكة في الصباح والأصيل، وليس لهم عمل في الجنة إلاَّ التسبيحُ والتحميد، دون عناء أو مشقة، فقد ورد في الحديث الصحيح أنهم «يُلهمون التسبيح والتحميد كما تُلهمون النفس» أي كما يتنفس الإنسان ويشعر باللذة والراحة، دون تعب أو ملل كذلك أهل الجنة يلهمون التسبيح ولهذا قال تعالى عنهم ﴿دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ أي كلامهم في الجنة تسبيحُ الله وتقديسه ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ أي وتحية بعضهم لبعض «سلام عليكم» كما تحييم بذلك ملائكة الرحمن، حيث يُسلمون عليهم تأنيساً وتكريماً كما قال سبحانه ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ بما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿وآخر دعاء أهل الجنة، حمدُ الرب الجليل على ما أفاض عليهم من صنوف النعم في دار الخلد والبقاء﴾ ﴿وآخرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

«طبيعة البشر الملل والضجر»

ثم تلتها الآيات الكريمة، وهي تتحدث عن طبيعة البشر، فهم يميلون دوماً وأبداً إلى الضجر، لا يشكرون في السراء، ولا يصبرون عند الضراء، وكثيراً ما يغضب الوالد على ولده، فيدعو عليه بالهلاك والموت، ولو استجيب دعاؤه في الشر كما يستجاب له في الخير، لهلك البشر، ولكنه تعالى رحيم، حلیم، ودود، لا يعجل للناس البلاء كما يعجل لهم في أمور الخير والصلاح، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ، لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ، فَنَذَرَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

والمعنى: لو عجل الله إجابة دعاء الناس في الشر، وفيما عليهم

فيه مضرة، كما يعجل لهم في الخير بالإجابة إذا دعوه به، لهلكوا وعجل لهم الموت، قال مجاهد: «هو دعاء الرجل على نفسه أو ولده إذا غضب عليه، يقول: اللهم أهلكه، اللهم لا تبارك فيه» فلو استجاب الله دعاءه فيه فأماته وأهلكه، لبقى الإنسان طيلة عمره في حسرة، ولذلك لا يستجيب الله الدعاء لهذا المتسرع رحمة به، كما لا يهلك الكافر شفقة عليه لعله يتوب أو يرجع، ولهذا ختم الله الآية بقوله ﴿فَنَذِرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي فترك المجرمين ونمهلهم، ونفيض عليهم النعم مع طغيانهم لتلزمهم الحجة.. ثم حكى تعالى طرفاً آخر من طغيان الإنسان، ألا وهو الأشر والبطر، بعد أن يرفع الله عنه أنواع الضرر والخطر فقال سبحانه ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ، مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ، كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ والمعنى: وإذا أصاب الإنسان الضر من مرض أو بلاء أو مصيبة، دعا ربه في جميع الحالات - مضطجعا وقاعداً أو قائماً - لكشف ذلك الضر عنه، فإذا كشف الله عنه الضر والبلاء، نسي ربه كما نسي كربه، كذلك حال الكافرين الغافلين.

«وعيدٌ رهيب للمكذبين»

وبعد أن أفاضت السورة في ذكر مثالب المشركين وقباحهم، وتحدثت عن كفران الإنسان لنعم الباري جل وعلا، جاءت الآيات بعدها لتبين ما أحل الله بالقرون الماضية من عاجل العقوبة، وما نزل بهم من الهلاك والدمار، لما كذبوا رسلهم وتمادوا في الغي والضلال، ولم يؤمنوا بما جاءتهم به الرسل من المعجزات الباهرات، وفي ضمن هذا الإخبار وعيدٌ شديد لأهل مكة، الذين كذبوا سيد الخلق

محمداً ﷺ، ليكفوا عن عتوهم وضلالهم، قبل أن يحل بهم ما حلّ بالأمم السابقة، فإن سنة الله عز وجل أن يمهل ولا يهمل، حتى إذا أخذ الظالم، أخذه أخذ عزيز مقتدر، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا، وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي جاءتهم بالدلائل الساطعة والمعجزات الباهرة التي تدل على صدقهم، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا، كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي ومع كل تلك البراهين والحجج ما آمنوا بهم، فكان سبب إهلاكهم أمران: عدم الإيمان، والظلم والعدوان وقوله تعالى ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي ومثل ذلك الجزاء - وهو الاستئصال الكلي لشافة الإجماع - نجزي كل مجرم، مكذب لله ورسله، لا يؤمن بيوم الحساب.

«استخلاف أهل مكة في الأرض»

ثم ذكرهم تعالى باستخلافهم في الأرض، بعد أولئك الأقوام المهلكين، ليتعظوا ويرتدعوا، ويعلموا أن الله لهم بالمرصاد فقال تقدست أسماؤه ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ، لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي ثم استخلفناكم في الأرض يا أهل مكة، من بعد إهلاك تلك الأمم، التي تسمعون أخبارها، وتشاهدون آثارها، لنرى صنعكم في هذه الحياة، هل تسلكون طريقهم في البغي والعدوان، أم تسلكون طريق أهل السعادة والإيمان؟ فما هذه الحياة الدنيا إلا ابتلاء وامتحان ﴿لِنَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ كما قال النبي ﷺ فيما رواه عنه الإمام مسلم «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»^(١).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، وانظر كتاب «رياض الصالحين» ص ٢١٥.

«استهزاء المشركين بسيد المرسلين»

وبعد هذا البيان المستفيض حول مصير الطغاة المفسدين، جاءت الآيات لتحكي لنا طرفاً من عتو أهل مكة وضلالهم، في الاستهزاء بسيد المرسلين، فقد طلبوا من رسول الله - بطريق الاستهزاء والسخرية - أن يأتيهم بقرآن غير هذا القرآن، يكون فيه ما يلبي أهواءهم وشهواتهم، أو يغيّر بعض الأحكام فيه، فيجعل مكان آية عذاب آية رحمة، ومكان الحرام حلالاً، ومكان سب آلهم مدحها والثناء عليها، ليؤمنوا برسالته ودعوته، وإنما طلبوا ذلك سخرية واستهزاءً، حتى يخرجوا رسول الله على زعمهم، وفيهم يقول ربنا تقدست أسمائهم: ﴿وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ، قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا، ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ، قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي، إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ، إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «نزلت هذه الآيات في المستهزئين بالقرآن من أهل مكة، قالوا يا محمد: ائتنا بقرآن غير هذا القرآن، فيه ما نسألك وننقرحه عليك»^(١).

ومعنى الآيات الكريمة ﴿وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي وإذا قرئت على المشركين آيات القرآن المبين، حال كونها واضحة ساطعات، لا لبس فيها ولا إشكال ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي قال الجاحدون المنكرون، الذين لا يؤمنون بالبعث والحساب، ولا يصدقون بلقاء ربّ الأرباب ﴿اِئْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ أي ائتنا يا

(١) انظر البحر المحيط لأبي حيان ١٣١/٥.

محمد بكتابٍ غير هذا القرآن، لا يكون فيه تسفيه لعقولنا، ولا تشنيع على آلهتنا، أو انسخ بعض الآيات وضع مكانها أخرى، مما يلائم مزاجنا، قال تعالى ردّاً عليهم، وإفحاماً لهم في مثل هذا الطلب الركيك ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ أي قل لهم يا محمد: لا ينبغي ولا يصحُّ لي عقلاً وشرعاً، أن أتلعب في كتاب الله، فأغيّر فيه أو أبدل من تلقاء نفسي، فإن ذلك مما لا يكون أبداً ﴿إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي لا أتبع إلا ما يوحى إليّ ربي، فأنا عبد مأمور، ورسول مبلّغ، أبلغكم وحي الله ودينه ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي إني أخشى إن خالفتُ أمر الله، وبدلتُ وحيه، أن يعاقبني بعذاب شديد فظيع يوم القيامة، فمن ينقذني من هول ذلك اليوم العصيب، وينجيني من سخط الله وغضبه؟

«البرهان القاطع على صدق النبوة»

ثم أتى لهم بحجة دامغة، تقصم ظهر الباطل، وتؤكد صدق رسالته عليه السلام، فقال في مقام التبكيت والإلزام ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ أي قل لهم يا محمد لو أراد الله ما قرأت هذا القرآن عليكم، ولا أنبأتكم بشأنه، ولا أعلمكم الله به على لساني ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي فقد مكثت بين أظهركم زمناً طويلاً، مدة أربعين سنة من قبل أن آتيكم بهذا القرآن ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ أي أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكير، لتعلموا صدقي، وتتيقنوا أن مثل هذا الكتاب المعجز لا يكون إلا من عند الله؟

قال الفخر الرازي في التفسير الكبير: «إن الكفار شاهدوا رسول الله ﷺ من أول عمره، إلى ذلك الوقت الذي نزل عليهم القرآن، وكانوا

عالمين بأحواله، وأنه ما طالع كتاباً، ولا تتلمذ لأستاذ، ولا تعلم من أحد، ثم بعد انقراض أربعين سنة، جاءهم بهذا الكتاب العظيم، المشتمل على نفائس علم الأصول، ودقائق علم الأحكام، ولطائف علم الأخلاق، وأسرار قصص الأولين، وعجز عن معارضته العلماء، والفصحاء، والبلغاء، وكل من له عقل سليم، يعلم أن مثل هذا لا يكون إلا على سبيل الوحي والتنزيل^(١). ولهذا ختم الله الآية الكرية بهذا الأسلوب من النكير ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ وكأنه يقول لهم: أفليس لكم عقول تدركون بها صدق دعوى محمد؟.

«لا أحد أظلم ممن كذب على الله»

ولما أطنب تعالى في موضوع القرآن، أعقبه ببيان غاية الظلم والعدوان، لمن افترى على الله فنسب إليه ما لم يقله، أو ادعى أنه مرسل من عند الله، فقال تقدست أسماؤه ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ؟ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ وهو استفهام إنكاري ومعناه النفي والاستبعاد أي لا أحد أظلم ممن اختلق على الله الكذب، أو كذب بالحق الذي جاءت به الرسل، فإنه لا يفوز ولا ينجح المجرمون المعاندون لله ورسله.

وكأن الآية تقول: إن محمداً صادق في دعوى النبوة، إذ كيف يترك الكذب على الناس ويكذب على الله؟ وقد عرفتم سيرته، وطهارته، وصدقه، وأمانته، فكيف تتهمونه بأعظم البهتان ألا وهو الكذب على الله؟

(١) التفسير الكبير للرازي ٥٧/١٧.

قال الحافظ ابن كثير: ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان، قال له: هل كنتم تتهمونونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: قلت: لا - وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة وزعيم المشركين ومع هذا اعترف بالحق «والفضل ما شهدت به الأعداء» - فقال له هرقل: فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ثم يذهب ليكذب على الله^(١).

«عبادة المشركين للأصنام»

لا تزال سورة يونس تطالعنا في آياتها البينات، بمزيد من قبائح المشركين وفضائعتهم، فقد استنكفوا عن عبادة الرحمن، ورضوا بعبادة الأحجار والأوثان، مع أنها جمادات لا تقدر على جلب نفع، ولا دفع ضرر، فكيف يليق بالعاقل أن يعبد من هو أقل منه شأنًا، وأضعف منه قدرة؟ مما لا يسمع ولا يبصر، ولا يغني عن الإنسان شيئًا؟ وقد جاءت الآيات لتؤكد سفه المشركين، في إصرارهم على عبادة الأوثان، بعد أن ظهرت لهم الدلائل والبراهين، على قبح فعلهم وسوء صنيعهم، بعبادة أحجار وأشجار، لا تنفع ولا تضر، ولا تدري من عبدها ولا من دحاها، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ، وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ، قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ؟ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ والمراد من الآية تبكيتهم والإزرأ بعقولهم، فهم يزعمون أن الأصنام تشفع لهم، مع أنها حجارة لا تبصر ولا تسمع، وقد أقام القرآن عليهم الحجة في بطلان تلك الدعوى حين قال مستهزئًا بهم ﴿قُلْ

(١) تفسير ابن كثير ١٨٧/٢ وهو جزء من حديث طويل رواه البخاري.

اتَّبِعُونِ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴿١٠٠﴾؟ أي قل لهم يا محمد، قل لهؤلاء المشركين عبدة الأصنام: أتخبرون ربكم جلّ وعلا شريك أو شفيع لا يعلمه سبحانه؟ وهو علام الغيوب الذي أحاط علمه بجميع الكائنات؟ فما لكم عميتم عن مشاهدة عظمته تعالى فيما خلق وأبدع، وعبدتم الأوثان والأحجار وتركتم عبادة الواحد القهار؟

ومن غرائب وعجائب هؤلاء المشركين أن ينحتوا هذه الأحجار بأيديهم، ثم يعبدوها ويطلبوا شفاعتها، مع أنهم صنعوها بأيديهم، فكيف تكون آلهة وهم لها صانعون، ولأمرها عارفون؟ قال ابن عباس: كان الرجل من المشركين يرى حجراً، فيأخذه فينحته بيده ثم يعبده، فإذا رأى حجراً خيراً منه، ألقى بالحجر الأول ثم أخذ الثاني فينحته ويعبده، وفيهم نزل قوله تعالى ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾.

«من غرائب القصص والأخبار»

ذكر الحافظ ابن كثير في تفسيره هذه القصة العجيبة، قال: كان «معاذ بن عمرو بن الجموح» و«معاذ بن جبل» رضي الله عنهما شائين قد أسلما، لما قدم رسول الله ﷺ المدينة المنورة، فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين، يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطباً للأرامل، ليعتبر قومهما بذلك، وكان لعمر بن الجموح - وكان سيداً في قومه - صنم يعبده ويطيّبه، فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه، ويلطخان به بالعدرة - أي بالنجس من فضلات الإنسان - فيجيء «عمر بن الجموح» فيرى ما صنع به، فيأخذه فيغسله ويطيّبه، ويضع عنده سيفاً، ويقول له: انتصر لنفسك، ثم يعودان لمثل ذلك، ويعود إلى صنيعه

أيضاً فيغسله ويطيّبه، حتى أخذه مرةً فقرّناه مع كلب ميت، ودلّياه في جبل في بئرٍ هناك، فلما جاء «عمرو بن الجموح» ورأى ذلك، نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل، فأنشد يقول:

تَاللّٰهِ لَوْ كُنْتُ إِلَٰهًا مُّسْتَدِنٌ مَّا كُنْتُ وَالْكَلْبَ جَمِيعًا فِي قَرْنٍ
يريد أنك لو كنت أيها الصنم إلهاً معبوداً بحق، ما كنت مربوطاً
ولا معلقاً مع الكلب الميت في جبلٍ واحد - ثم أسلم فحسن إسلامه،
وقتل يوم أحد شهيداً، رضي الله عنه وأرضاه^(١).

«استكبار وطغيان»

وبعد أن ذكر تعالى الأدلة على فساد عبادة الأوثان، ذكر بعدها أن عادة هؤلاء الأشقياء المجرمين، المكر، والجحود، والعناد، فإن أصابتهم الشدة تضرعوا، وإن جاءتهم الرحمة بطروا وكفروا، فهم يقابلون النعمة بالكفران، ويجحدون بآيات الرحمن، كما قال تقدست أسماؤه ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا، قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا، إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ روي أن الله سلط على كفار قريش القحط سبع سنين، حتى كادوا أن يهلكوا، فطلبوا من رسول الله ﷺ أن يدعو لهم بالخصب ورفع البلاء، ووعدته بالإيمان، فدعا الله لهم فرحمهم الله، فأنزل عليهم الأمطار، وأخرج لهم الزروع والثمار، فلما عوفوا بطروا ورجعوا إلى الكفر والعناد.

ومعنى قوله تعالى ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي هو تعالى أشد استدراجاً وإمهالاً للظالم الفاجر، يمهله حتى يظن أنه ليس بمعذب،

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٧٥/٢.

والحقيقة إنما هو في مُهلة، ثم يحل به البلاء، كما قال سبحانه ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ. وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ فمكر الله: إمهاله لهم، وسماء مكرًا مشاكلة لفعلهم، وتسمية للعقوبة باسم الذنب، كأنه يقول: الله أسرع عقوبةً لهم، جزاءً على مكرهم، فهم لن يُفلتوا من عذاب الله، وإن أخرهم وأمهلهم استدراجاً لهم.

«إيمانهم بالله والتجاؤهم إليه عند الشدائد»

ثم ضرب تعالى مثلاً على بغيتهم وعدوانهم، وأنهم يلجأون إلى الله في الشدة، ويكفرون به في الرخاء، مثل حالتهم بأناس ركبوا البحر، فهاج واضطرب، وشعروا بالخطر يُحْدِق بهم، فإنهم ينسون الأوثان، ويدعون الرحمن لكشف الضر عنهم، ولا يخطر على بالهم في ذلك الحين شيء من آلهتهم المزعومة، حتى إذا ما نجوا عادوا إلى الكفر والضلال، كذلك حال كفار مكة، وفيهم يقول تقدست أسماؤه ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ، وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا، جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ، وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ، دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَنْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ، فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

والآية الكريمة تمثيل لطبيعة الإنسان الجحود، لا يذكر الله إلا في ساعة العسرة، ولا يرجع إليه إلا وقت الكرب والشدّة، فإذا نجّاه الله من الضيق، وكشّف عنه الكرب والبلاء، رجع إلى الكفر والعصيان، وتمادى في الشرّ والطغيان، ومعنى قوله تعالى ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» أي وبإلّ البغي عليكم، لا يجني ثمرته إلّا أنتم، تتمتعون في هذه الحياة بالشهوات الفانية، التي تعقبها الحسرات الباقية، فالبغي نهايته وخيمه، والظلم ظلمات يوم القيامة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لو بغى جبلٌ على جبلٍ لا ندكُ الباغي» وكان المأمون يتمثل بهذين البيتين في أخيه:

يَا صَاحِبَ الْبَغْيِ إِنَّ الْبَغْيَ مَضْرَعَةٌ فَارْبِعْ فَخَيْرُ فِعَالِ الْمَرْءِ أَعْدَلُهُ
فَلَوْ بَغَى جَبَلٌ يَوْمًا عَلَى جَبَلٍ لَأَنْدَكُ مِنْهُ أَعَالِيهِ وَأَسْفَلُهُ

وهكذا ختم الله الآية الكريمة بهذا الختم الرائع، الذي تتصدع له القلوب ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

«مثل الدنيا ونعيمها الزائل»

وبعد ذلك البيان الواضح عن طغيان الإنسان، واستكباره عن عبادة الرحمن، وإغراقه في البغي والعدوان، ذكر تعالى اغتراره بهذه الحياة الدنيا، فإن الإنسان الجاهل يظن أنّ سعادته في التمتع بنعيم الدنيا، والنيل من لذائذها وشهواتها، فلذلك يُجهد نفسه في جمع حُطامها، ويكدُّ ويتعب لينال أكبر قسطٍ من متاعها، وينسى الآخرة التي هي دار السرور والحبور، فلا يعمل لها، ولا تخطر على باله، لأنه قَصُرَ همُّه على الدنيا ونعيمها العاجل.

وقد ضرب تبارك وتعالى المثل لزهرة الحياة الدنيا، الفانية الزائلة، التي يغتر بها كثير من الناس، وصوَّرها بأنها سرابٌ خادع، فقال تقديست أَسْمَاؤُهُ ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ، فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتٌ

الأرض ، مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ، حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا
وَارْزَنَتْ ، وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا ، أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ،
فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣٨﴾ .

والآية الكريمة تصويرٌ دقيق لهذه الحياة الدنيا، التي ينخدع بها
الكثيرون، فيظنون أنها دار السعادة، ودار الإقامة والسرور، وما دروا أنها
ممرٌ ومعبرٌ للدار الآخرة - دار القرار - وهي كما قال سبحانه ﴿وما الحياة
الدنيا في الآخرة إلا متاع﴾ .

ومعنى الآية الكريمة : إنما صفة الحياة الدنيا، وحالتها العجيبة في
فنائها وزوالها، وذهاب نعيمها واغترار الناس بها، كمثل مطرٍ نزل من
السماء، فنبتت به أنواع من النباتات، مختلطٌ بعضها ببعضها، مما يأكله
الناس ويتمتعون به من أنواع الثمار والفواكه، والحبوب والبقول، ومما
تأكله البهائم من الكلال والمرعى والعشب الخصب، حتى إذا أخذت
الأرض حُسْنَهَا وبهجتها، وتزينت بأنواع الفواكه والثمار والأزهار،
والتعبيرُ بقوله تعالى ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَارْزَنَتْ﴾ في غاية
الإبداع والجمال، فهو تمثيلٌ لها بالعروس إذا تزينت بالحليِّ والثياب
ولبست أفخر الملابس، فإنها بهذه الحالة تزيد في الفتنة والإغراء،
كذلك الدنيا تخدع ثم تصرع، وبينما الناس مفتونون بنعيم الحياة
وبهجتها، إذ جاءها أمر الله بالهلاك والدمار، فصارت خراباً ياباً، بعد
أن كانت زاهرة ناضرة، تَمِيسُ في أبهى الزينة وأجمل الحُلل، وهذا
معنى قوله تعالى ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا جَاءَهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ
نَهَارًا ، فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا ، كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ﴾ أي جاءها قضاؤنا
بهلاك ما عليها من النبات، فجعلناها محصودة مقطوعة لا شيء فيها من

النبات والثمار، كالذي حُصد بالمنجل ﴿كَأَنَّ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ أي كأنها لم تكن عامرة قائمة زاهرة، قبل ذلك الحين، ثم ختم الآية ببيان الغرض من هذا التشبيه والتمثيل فقال عزَّ شأنه ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي مثل ما بينا في هذا المثل الرائع، للحياة الدنيا ونعيمها الفاني، كذلك نضرب الأمثال، ونفصل العبر، لقوم يتفكرون ويتدبرون في نهاية الحياة.

«الجنة دار السلام»

وبعد الحديث عن دار الفناء، التي صورها القرآن الكريم بذلك التصوير الرائع، جاءت الآيات تتحدث عن دار السرور والحبور، وما أعدَّ الله لعباده المتقين في جنان الخلد والنعيم، مما لا يخطر على بال، مع النظر إلى وجه الله الكريم، وهو أمر زائد على دخول الجنة، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ، وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ودار السلام هي الجنة، سُميت بذلك لأن من يدخلها يسلم من الأحزان والأكدار، والمنغصات والآفات، التي تصيب الإنسان في الدنيا، فليس فيها تعب ولا نصب، ولا هم ولا حزن، ولا سقم ولا مرض، فقد خلت من جميع البلايا والمحن، والفواجع والكوارث، ومما يجرح الفؤاد ويكدر خاطر، فلهذا سميت «دار السلام» كما سميت «دار الإقامة» و«دار الخلد» والبقاء، ولا يستحق التكريم في دار السلام، إلا من أسلم قلبه، ووجهه، وجوارحه، لله عز وجل، ودخل في دين الإسلام، وهو المسلم الذي يكرمه ربُّ العزة بدار السلام، وللمجانسة اللطيفة بين

«الإسلام» و«دار السلام» سميت الجنة بهذا الإسم الكريم.

«مثلُ للرسول وأُمته»

روى ابن جرير الطبري بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: إني رأيتُ في المنام كأن جبريل عند رأسي، وميكائيل عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً فقال: إِنَّمَا مَثَلُكَ وَمَثَلُ أُمَّتِكَ، كَمَثَلِ مَلِكٍ اتَّخَذَ دَاراً، ثُمَّ بَنَى فِيهَا بَيْتاً، ثُمَّ جَعَلَ فِيهَا مَأْدِبَةً، ثُمَّ بَعَثَ رَسُولاً يَدْعُو النَّاسَ إِلَى طَعَامِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَجَابَ الرَّسُولَ وَمِنْهُمْ مَنْ تَرَكَه، فَاللَّهُ الْمَلِكُ، وَالْدَارُ الْإِسْلَامُ، وَالْبَيْتُ الْجَنَّةُ، وَأَنْتَ يَا مُحَمَّدُ الرَّسُولُ، فَمَنْ أَجَابَكَ دَخَلَ الْإِسْلَامَ، وَمَنْ دَخَلَ الْإِسْلَامَ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ أَكَلَ مِنْهَا»^(١).

«تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله هو المأثور»

وأما الزيادة التي وردت في الآية ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ فهي النظر إلى وجه الله الكريم، فقد ورد ذلك التفسير مأثوراً عن رسول الله ﷺ عندما سئل عن الآية فقال: الحسنی «الجنة» والزيادة «النظر إلى وجه الله عز وجل» ولا عطر بعد عروس كما روى ذلك الحافظ ابن كثير رحمه الله، وحكى أن هذا قول الجمهور من السلف والخلف، ومما يؤيد ذلك ما رواه الإمام أحمد في المسند عن صهيب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ فقال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، نَادَىٰ مُنَادٍ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِنْ

(١) الحديث أخرجه ابن جرير الطبري، والسيوطي في الدر المنثور.

لكم عند الله موعداً يريد أن يُنجزكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم يُنقل موازيننا؟ ألم يُبيّض وجوهنا، ويدخلنا الجنة ويُجرنا من النار؟ قال: فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقرّ لأعينهم منه»^(١).

وعن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادي بصوتٍ يسمعه أولهم وآخرهم: يا أهل الجنة إن الله وعدكم الحسنَى وزيادة، فالحسنَى الجنة، والزيادةُ النظر إلى وجه الرحمن عز وجل»^(٢).

وبمقابلة السعداء أهل الجنة، يأتي الحديث عن الأشقياء أهل النار، فيصورهم القرآن الكريم بتلك الصورة الفظيعة الشنيعة، من اسوداد وجوههم، وما يعلوهم من القفرة والغبرة، والذل الهوان، فيقول تقدست أسماؤه: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ، مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ، كَانَمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وقانا الله شرّ الأشرار، ومآل الفجار، وجعلنا من عباده الأبرار، إنه هو العزيز الغفار.

«الدلائل على وحدانية الله عز وجل»

لا تزال الآيات تفرع بحججها الدامغة آذان المشركين، المنكرين للبعث والنشور، الذين عبدوا الأحجار والأشجار، واستنكفوا عن عبادة الله الواحد القهار، وتذكّرهم بالخالق الرازق، الذي أنعم عليهم بنعمة

(١) الحديث أخرجه مسلم وأحمد في المسند.

(٢) الحديث أخرجه ابن أبي حاتم والإمام ابن جرير، وانظر تفسير ابن كثير ١٩١/٢.

الخلق والإيجاد، ومنحهم الحواس من السمع، والبصر، والفهم والإدراك، ودبر شؤون العباد، وأمر الخلائق، على غاية من الإبداع والإتقان، ثم عبدوا غيره ممن لا يضر ولا ينفع، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه منكرأ وموبخاً ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ؟ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ؟ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ؟ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ، فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ؟ فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ، فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ، فَأَنَّى تُصْرَفُونَ؟ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

والعجيب في أمر هؤلاء المشركين، من كفار قريش، أنهم يقرون بالسنتهم بأن الخالق للكائنات، والمبدع لهذا الوجود، هو الله رب العالمين، ثم هم يُشركون معه ما لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، ولا يغني عنهم فتيلاً، لأنهم يعبدون جماداً وأحجاراً، وهي - باعترافهم وإقرارهم - ليس لها من أمر الخلق والرزق، والتصريف والتدبير شيء، فكيف عبدوها من دون الله؟ ولذلك حكم عليهم القرآن بالضلال، والبعد عن سبيل الهداية والرشاد فقال تقدست أسماؤه ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ، فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أي فكيف تُصرفون عن عبادة الله القادر، إلى عبادة ما لا يخلق ولا يرزق، ولا يحيي ولا يميت؟

والنتيجة الحتمية لهؤلاء الأشقياء الضالين، هي الخلود في عذاب الجحيم، ولهذا عقبها بقوله تقدست أسماؤه ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي كذلك وجب قضاء الله، وحكمه السابق، على الذين كفروا وكذبوا بالخلود في الجحيم، لأنهم لا يصدقون بوحدانية الله، ولا برسالة رسله وأنبيائه، لشقاوتهم وضلالتهم.

«سخافتهم في عبادة الأوثان»

ثم تلتها الآيات الكريمة تثبت بطلان دعواهم فيما أشركوا، وعبدوا من دون الله من الأوثان والأصنام، وتقيم الأدلة على فساد ذلك، فهم لا يُحكّمون عقولهم فيما فعلوا، إنما يتبعون الأهواء، ويقلدون الآباء تقليداً أعمى، دون هداية أو بصيرة، وقد شنع عليهم القرآن الكريم ذلك الصنيع تشنيعاً شديداً، فقال تقدست أسماؤه ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ؟ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، فَأَنْتَى تُؤْفَكُونَ؟﴾ أي قل لهم يا محمد على جهة التوبيخ والتقريع: هل من الأوثان والأصنام التي عبدتموها من دون الله، من يبدأ الخلق من العدم، ثم يُميتُه ويُفنيه، ثم يُعيدُه ويُحييه؟ فإنه عجزوا عن الجواب، لظهور فساد دعواهم، وعدم استطاعتهم إقامة البرهان، فقل لهم: الله وحده هو الذي يحيي ويميت، ويبدأ ويعيد، وليس شيء من هذه الأصنام المصنوعة، والآلهة المزعومة، من يقدر على فعل ذلك ﴿فَأَنْتَى تُؤْفَكُونَ﴾ أي فكيف تنقلبون وتنصرفون عن الحق إلى الباطل، وتعبدون ما لا يضر ولا ينفع؟ أفليس لكم من العقل والتفكير ما يحجزكم عن مثل هذه الحماقة والسفه؟

«الله هو الهادي لا الأوثان»

ثم زاد تعالى في الإيضاح والبيان، في بطلان عبادتهم للأصنام والأوثان فقال تقدست أسماؤه: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ؟ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ، أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ، أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى؟ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ؟﴾ ومعنى الآية الكريمة: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: هل من هذه الآلهة التي

تعبّدونها من يرشد ضالّاً، أو يهدي حائرّاً؟ أو يدلّ على طريق الحق، وسبيل الاستقامة؟ فإن لم يجيبوا فقل لهم: إن عجزت آلهتكم عن فعل ذلك، فالله هو القادر على هداية الضالّ، وإنارة السبيل، وبيان الحقّ، فهل من يرشد إلى الحق والإيمان، وهو الرحمن جلّ وعلا، أحقّ بالاتباع، أم هذه الأصنام التي لا تهدي أحداً، ولا تستطيع هداية نفسها، فضلاً عن هداية غيرها؟ ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي فما لكم أيها المشركون تسوّون بين الأصنام العاجزة، وبين ربّ الأرباب القادر على كل شيء؟ وتحكمون بهذا الباطل الواضح؟ وهو استفهام معناه الاستغراب، والتعجيب، والإنكار.

«اعتقاد المشركين مبنيّ على الظن والتخمين»

ثم بيّن تعالى فساد نحلّتهم ومعتقدهم، بعد أن أفحمهم بالبراهين النيرة، والدلائل الساطعة، التي توجب الإيمان والتوحيد، وتبطل الإشراك والتقليد، فقال جلّت عظمته، وتقدست أسماؤه ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا، إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

والمعنى: وما يتبع هؤلاء المشركون، في اعتقادهم ألوهية الأصنام، إلّا اعتقاداً باطلاً مبنيّاً على الظن والتخمين، غير مستند لدليل أو برهان، بل هو مجرد أوهام باطلة، وخرافات فاسدة، ومثل هذا الاعتقاد، المبني على الأوهام والخيالات، لا ينفع صاحبه شيئاً، لأنه ظنّ كاذب، لا يقوم على أسس ودعائم، ولا يغني عن الحقّ شيئاً، ثم ختم تعالى الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أي إنه تعالى عالم بما هو عليه من الكفر والتكذيب، وعبادة الأهواء، وتقليد الآباء، وذلك

لا يغني عنهم شيئاً، وهو وعيدٌ لهم وتهديد على اتباعهم للظن، وإعراضهم عن البرهان. نبههم تعالى في هذه الآيات على فساد معتقدهم، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأوثان، من ثلاثة وجوه:

الأول: أنها حجارة صماء، لا تبدأ ولا تُعيد، ولا تحيي ولا تميت، وليس لها قدرة على إيجاد شيء.

الثاني: أنها لا ترشد ضالاً، ولا تهدي حائرأ، ولا تقدر على جلب نفع، أو دفع ضرر.

الثالث: أن الإله الحقَّ المعبود، يجب أن تكون له صفات الكمال، في القوة، والقدرة، والتصرف، والتدبير، وأن يرشد الحائر، ويهدي الضال، ويُنير السبيل، وهذه الأصنام ليس لها شيء من ذلك، فكيف تُعبد من دون الله؟

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: والآيات إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره، وعبدوا من الأصنام والأنداد، فمن بدأ خلق هذه السموات والأرض؟ ثم ينشئ ما فيهما من الخلائق، ثم يبدلهما بفناء ما فيهما، ثم يعيد الخلق خلقاً جديداً؟ إنه الله الذي يفعل هذا، ويستقل به وحده، فما بالكم يُذهب بعقولكم؟ كيف سوّيتم بين الله وبين خلقه؟ وعدلتم هذا بهذا؟ وهلاً أفردتم الرب جل جلاله بالعبادة وحده؟ وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة؟ ثم بين تعالى أنهم لا يتبعون في دينهم هذا دليلاً ولا برهاناً، وإنما هو ظنٌّ منهم وتوهُّم وتخيُّل، وذلك لا يغني عنهم شيئاً. انتهى كلام الحافظ ابن كثير.

«افتراء المشركين على الرسول ﷺ»

تناولت السورة الكريمة، الحديث بإسهاب عن مشركي قريش،

المكذبين للرسالة، المنكرين للبعث والنشور، الذين لم يؤمنوا بالقرآن ولا بالوحي، وبالغوا في طغيانهم حتى زعموا أن القرآن أساطير الأولين، وأن محمداً ﷺ مفترٍ على الله - وحاشاه - في ادعائه أنه تنزيل الرحمن الرحيم، وقد أقامت عليهم الحجج الساطعة، والبراهين القاطعة، على صدق هذا القرآن، وصحة الوحي والنبوة، وإثبات رسالة النبي محمد ﷺ الذي اتهمه المشركون بالتخرص والافتراء على الله، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ، وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ، وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ. وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾.

«وجه الإعجاز في القرآن»

فقد بينت الآيات الكريمة «إعجاز القرآن» بالبرهان الناصع، والحجة الدامغة، فإن النبي عليه الصلاة والسلام رجل أُمِّيٌّ بشهادة جميع قومه، جاءهم بهذا الكتاب المبين، وتحداهم أن يأتوا بمثل سورة من سوره، وكرّر التحدي لهم، وهم أساطين الفصاحة وملوك البيان، فعجزوا وانقطعوا ورجعوا مدحورين، ثم إن هذا القرآن بما حواه من تشريع، وبيان، وآداب، وأحكام، يعجز عنها جميع البشر، قد أثبتت العصور والدهور تفوقه على جميع الشرائع، وعدم تعارضه وتناقضه، في كل ما جاء به من أخبار وأحكام - عدا عن فصاحته وبلاغته، ووجازته

وحلاوته - ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كبيراً، ولهذا قال سبحانه في هذه السورة الكريمة ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي لا يصح ولا يُعقل، ولا يستقيم لذي عقلٍ سليمٍ، أن يزعم أن هذا القرآن مفترى مكذوبٌ على الله، لأنه فوق طاقة البشر، ولا يصح أن يكون إلا من عند الله، الذي لا يشبهه شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله وأقواله، وكلامه كذلك لا يشبه كلام المخلوقين، جاء هذا القرآن مصدقاً لما قبله من الكتب السماوية، ومهيماً عليها، ومبيناً ما وقع فيها من التحريف والتبديل، وفيه تبين الشرائع، والعقائد، والأحكام، فهو بلا شك تنزيل رب العالمين، ولهذا أتبع الآية بقوله تقدست أسماؤه ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

«عجزهم عن معارضة القرآن»

ثم جاء التوضيح والبيان مشفوعاً بالتحدي، بأسلوب صارخ، يستنهض الحماس، ويستفز المشاعر، لمعارضته من جميع الخصوم، فما قدرُوا أن ينسوا بينت شفة، ولا أن يردُّوا ذلك التحدي الصارخ، مما أثبت عجزهم وانقطاعهم عن المقاومة والمصاولة، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾.

والمعنى: أم يقولون اختلق محمد هذا القرآن من قبل نفسه؟ فقل لهم: إن كان الأمر كما زعمتم فجيئوا بسورةٍ من مثل هذا القرآن، والاستفهام في قوله «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ» استفهام معناه التوبيخ، والغرض من الآية إقامة الحجة عليهم بالعجز، ولهذا دعاهم إلى الاستعانة بمن شاءوا من الإنس والجن فقال ﴿وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ

دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١﴾ أي إن كنتم صادقين في أن محمداً افتراه، فادعوا من شئتم غير الله تعالى، واستعينوا بمن تحبون من الخلائق، فستعجزون جميعاً عن الإتيان بمثل سورة واحدة من سوره، وهذا من أوضح البراهين على صدق دعوى محمد.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «هذا وقد كانت الفصاحة من سجايهم وأشعارهم، ومعلقاتهم إليها المنتهى في هذا الباب، ولكن جاءهم من الله ما لا قبل لأحد به، ولهذا آمن من آمن منهم، بما عرف من بلاغة هذا الكلام، وحلاوته، وجزالته، وطلاوته، وإفادته، وبراعته، فكانوا أعلم الناس به، وأفهمهم له، وأشدّهم له انقياداً، ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من نبي من الأنبياء، إلّا وقد أُوتِيَ من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً»^(١). والله در القائل حيث يقول:

جَاءَ النَّبِيُّونَ بِالْآيَاتِ فَأَنْصَرَمْتُ وَجِئْنَا بِكِتَابٍ غَيْرِ مُنْصَرَمٍ
آيَاتُهُ كُلَّمَا طَالَ الْمَدَى جُدُّدُ يَزِينُهُنَّ جَمَالُ الْعِتَقِ وَالْقِدَمِ

«الناس أعداء لما جهلوا»

ثم بين تبارك وتعالى السبب في تكذيبهم للقرآن، فقال تقدست أسماؤه ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ، وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾.

والمعنى: بل كذب هؤلاء المشركون بالقرآن العظيم، وسارعوا إلى الطعن به، قبل أن يفقهوه ويتدبروا ما فيه، والناس دائماً أعداء لما

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ١٩٥/٢، والحديث من رواية البخاري، ومسلم، وأحمد.

جهلوا ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ أي ولم يأتهم بعد عاقبة ما فيه من الوعيد، وسيأتيهم العذاب الشديد، حين لا ينفعهم الإيمان والتصديق، ولهذا عَقِبَ تعالى الآية بقوله ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ أي انظر أيها السامع بعين البصيرة والاعتبار، كيف أخذهم الله بالعذاب والدمار، بسبب ظلمهم وبغيهم، فكما فعل بأولئك المجرمين، يفعل بهؤلاء الظالمين الطاغين.

«الناس فريقان: مؤمن ومكذب للقرآن»

ثم حكى تعالى أن الناس أمام هداية القرآن، ونوره وبيانه، وإرشاده فريقان: منهم من استنار قلبه، واستضاء فكره، فأمن به وصدق، وانتفع بما فيه من هداية وإرشاد، ومنهم من عميت بصيرته، وأظلم قلبه، فكذب به وجحد، فهما فريقان: فريق الهداية والإيمان، وفريق الكفر والضلالة فقال تقدست أسماؤه ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أي ومنهم من يؤمن بهذا القرآن، وينتفع بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، ومنهم من يكذب به لفرط غباوته، وسخافة عقله، واختلال تمييزه، فيكون مصيره الجحيم، وهو تعالى أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ومن يستحق الضلالة فيغويه، وقد لقن الله رسوله ﷺ الحجة فقال تقدست أسماؤه ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ، وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي إن كذبت هؤلاء المشركون في دعوى النبوة والرسالة، فقل لهم: لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم، لا يؤاخذ أحد بذنب الآخر، فقد بلغتكم رسالة ربي، وليس علي من وزركم شيء إن لم تؤمنوا، وأنا بريء منكم وأنتم بريثون مني. وهكذا قطع الله الصلة

بين رسوله وبين المشركين، وأقام عليهم الحجة في بطلان تلك المزاعم التي رموا بها رسول الله عليه السلام، من افتراءه للقرآن، وادعائه للنبوّة، فيكفيه أن الله شاهد على عمله وعلى عمل المجرمين، وعند الله تجتمع الخصوم.

«عمى البصيرة حجبهم عن الإيمان»

السورة الكريمة تناولت بالإسهاب كفار مكة، الذين بُعث رسول الله ﷺ بين أظهرهم، ولا تزال الآيات في جدلٍ مع المشركين، المكذّبين لسيد المرسلين، فقد حكى عنهم القرآن طعنهم في أمر النبوّة والوحي، وإنكارهم لرسالة محمد عليه السلام، وتكذيبهم بالقرآن الكريم، الذي تحداهم الله عز وجل به، فَأَفْحِمُوا وَاِنْ قُطِعُوا، ومع ذلك فقد أصرُّوا على الجحود والعناد، والاستكبار عن قبول دعوة الحق، وهنا يذكر القرآن الكريم سبب هذا الاستكبار والطغيان، ألا وهو عمى البصيرة، والتمرد على الشريعة، وعدم قبول الحق والإذعان له، فيقول تقدست أسماؤه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ، أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ؟ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ. إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا، وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

والمعنى: من هؤلاء المعاندين، المستكبرين عن قبول الحق، من يستمعون إلى حديثك يا محمد، ويستمعون إليك إذا قرأت القرآن، وقلوبهم لا تعي شيئاً مما تقرؤه وتتلوه، وهذا كقوله تعالى إخباراً عنهم ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ، وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ، وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ، فَأَعْمَلْ إِنَّا غَامِلُونَ﴾ ولهذا قال تعالى في هذه السورة ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾؟ استفهام بمعنى النفي أي أنت لا

تقدر أن تسمع الأصم الذي سلبه الله السمع، ولو كانوا من الصمم لا يعقلون ولا يتدبرون، شَبَّهَهُم تعالى بالأصم وهو الأطرش الذي فقد حاسة السمع، وزادت مصيبته ففقد حاسة العقل والتفكير، فكيف يرجى منه الفهم، أو يُرجى له الخير والانتفاع، وقد اختلت فيه حاسة السمع والعقل؟ قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية: «أي ومن هؤلاء المشركين من يسمعون كلامك الحسن، والقرآن النافع، ولكن ليس أمرٌ هدايتهم إليك، فكما لا تقدر على إسماع الأصم، فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله»^(١) ثم قال تعالى منبهاً إلى عمى أبصارهم بعد عمى بصائرهم ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ، أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي ومن هؤلاء الكفرة المعاندين، من ينظر إليك يا محمد، ويشاهد دلائل نبوتك الواضحة، ولكنهم عمي لم ينتفعوا بما رأوا، أفأنت يا محمد تقدر على هدايتهم، ولو كانوا عمياً لا يبصرون؟ شَبَّهَهُم تباركت أسماؤه بالعمي لتعاميهم عن الحق، والمراد تسليية النبي عليه السلام، عمّا يلقاه منهم من صدود وإعراض، واستهزاء وتكذيب، وكأن الآية تقول له: كما لا تقدر أن تخلق للأعمى بصراً يهتدي به، فكذلك لا تقدر أن تُوفِّق هؤلاء للإيمان.

«ندم المشركين وحسرتهم يوم القيامة»

ثم انتقلت الآيات لتحدث عن موقفهم الذليل، وندمهم وحسرتهم يوم القيامة، حيث يجمعهم الله جل وعلا في أرض المحشر، فيعارفون ويتلاومون، ويحسُّون بخيبة الأمل، ويدركون الحقيقة المرة، وهي أن

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١٩٥/٢.

إقامتهم في الدنيا لم تكن إلا سراباً خادعاً، كان يوماً أو سويعة من النهار، فيندمون على ما فرطوا في جنب الله، ولكن هيهات أن ينفع الندم، أو تفيد الحسرة، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ، يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ، قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ، وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

والمعنى: اذكر يوم نجمع هؤلاء المشركين للحساب، كأنهم ما أقاموا في الدنيا إلا ساعة من النهار، لهول ما يرون من الأحوال ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي يعرف بعضهم بعضاً كما كانوا في الدنيا، وهو تعارف «توبيخ وافتضاح» لا تعارف «محبة ومودة» يعرف الصديق الصديق، والقريب القريب، فيقول الواحد للآخر: أنت أغويتني، وأنت أضللتني، فیسبه ويلعنه كما قال سبحانه ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ، وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً﴾^(١) والآية دليل على استقصار الحياة الدنيا بالنسبة للآخرة، وقد كانوا هنا في الدنيا غافلين، ولكنهم عرفوا الحقيقة هناك، كما قال سبحانه ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ وقال تقدست أسماؤه: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾ وفي موطن آخر يُسألون عن مدة مكثهم ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ؟ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ﴾^(٢) وقد حكم القرآن بخسرانهم وضلالهم فقال ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ وأي خسارة أعظم من أن يخسر الإنسان حياته، وسعادته، وأبناءه، ويكوى في لظى الجحيم؟.

(١) سورة النكيت آية رقم ٢٥/.

(٢) سورة المؤمنون آية رقم ١١٣/.

«استحقاقهم للعقاب»

ثم أخبر تعالى أنه لا بد من عذابهم، إن عاجلاً أو آجلاً، فإنهم بكفرهم وإشراكهم قد استوجبوا عقاب الله، فإما أن ينتقم الله منهم في حياته ﷺ، ليُقرَّ عينه منهم، أو يؤخر لهم العقوبة إلى الدار الآخرة، فالأمر لله وحده، وفي ذلك يقول جل وعلا ﴿وَأَمَّا نُزْيُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ، أَوْ نَتُوفِينُكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ، ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾.

والمعنى: إما أن نريك يا محمد بعض عذابهم في الدنيا، لتقرَّ عينك منهم، أو نتوفينك قبل ذلك، فمصيرهم ومرجعهم إلينا في الآخرة، فننتقم لك منهم، فإنهم لن يُفلتوا من عقابنا، ولا بد من الجزاء إن عاجلاً أو آجلاً.

ثم تلتها الآيات الكريمة، تذكر استهزاءهم وسخريتهم مما كان يعدهم به ﷺ من نزول العذاب، فقد جمعوا مع الكفر والتكذيب، السخرية والاستهزاء ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؟ أي ويقول المشركون من كفار مكة: متى هذا العذاب الذي تعدنا به يا محمد، إن كنت صادقاً؟

«مهمة الرسول التبليغ والإنذار»

وقد أرشده الله تعالى إلى الردِّ عليهم فقال سبحانه ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي قل لهم: لا أستطيع أن أدفع عن نفسي ضرراً، ولا أجلب لها نفعاً، إلا إذا شاء الله تبارك وتعالى، فكيف أقدر أن أملك ما استعجلتم به من العذاب، فما أنا إلا رسول مبلِّغ عن الله وأمره، ولست بإلهٍ حتى آتيكم بما تطلبون، ثم أردف ذلك

بقوله ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾، إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿والمراد بالأجل هنا أجل العذاب والهلاك، أي لكل أمة وقت معلوم لهلاكهم وعذابهم، مَاذَا جَاءَ أَجَلَ الْهَلَاكِ، فلا يتأخر عنهم برهة ولا يتقدم.. ثم زاد في الإيضاح والبيان فقال ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا، مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي أخبروني أيها الناس إن جاءكم عذاب الله في الليل أو في النهار، ماذا ينفعكم طلب التعجل به؟ وهو استفهام معناه التهويل والتعظيم لأمره أي ما أعظم ما يستعجلون به؟ ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ﴾ أي هل ينفعكم عند نزول العذاب الإيمان به؟ ﴿الْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي الآن تؤمنون وقد كنتم من قبل تهزءون به وتسخرون؟. ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ، هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾؟ أي ذوقوا العذاب الأبدي الدائم، الذي لا ينقطع، هل تجزون إلا بما كسبته أيديكم من الآثام والإجرام؟ وهكذا تقرّر الآية الكريمة العدالة الإلهية في معاقبة المجرمين الظالمين!.

«إنكارهم للبعث والنشور»

لا يزال الحديث عن كفار مكة، أولئك العتاة الطغاة، الذين تحدثت السورة الكريمة بإسهاب عنهم، فلقد أنكروا البعث والنشور، وكذبوا بالمعاد بعد فناء الأجسام، واستبعدوا أن يبعثهم الله بعد الموت، بعد أن تصبح عظامهم نخرة، وتنقلب أجسادهم إلى تراب ورفات، فجاءت الآيات الكريمة لتؤكد أمر البعث بعد الموت، وأن الذي قدر على خلقهم من العدم، قادر على إعادتهم للحياة مرة أخرى، وأنه تعالى لا يعجزه شيء، وقد أقسم تبارك وتعالى على ذلك لأهمية الموضوع

فقال تقدست أسماؤه ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ؟ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ ومعنى الآية الكريمة يستخبرونك يا محمد أحق ما وعدتنا به من أمر البعث بعد الفناء، للحساب والجزاء؟ فقل لهم: نعم والله إنه لكائن لا شك فيه، ولستم بمعجزين ربكم لأنكم في قبضته وسلطانه.

«آيات ثلاث أقسم الله فيها على أمر البعث»

وهذه الآية إحدى آيات ثلاث، أقسم الباري تبارك وتعالى فيها على موضوع البعث والنشور، وأمر رسوله أن يؤكد لهم الأمر بالقسم بجلال الله وعظمته «قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ» أما الآيتان الأخريان فهما في سورة سبأ في قوله سبحانه ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ، قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ، عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ...﴾ وفي سورة التغابن في قوله سبحانه ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا، قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ، ثُمَّ لَتُنَبَّيَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ، وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

«الاهتمام بموضوع البعث والحكمة منه»

وموضوع الاعتقاد بالبعث بعد الموت، ركنٌ من أهم أركان الإيمان، ولهذا ركزت السورة على هذا الموضوع الخطير، فكررت ذكره بأساليب متعددة، ونوعت في إقامة الحجج والبراهين، لأن في إنكاره تضييعاً للمسؤولية، وإهداراً للحكمة من خلق الإنسان، كما قال سبحانه ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا، وَأَنْكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ؟ فَتَعَالَى اللَّهُ

الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١﴾ ففي الإيمان بالبعث والجزاء، يستقيم سلوك الإنسان، لأنه يؤمن بقاء ربه، وبالحساب يوم الجزاء، فلا يسير مع الأهواء والشهوات، ولا يتفلسف كالحيوان بلا وازع ولا ضابط، بل يزن كل أموره بميزان العقل والشرع، فيستقيم سلوكه، وتهذب نفسه، وتنضبط أخلاقه وأهواؤه، وفي إنكار البعث والجزاء ضياعاً لصمام الأمن، حيث يصبح الإنسان هائماً على وجهه كالحيوان، لا يعرف منكراً، ولا يخشى عقاباً، ولا يعتقد بمسؤولية، فلذلك لا يتورع عن فعل كل قبيح وعمل كل منكر، لأنه لا يحسب حساباً لجنة أو نار، أو نعيم أو جحيم، فلماذا يتقيد بالأوامر والنواهي؟ وقد ذكر القرآن الكريم أن السبب لانحراف الإنسان وفجوره، واسترساله في الشهوات، هو عدم إيمانه بقاء الله، وعدم تصديقه بالحشر والنشر، فقال تقدست أسمائه في سورة القيامة ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجَرُ أَمَامَهُ. يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ (٢) وسؤاله عن القيامة إنما هو سؤال سخرية واستهزاء، وجحود وتكذيب، فهو إنما أنكر البعث والحشر، ليتم له الانطلاق في طريق الفجور، فلا يتقيد بأمر الله ونهيه، ولا بتحليله وتحريمه، بل ينطلق مع الأهواء والشهوات لينال في هذه الحياة مناه.

«حالة المجرمين التعيسة في الآخرة»

ثم جاءت الآيات الكريمة، لتصور لنا حالة هؤلاء المجرمين الظالمين، المنكرين للبعث والجزاء، وحسرتهم وندامتهم على ما فرطوا في هذه الحياة الدنيا، وضيّعوا من صالح الأعمال، وتذكر أنهم يتمنون

(١) سورة المؤمنون آية رقم / ١١٦ .

(٢) سورة القيامة آية رقم / ٥ و ٦ .

لو يفتدوا من عذاب الله بملئ الأرض ذهباً، ولكن هيهات أن يُقبل منهم فداء، أو تنفعهم شفاعة، لأن القيمة هناك للأعمال لا للمال، والتعامل في الآخرة ليس بالدرهم والدينار، ولكن بالتقوى والإيمان، ومخافة الرحمن، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً لَافْتَدَتْ بِهِ، وَأَسْرَوْا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ، وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وهذه الآية في منع قبول الفداء، تشبه قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ، فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهباً وَلَوْ افْتَدَى بِهِ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾^(١) وتشبه قوله تعالى في سورة المعارج ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِنِيبِهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ. وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ. وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾^(٢).

«البعث حق كائن لا محالة»

وتلتها الآيات الكريمة تذكر أنه تعالى هو الخالق المالك، المحيي المميت، وأن وعده بالبعث والجزاء حق كائن لا محالة، وأنه إليه المرجع والمآب، ليجازي الإنسان على ما قدم في هذه الحياة الدنيا من خير أو شر، أو صالح أو طالح، فحسب العباد أن الملك الديان هو المحاسب لعباده، وهو الذي لا تخفى عليه خافية، وكل ما في الكون خلقه وملكه، وهو المتصرف في شؤون العباد، فعليهم أن يخافوه ويحذروا بطشه وانتقامه ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

(١) سورة آل عمران آية رقم / ٩١.

(٢) الآيات من سورة المعارج رقم / ١١ - ١٤.

«القرآن هو الهادي إلى طريق النجاة والسعادة»

وبعد التحذير جاء دور النصيح والتذكير، فقد ذكّر تعالى عباده بما أنزل عليهم من القرآن العظيم، الجامع لأنواع الحكّم، الشافي للصدور، الهادي إلى طريق النجاة والسعادة، فعليهم أن يستمسكوا بهدايته، وإرشاده، وأن يفرحوا بنعمة إنزاله، فإنه خير من حُطام الدنيا، وما فيها من الزهرة الفانية، والنعيم الزائل، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ، وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ، وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ. قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

نبّه تعالى في هذه الآيات البينات، إلى أن نعمة الهداية والإيمان بنزول هذا القرآن، أعظم من نعمة جمع المال، فعلى الناس أن يشكروا ربهم، على ما منّ به عليهم من نزول هذا القرآن العظيم، فيه الهدى والشفاء، والنور والضياء، ولا يغتروا وينخدعوا بما عليه الكثيرون من الاشتغال بجمع حطام الدنيا، ونعيمها الفاني، فإن الدنيا بما فيها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، لأن الدنيا زائلة، والآخرة باقية، والعاقل من يُؤثّر الباقي على الفاني، ولهذا ختم الله الآية بقوله ﴿هو خيرٌ مما يجمعون﴾ اللهم ارزقنا الآخرة والعمل لها، واجعلنا من عبادك الصالحين، يا أرحمَ الراحمين.!

«جنايتهم في تحريم بعض الأنعام»

محور هذه السورة كما اتضح لنا في دراستها يدور حول المشركين من كفار مكة، الذين أنكروا البعث والحشر والنشر، ولم يصدّقوا بالحياة بعد الموت، وقد جاءت السورة الكريمة، لتثبت لهم في مواطن

متعددة، أمر البعث والحساب والجزاء، وتقيم لهم الحجج الدامغة على صدق ما أخبرهم به الرسول عليه الصلاة والسلام، من أمر القيامة، والصراط، والحشر والنشر، والجنة والنار، وغير ذلك من أخبار الآخرة، كما جاءت لتناقشهم في أمر التحليل والتحريم، الذي اخترعوه من تلقاء أنفسهم، فحلّلوا بعض الأنعام، وحرّموا بعضها، كالبحيرة، والسائبة، والوصيلة، والميتة، دون مستند ولا حجة من شرع أو دين، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ، فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا، قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ؟ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ؟ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ إِنْ اللَّهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ، وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «نزلت إنكاراً على المشركين، فيما كانوا يُحلّون ويُحرّمون من البحائر، والسوائب، والحرث، والأنعام» والآية تشير إلى سفاهاتهم، في تحريم ما أحلّ الله لهم من أنواع الأنعام، التي ذكرها الله تعالى في قوله ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ - أَيْ مُحَرَّمَةٌ وَمَنْعُوعَةٌ - لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ، وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا، وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا، افْتِرَاءً عَلَيْهِ، سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وفي قوله تعالى أيضاً ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِدُكُورِنَا، وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا، وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ، سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (١).

«التحريم والتحليل لا يكون بالأهواء»

وقد أنكر تبارك وتعالى على من حرّم ما أحلّ الله، أو أحلّ ما حرّم الله، بمجرد الأهواء والآراء، التي لا مستند لها، ولا دليل عليها من

(١) سورة الأنعام آية رقم / ١٣٨ و / ١٣٩.

شرع ودين، ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة فقال تباركت أسماؤه ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؟ أي ما ظنهم أن يصنع الله بهم يوم القيامة، وقد كذبوا على الله فأحلوا وحرّموا من تلقاء أنفسهم؟ أيحسبون أن الله يصفح عنهم، ويغفر لهم جرائمهم؟ كلا، بل سيصليهم سعيراً جزاء ما ارتكبوا من زور وبهتان، ومع كل هذا الافتراء، فإن رحمة الله قد وسعت البرّ والفاجر، فلم يجعل العقوبة لمن أنكر وجوده، وحلّل حرامه، وغير شرعه ودينه، بل أمهلهم لعلهم يتوبون ويرجعون عن الغي والعدوان، ولهذا ختم الآية بقوله عز اسمه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

«الله رقيب على أعمال العباد»

ثم تلتها الآيات تُذكّرُ النَّاسَ بعلم الله الواسع، الذي لا يخفى عليه شيء، ولا يغيب عنه مقدار ذرّة في سائر الكون من أمور العباد، وذلك ليحذروا سطوته وانتقامه، فإنه تعالى هو الرقيب المطلع على جميع أعمالهم وتصرفاتهم، فعليهم أن يراقبوا الله تعالى ويخشوا عقابه، ويكفوا عن محارمه، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه مخاطباً رسوله والناس جميعاً: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ، وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ، وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ، وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

والآية تصويرٌ دقيق لعلم الله الشامل، ومعرفة بأحوال العباد، فإن الذي لا يخفى عليه مثقال ذرة في العالم العلوي والسفلي، ولا يغيب عن نظره وزن ذرة في سائر الكائنات والموجودات، كيف يغيب عنه

وتخفى عليه أعمال عباده، سواء المطيع منهم والعاصي، والبر منهم والفاجر؟ أفلا يجب على الناس أن يراقبوا ربهم في سائر أعمالهم، وهو الذي قد أحاط بكل شيء علماً؟

«كلام الحافظ ابن كثير في الآية»

قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية: يخبر تعالى نبيه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله، وأحوال أمته، وجميع الخلائق، في كل ساعة ولحظة وأوان، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها، في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين - وهو اللوح المحفوظ - كقوله جلت عظمتة ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا، وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ، وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(١). فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات، وكذلك الدواب السارحة، وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء، فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة، ولهذا قال ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٢).

«البشارة للمؤمنين المتقين»

وإذا كان جو الآية يوحي بالهيبة، والعظمة، والجلال، ويدخل إلى القلوب الفزع والروع من سطوته تعالى وعقابه، فقد جاءت الآيات

(١) سورة الأنعام آية رقم / ٥٩ .

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٢ / ١٩٩ .

بعدها طريّة نديّة، تُبشّر المؤمنين المتقين بما أعدّه الله لهم من النعيم الدائم في دار الخلد والكرامة، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب، وفي ذلك يقول جل ثناؤه وتقدست أسماؤه ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ. لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وأولياء الله: هم أحبّاءه وأصفيأؤه، الذين اختارهم الله لجواره في دار الخلد والنعيم، وهم كلُّ مؤمن متّق لله، فإنه وليُّ الله كما فسّرهم تعالى بقوله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ فكل من كان تقياً، كان لله ولياً، وقد بشرهم تبارك وتعالى ببشارتين عظيمتين ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أما بشارتهم في الدنيا فهي عند الاحتضار والانتقال من هذه الدار، تبشّره الملائكة بالجنة والرحمة والمغفرة كما قال سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا، تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا، وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾^(١) وأما بشارتهم في الآخرة فهي كما قال سبحانه ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ، هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾^(٢).

«تفسير البشّرى بالرؤيا الصالحة»

وقد جاء تفسير البشّرى عن رسول الله ﷺ في حديث أخرجه الإمام أحمد في المسند بأنها «الرؤيا الصالحة، يراها المسلم أو تُرى له» والمراد بالرؤيا الصالحة الرؤيا الحسنة في المنام. ومن أوصاف أولياء الله الذين أكرمهم الله بهذه البشارة، أنهم إخوة في الله، تحابّوا في

(١) سورة فصلت آية رقم / ٣٠ .

(٢) سورة الأنبياء آية رقم / ١٠٣ .

مرضاة الله، كما رُوي ذلك في حديث صحيح أخرجه أبو داود في سننه، وهو قوله عليه أفضل الصلاة والتسليم: «إن الله عبداً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة، لمكانهم من الله، قالوا: أخبرنا من هم؟ وما أعمالهم؟ فلعَلَّنا نجبهم!! قال: هم قوم تَحَابُّوا في الله، على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، ثم قرأ ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾» الآي اللهم اجعلنا منهم.

«مواساة وتسلية للرسول ﷺ»

وبعد ذلك البيان الوافي الشافي، حول ولاية الله لعباده المؤمنين الصادقين، في الآيات السابقة، وبيان أنهم في كنف الله وحفظه لأنهم أحبابه وأولياؤه، جاءت الآيات ترفع الأكدار والأحزان، عن قلب الرسول عليه الصلاة والسلام، وتمسح ما علقَ به من آلامٍ مُمِضَّةٍ، من أثر تكذيب قومه له، فقد كان صلوات الله وسلامه عليه يُحْزِنُه أن يقول عنه المشركون: إنه كاذبٌ، مفترٍ على الله، بعد أن كان مشهوراً عندهم أنه الصادق الأمين، فكيف يصبح الصادق كاذباً، والأمين خائناً؟! وكان ذلك يُؤثِّرُ أشدَّ الأثر في نفسه، ويقلق مضجعه، فجاءت الآيات تُسَلِّيه وتواسيه، وتخفف عنه وقع تلك الافتراءات والأكاذيب التي تخرَّصها المفترون الجاحدون، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ، إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً، هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ، إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ، وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

لقد كَذَّبَ الكُفَّارُ الرسولَ، وأثاروا في وجهه أنواع الشكوك والاتِّهامات وتوعَّدوه بالتشريد والإخراج من الوطن، ثم بالقتل إن لم يكفَّ عن دعوته، فنزلت الآية تسليَّةً له عليه السلام ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي لا تهتمَّ يا محمد بوعيدهم وتهديدهم، ولا تحزن وتألَم من تكذيبهم، وهنا يلزم الوقفُّ كما نبَّه المفسرون عند قوله «وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ» لئلاَّ يُوهَم أن بقية الآية من قولهم فيفسد المعنى، ولهذا يقولون: الوقف هنا لازم، ثم ابتدأ تعالى فقال ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ فهو كالتعليل والتدليل على عدم الحزن، من سفه أولئك المجرمين، لأن العزة والغلبة، والقدرة والسلطان، لله جميعاً، فهو ناصرُك، ومانعُك، ومعينُك، ومن كان الله معه فلن يَقهَره أحدٌ، ولا ينبغي أن يخاف أحداً، وكان الآية تقول لرسول الله عليه السلام: إذا كان المشركون يتعزَّزون بكثرة الأعوان والأنصار، ويفخرون بوفرة الأملاك والأموال، ويخوِّفونك بها - وتلك الأشياء كلها لله تعالى - فهو القادر على أن يسلب منهم كل تلك الأشياء، وأن ينصرُك عليهم وينقل أموالهم وديارهم إليك، لأن العزة لله جميعاً، والغلبة والقهر له ولحزبه ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ ثم أكَّد تعالى الوعد بقوله ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي هو جلُّ شأنه، وعزُّ سلطانه، السميع لما يقولون، العليم بما يعزمون ويكيدون، وسينتقم لك منهم، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات.

«الله هو المالك المتصرف»

وتأكيداً لهذا المعنى في نصرة الله لرسوله، وحفظه وتأييده له ولأتباعه، أخبر تعالى أن كل ما في الكون ملكٌ له، لا يخرج شيء عن سلطانه، فقال تقدست أسماؤه ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ و«ألا» للاستفتاح والتنبيه أي انتبهوا أيها القوم وتفظنوا، فإن الله هو المالك لمن في السموات والأرض، ما فيها ومن فيها، فمن ذا

الذي يملك من القوة أن يقف أمام جبروت الله وسلطانه؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يقهر من أعزه الله؟ ألا وهو رسوله المصطفى، وحبيبه المجتبي؟ فالكون كله لله عبيداً، ومُلكاً، وتصرفاً، وإذا كان العقلاء المميزون، وهم الملائكة وجميع البشر في ملكه وعبوديته، فالجمادات أولى بهذه العبودية منهم.

«سفه وحماقة»

ثم سَفَهُ تعالى عقول المشركين في أنهم لا يعبدون آلهة حقاً، إنما يعبدون أوثاناً وأحجاراً، وهي أتفه وأحقر من أن ينتصروا بها، أو يتغلبوا على رسول الله بمددها ومعونتها، فقال تقდست أسماؤه: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ، إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

والمعنى: لا يملك هؤلاء المشركون الذين يعبدون غير الله، من أحجار وأشجار شيئاً من القوة، لأنهم لا يعبدون إلهاً قادراً، إنما يعبدون من لا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً، ولا يستطيع أن ينقذهم من شدة، أو يدفع عنهم كرباً، فكيف يخوفونك بالآلهة المزعومة؟ وما هم في عبادتها إلا يظنون الظنون الباطلة، والأوهام الفاسدة، يظنون الأوهام حقائق، وهم في هذا الظن كاذبون.

«الليل والنهار من مظاهر قدرة الله ووحدانيته»

ثم تلتها الآيات الكريمة، تذكّر الناس بآثار قدرته، وبديع صنعته، مع الإشارة إلى بعض نِعَمه التي غمر بها العباد، فقد هيأ لهم أسباب العيش على سطح هذا الكوكب الأرضي، وذكر من آثار قدرته الليل

والنهار، وهما من أعظم الآيات الباهرة، بالنهار يتحركون لقضاء مصالحهم، وطلب معاشهم، ويسافرون للتجارة والسياحة وطلب الرزق، وفي الليل يخلدون إلى الراحة والسكن، فينامون ليزول عنهم التعب والكلال، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ، وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ والمراد بالسماع في الآية: سماع التأمل والتدبر، والتفكر والتبصر، لا مجرد السماع بالأذن الجارحة، كما يسمع الإنسان الأصوات، فذاك سماع مذموم بعيد كل البعد عن الهدف والمراد، وقوله تعالى عن الليل ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ إشارة إلى الهدف الأسمى من خلق الليل، ألا وهو طلب الراحة، وقوله ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي جعله مضيئاً لتتهتدوا به في حوائجكم، وهذان طرفان من منافع الليل والنهار، وإلا فهناك منافع عديدة لوجود الليل والنهار، منها معرفة الأيام والشهور والأعوام، ومعرفة أوقات العبادة، والحج والصيام، ومنافع للنبات والإنسان والحيوان، يضيق عنها البيان.

وقد ذكرنا المولى جلّ وعلا بنعمة خلق الليل والنهار، التي يغفل عنها كثير من البشر، فإنه لو استمرت الحياة فكانت كلها ليلاً، لتعطلت مصالح الناس، وتعطلت أسباب العيش، فلم ينبت نبات ولا ثمار ولم يعش إنسان ولا مخلوق، لأنها جميعاً تحتاج إلى الشمس، ولو كانت الحياة كلها نهاراً لما أمكن العيش، لأن الإنسان يحتاج إلى الراحة والهدوء النفسي، لأنه ليس آلة دائبة، تشتغل دون انقطاع، ولو لا غياب الشمس لاحتقرت كل الزروع والثمار، بأشعة الشمس اللاهبة، بل واحتقرت جلودنا وأجسامنا، ولهذا ذكرنا الله سبحانه بنعمة تعاقب الليل والنهار، وعدم استمرارهما على وتيرة واحدة، فقال تقدست أسماؤه في

سورة القصص: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - أَيْ دَائِمًا مُسْتَمِرًّا دُونَ انْقِطَاعٍ - مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ؟ أَفَلَا تَسْمَعُونَ؟ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ؟ أَفَلَا تُبْصِرُونَ؟ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، لَتَسْكُنُوا فِيهِ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

«نسبة الذرية لله سفة وجهالة»

وبعد هذا البيان الواضح، حكى القرآن نوعاً آخر من أباطيل وضلالات المشركين، وضلالات أهل الكتاب، فقد جعلوا لله ذرية ونسباً، وألحقوا به بنين وبنات، وهو الواحد الأحد، الغني عن الزوجة والولد، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا، سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا - أَيْ هَلْ عِنْدَكُمْ حُجَّةٌ وَبَرَهَانٌ عَلَى هَذَا الْاِفْتِرَاءِ وَالبُهْتَانِ؟ - أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ. قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ. مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ، ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ وهكذا قصم القرآن الكريم ظهر الباطل، بهذه الآيات البينات، في حجته الدامغة، وبرهانه الناصع.

«قصص ثلاث للعظة والاعتبار»

وقد تناولت السورة ضمن ما تناولته من أبحاث، الحديث عن قصص بعض الأنبياء، فذكرت قصة نوح عليه السلام شيخ الأنبياء، لأنه كان أطول الأنبياء عمراً، وأكثرهم بلاءً، وأقلهم أتباعاً، ثم قصة موسى

وهارون مع الطاغية الجبار «فرعون اللعين» الذي ادعى الربوبية، وأذاق بني إسرائيل ألوان العذاب، ثم قصة يونس مع قومه المكذبين، الذي سميت السورة الكريمة باسمه «سورة يونس» تشريفاً له وما كان من نهاية المطاف في خبر الأمم السابقين.

والغرض من ذكر هذه القصص تسلية الرسول عليه السلام لما كان يلقاه من أذى قومه المشركين، ليكون له ولأصحابه أسوةً بمن سلف من الأنبياء، فيهون عليه ما يلقاه من الشدائد والمكاره، فإن الرسول إذا سمع أن معاملة هؤلاء الكفار مع جميع الرسل، ما كانت إلا على هذا الوجه من العناد، والأذى، والتكذيب، خفَّ ذلك على قلبه، كما يُقال: المصيبة إذا عَمَّتْ خَفَّتْ، ومن ناحية أخرى فإن الكفار إذا سمعوا هذه القصص والأخبار، وعلموا أن السفهاء وإن بالغوا في إيذاء الأنبياء، إلا أن الغلبة والنصرة كانت في النهاية للرسل وأتباعهم، كان سماعهم لأمثال هذه القصص سبباً داعياً لانكسار قلوبهم، ووقوع الخوف والفرح في صدورهم، وحينئذٍ يُقَلِّلُونَ من أنواع الإيذاء والسفاهة.

ولما كان موقف المشركين مع رسول الله ﷺ صلباً شديداً، وكان جدالهم معه مكابراً عنيداً، أمر ﷺ أن يجابههم بالقوة والشدّة، وأن يقصّ عليهم خبر من سبقهم من الطاغين الجاحدين، كيف عَجَّلَ الله هلاكهم بالإحراق أو بالإغراق، أو بالخسف والزلزلة، ليكسر جدّتهم، ويُخَفِّفَ جبروتهم وطمعانهم، فإن في أخبار من مضى عبرةً للمعتبرين، كما قال سبحانه: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ، وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ، فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ، وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ. فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ، وَمِنْهُمْ مَنْ

خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ، وَمِنْهُمْ مَنْ أُغْرِقْنَا، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٠٠﴾.

«القصة الأولى قصة نوح عليه السلام»

وقد أمره الله تعالى أن يبدأ لهم بقصة نوح، ويتلو عليهم خبره مع قومه، وما كان من مصيرهم المشؤوم، حيث أغرقهم الله بالطوفان، فلم يبق منهم أحداً، ونصر نوحاً وأتباعه المؤمنين وفي ذلك يقول ربنا تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ ﴿وَآتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأُ نُوحٍ﴾، إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّ كَانَ كَبَرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ، فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ، فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ، ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً، ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ. فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ، إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٠١﴾.

وإنما بدأ تعالى بذكر قصة نوح، لأنه كما أسلفنا كان أطول الأنبياء عمراً، وأشدهم بلاءً، وأعظمهم محنة، فقد صبر على قومه صبراً تعجز عن الصمود له الجبال، وتخور أمامه عزائم الرجال، ومكث مع قومه يدعوهم إلى الله، مدة تقارب ألف عام، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ، فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾. فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ، وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٢﴾.

«نوح عليه السلام من أولي العزم»

ومع هذه المدة الطويلة والأجيال المتلاحقة، فإنه لم يتبعه إلا عدد قليل لا يكاد يذكر، وهو ثمانون نفرأ على قول ابن عباس ما بين رجلٍ

وامرأة، كما قال سبحانه ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ولهذا كان نوح عليه السلام من أولي العزم، وأمر نبينا بالاعتداء به وبسائر الرسل العظام، الذين خصهم الله بما ليس في طاقة البشر، من تحمل الأذى وصنوف البلاء ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ وكان نوح أشدّهم بلاءً في هذا الأمر، ولهذا سمي شيخ الأنبياء، من حيث العمر والصبر، فقد كانت مدته في الدعوة طويلة، والحصيلة ضئيلة.

والآية هنا في سورة يونس تذكر بإيجاز قصته مع قومه، ولكنها في موطن آخر فصلت تفصيلاً دقيقاً، وذكرت بإسهاب أخباره مع قومه الجاحدين المعاندين، كما هو في سورة نوح عليه السلام، وهذه طريقة القرآن يذكر في مكانٍ القصة موجزة، بغرض لفت الأنظار إلى مكان العظة والعبرة، وفي موطن آخر يذكرها موضحة مفصلة، ليستكمل جوانب الموضوع حسب الحاجة إليه، فما جاء مجملاً في مكان، جاء مفصلاً في مكان آخر، وما جاء بإيجاز في موطن، جاء بإسهاب في موطن آخر، على حسب الحكمة والمصلحة، والحاجة التي يقتضيها ظرف الخطاب، وكما قال علماء البيان: البلاغة مخاطبة الإنسان بقدر الحاجة، وبأسلوب الحكمة، وبالطاقة التي يستوعبها فكر الإنسان.

«الغرض من الآية إظهار العزة بالله»

وغرض نوح عليه السلام في الآية الكريمة، أن يُظهر لقومه اعتزازه بالله، وعدم خوفه منهم، ومن وعيدهم وكيدهم، فمن توكل على الله كفاه، ومن استجار به حمّاه، فكيف يخاف المشركين وهو متوكل على رب العالمين؟ وهذا هو حقيقة اليقين والإيمان، وقوله سبحانه على لسان نوح ﴿إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ

تَوَكَّلْتُ ﴿﴾ معناه الجهر بالدعوة بدون مبالاة، والتحدي الصارخ لهم، فهو يقول لقومه بجرأة المؤمن، الواثق بنصر الله: إن كانت دعوتي لكم إلى الإيمان والتوحيد، شاقةً وصعبةً على نفوسكم، وكان مكثي بين ظهوركم هذه المدة الطويلة، موجباً للتنفّر والثقل، وعزمتكم على طردي وقتلي، فأنا لا أخافكم، ولا أبالي بكم، لأنني معتمدٌ على ربي، ثم زادهم في الإيضاح والبيان فقال ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ أي فاعزموا أمركم، وادعوا شركاءكم وأعوانكم، ودبروا ما تريدون لمكيدتي ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي لا يكن أمركم في شأني مستوراً، بل مكشوفاً مشهوراً، فلتكن عداوتكم وحربكم لي علناً وجهاراً ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي أنفذوا فيّ وأمضوا ما تريدونه، بأشد ما تقدرون عليه، من غير إهمال ولا إنظار، ومثل هذا الكلام يدلُّ على أنه عليه السلام، كان قد بلغ الغاية في التوكل على الله تعالى، وأنه كان قاطعاً بأن كيدهم لا يصل إليه، وأن مكرهم لا ينفذ فيه.

ثم ختم لهم النصيحة بأنه لا يريد منهم أجراً على هذا التذكير فقال ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي فإن أعرضتم عن قبول دعوتي ونصيحتي، فليس لأنني طلبت منكم أجراً حتى تمتنعوا بل لشقاوتكم وضلالكم ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي ليس ثوابي على تبليغ الدعوة إلا من الله رب العالمين الذين أسلمت وجهي له.

ثم كانت النتيجة ما أخبر عنه القرآن، وهي أخذهم بالغرق بالطوفان، قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ - أَي فِي السفينة - وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ، وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا، فَانْظُرْ كَيْفَ

كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٠٠﴾ اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ، وَلَا تَهْلِكْنَا
بِغَضَبِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

«قصة موسى عليه السلام»

وبعد أن ذكر القرآن قصة نبي الله نوح عليه السلام مع قومه
المكذبين، جاءت الآيات لتحدث عن قصة موسى وهارون مع فرعون
الطاغية الجبار، وهي القصة الثانية في هذه السورة الكريمة «سورة
يونس» وقصة موسى عليه السلام مع فرعون وأتباعه، تكررت في القرآن
الكريم في مواطن كثيرة، بألوان متنوعة، وأساليب متعددة، بشكل يثير
الانتباه، لما فيها من أحداث وأخبار عجيبة، فهي ليست قصة فردٍ من
الأفراد، مع ملك جبار، ولا قصة نبي كريم مع طاغية عنيد، إنما هي
قصة تتكرر صورها في كل زمان ومكان، وتنوع أشخاصها بين كل حين
وآن، وهي تصوّر لنا حقيقة واقعية أليمة، تصوّر الصراع بين الهدى
والضلال، والحق والباطل، وتُمثّل المعركة الحاصلة بين جند الرحمن
وجند الشيطان، تلك المعركة التي بدأت منذ فجر هذا الوجود، منذ أن
ظهر على ظُهر هذا الكون الأنبياء والمرسلون، والدعاة والمصلحون.

«صراع بين الحق والباطل»

لقد وقف «الطغيان» بجانب الكثرة الكثيرة من دعاة الباطل،
يتحدى الإيمان، ويتحدى التوحيد، ويتحدى رسالات الله، ووقف
«الهدى» بجانب القلة القليلة من أتباع الحق وأنصاره، واحتدمت
المعركة بين الهدى والضلال، والكفر والإيمان، وكانت النتيجة انتصار
الإيمان على الكفر، والحق على الباطل، وتلك سنة الله ولن تجد لسنة

الله تبديلاً، لن يغلب الباطل أبداً الحق، وإن كانت معه قوة جميع أهل الأرض، فإن للحق صولةً، وللباطل جولة، والمنتصر دائماً وأبداً جند الرحمن مصداقاً لقول الله العلي الكبير ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ. يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ، وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ، وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.

«تفصيل لقصة موسى مع فرعون»

ولنرجع إلى قصة نبي الله موسى الكليم، مع الطاغية فرعون الجبار كما قصها علينا القرآن، لتتابع أحداثها وغرائبها في سورة يونس ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا، - أي بمعجزاتنا الباهرة - فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ. فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ أي زعموا أن ما جاءهم به موسى من قبيل السحر لا من قبيل المعجزات الباهرات ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ؟ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، وَتَكُونَ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ، وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

هكذا يقابل فرعون وأتباعه دعوة الحق بالخطيئة والكبرياء، ويزعمون أن ما جاءهم به موسى إنما هو سحر وشعوذة، يريد أن ينال عن طريقها العز والسلطان، لذلك يستدعي فرعون الأنصار والأعوان ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ أي اجمعوا لي كل ساحر ماهر، عليم بفنون السحر، لأبطل بهم سحر موسى.

«إجمال في موطن وتفصيل في موطن آخر»

وقد أجمال القرآن الكريم هنا ما فصله في سورة الأعراف، من

أنهم جمعوا له السحرة من أقطار مملكته، فلما جاءوا فرعون اشترطوا عليه أن يكافئهم مكافأة سخية، إن هم غلبوا موسى، فوعدهم أن يعطيهم ما أرادوا، بل أن يُقربهم منه، فيجعلهم من خاصته، وأهل مشورته، وكل ذلك بقصد أن يتغلب بزعمه على موسى . . وإنما أجمل هنا لوضوح السياق، ولثلا يتكرر الكلام والعهد قريب بأنباء آل فرعون، وما حدث لهم بالتفصيل مع موسى عليه السلام. ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ. فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ، إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ، وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ والظاهر من النص أن فرعون قد اندحر، وأن موسى قد انتصر، بعد أن ألقى السحرة حبالهم وعصيتهم، فإذا هي أشباه ثعابين، تتحرك ذات الشمال وذات اليمين، ولكنها خيالات وأوهام، فلما ألقى موسى عصاه ابتلعت جميع تلك الحبال، مما اضطرَّ السحرة أن يسجدوا لله رب العالمين وأن يرجع فرعون مندهراً خائباً، يجر أذيال الهزيمة والانكسار، وما أحسن ما قال الشاعر:

إِذَا جَاءَ مُوسَى وَأَلْقَى الْعَصَا فَقَدْ بَطَلَ السَّحَرُ وَالسَّاحِرُ
«خوف قوم موسى من جبروت فرعون»

ثم تمضي الآيات الكريمة وهي تحكي لنا موقف بني إسرائيل من دعوة موسى عليه السلام، فقد شاهدوا بأم أعينهم تلك المعجزات العظيمة، التي أظهرها الله على يد موسى بن عمران النبي الكريم، ولكنهم خوفاً من بطش فرعون وجبروته لم يعلنوا إيمانهم، ولم يتبعه إلا عدد يسير ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ، عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾.

والمعنى: ما آمن مع موسى، ولا دخل في دينه - مع مشاهدة تلك

المعجزات الباهرة - إلا نفر قليل من أولاد بني إسرائيل، قال مجاهد: هم أولاد الذين أُرسل إليهم موسى من أول الزمان ومات آباؤهم.

﴿عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ أي مع الخوف من فرعون أن يصرفهم عن دينهم بتسليط أنواع البلاء عليهم، قال تعالى مخبراً عن طغيان فرعون ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي إن فرعون لمن المجاوزين الحد في البغي والعدوان، والقتل والتعذيب، أو من المجاوزين الحد في ادعاء الربوبية.

«اتخاذ البيوت دوراً للعبادة»

ولمّا كان المؤمنون مكلفين بالصلاة، ويخافون أن يُظهروا عبادتهم أمام فرعون والأقباط، فقد أوحى الله إلى موسى وهارون، أن يأمر بني إسرائيل بالصلاة في بيوتهم، ريثما تنكشف الغمّة عنهم، ويصرف الله عنهم طغيان فرعون الجبار ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا، وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

والمعنى: أوحينا إلى موسى وهارون أن اتخذوا لقومكما من بني إسرائيل بيوتاً للصلاة والعبادة ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي اجعلوا بيوتكم مُصَلَّي تَصَلُّون فيها عند الخوف.

قال ابن عباس: «كانوا خائفين فأمرُوا أن يُصَلُّوا في بيوتهم» وهذا يشبه حال المسلمين في الصدر الأول من الإسلام، حيث كانوا في مكة لا يستطيعون أن يجهرُوا بالصلاة أمام المشركين، فكانوا يتعبدون خفية في البيوت والخلوات. ثم أمر الله موسى أن يبشر أتباعه المؤمنين،

بالنصر والغلبة على الأعداء، إن هم أطاعوا أمر الله فقال ﴿وَبَشِّرِ
الْمُؤْمِنِينَ﴾.

«دعاء موسى على فرعون بالهلاك»

ولما ازداد طغيان فرعون وأذاه على بني إسرائيل، وبالغ موسى في
النصح والتذكير لآل فرعون، وأظهر لهم المعجزات القاهرة التي
تحملهم على تصديقه والإيمان برسالته ودعوته، ثم رأى القوم مُصِرِّين
على الجحود والإنكار، أخذ يدعو عليهم وهارون معه يؤمِّنُ على دعائه،
ومن حق من يدعو على الغير أن يذكر أولاً سبب الدعاء عليهم، لئلا
يتوهم السامع أنه يدعو عليه بدون ذنب ولا سبب، ولهذا قدَّم موسى
عليه السلام السبب والجناية التي استحق فرعون وقومه أن يدعو عليهم
نبيهم بالهلاك ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ، رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ،
وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ، فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

والمعنى: إنك يا ربَّ قد أعطيتَ فرعون وأشراف قومه الأموال
الطائلة، لتكون عاقبة أمرهم إضلال الناس عن دينك، ربنا فاسْحَقْ
أموالهم، ودمِّر ديارهم، فإنهم كفر فجرة.. فيأتيه الجواب ﴿قَالَ قَدْ
أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

والمعنى: قد أجبتُ دعاءك يا موسى على فرعون وملئه، فاستبشِرْ
بهلاكهم، واستقم على أمر الله أنت وأخوك حتى يقضيَ الله بينك وبين
القوم الظالمين، وسنرى كيف استجاب الله الدعاء، وكيف كانت نتيجة
الطغاة المتجبرِّين عن قريب إن شاء الله!!.

«بطش فرعون بالمؤمنين»

لقد تركنا الطاغية الجبار «فرعون العنيد» يبطش وينكل بالمؤمنين، ويتوعد كل من يؤمن بموسى بالقتل والتشريد ﴿قَالَ سَنُقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ، وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ، وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ ولذلك دعا موسى عليه بأن يهلكه الله ويدمره، بعد أن بلغ ذروة الجبروت والطغيان، وقد استجاب الله دعوة نبيه موسى، وبشره بأنه سيهلكه عن قريب ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وإنما قال تعالى ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ بصيغة التثنية مع أن الداعي كان موسى عليه السلام وحده؟ ذلك لأن موسى كان يدعو، وهارون كان يؤمن على دعائه أي يقول: آمين، فهو أيضاً داعٍ فهما مشتركان في الدعاء، لأن قوله آمين معناه: استجب يا رب الدعاء فهو سائل أيضاً، كما أن الداعي سائل ومتضرع، كما قال الشاعر:

يَا رَبِّ لَا تَحْرِمْنِي حُبَّهُمْ أَبَدًا ويرحمُ الله عبداً قال آميناً

«خروج موسى ببني إسرائيل من أرض مصر»

وبعد هذا الدعاء، الذي تفتحت له أبواب السماء، أوحى الله إلى نبيه موسى أن يخرج ببني إسرائيل من أرض مصر ليلاً، وأن يعبر بهم البحر، ويذهب بهم إلى أرض فلسطين، فتجهز موسى ومن معه من المؤمنين، دون أن يعلم بهم الأقباط، وخرجوا في الليل، وساروا في طريق البحر الأحمر، وأخذوا يجدُّون السير مخافة أن يدركهم فرعون بجنوده، فلما كان الصباح نظر الأقباط فوجدوا بني إسرائيل قد خلت منهم الديار، فلم يبق بها ساكن منهم، فأخبروا فرعون، فجَهَّز جيشاً جرَّاراً وخرج على عقبهم، وأراد أن يستأصل به بني إسرائيل، فلحقهم

بالجنود، وأدركهم في اليوم الثاني مع طلوع الشمس، وكان بنو إسرائيل قد وصلوا إلى البحر، فنظروا خلفهم فوجدوا فرعون بجيشه الزاحف، فأيقنوا بالخطر والهلاك، وضجوا بالعويل والصياح، وقالوا يا موسى ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ. قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

هنالك أوحى الله إلى موسى أن يضرب البحر، فيصبح له طريقاً يابساً بقدرة الله، فضربه فانفلق بقدرة رب العالمين، فكان كل فرق كالطود العظيم، ورأى بنو إسرائيل هذه الآية العظمية، فلما جاوزه موسى وخرج آخرهم منه، كان فرعون قد وصل إلى شاطئ البحر بجنوده، فأراد موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه ليعود كما كان ماءً رقيقاً، فأوحى الله إليه أن يترك البحر على حاله، لأنه يريد أن يفرق به فرعون وجنوده ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًّا - أَي سَاكِنًا عَلَى حَالَتِهِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا - إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾.

«غرق فرعون وأتباعه في البحر»

وهنا تتحدث الآيات في سورة يونس عن غرق فرعون وجنده، ونجاة موسى ومن معه من المؤمنين، ولنستمع إلى الآيات البينات وهي تقص علينا هذه الأحداث العجيبة ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ، فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا، حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ: آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ. الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ؟ فَالْيَوْمَ نُنَجِّكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾.

وقوله تعالى ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ أي قطعنا وعدنا بهم البحر «بحر القلزم» حتى جاوزوه ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا﴾

أي فلحقهم فرعون مع جنوده ظلماً وعدواناً، وطلباً للاستعلاء في الأرض بغير حق ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي حتى إذا أحاط به الغرق، وأيقن بالهلاك، تاب وأناب، وأعلن إيمانه وصدق بوحدانية الله، أظهر كلمة التوحيد والإخلاص، ظناً منه أن ذلك ينجيه من عذاب الله، وَيُخَلِّصُهُ مِنَ الْغَرَقِ، فجاءه الجواب ﴿الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي الْآنَ تَوْمَنُ حين يثُتَ من الحياة، وقد كنت من الغالين في الإفساد والضلال؟

«سؤال وجواب»

وهنا سؤال لا بدّ من الجواب عليه وهو: أن فرعون تاب ثلاث مرات: أحدها قوله ﴿آمَنْتُ﴾ وثانيها قوله ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ وثالثها قوله ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فما السبب في عدم قبول توبته، وقد بالغ في التوبة وطلب الرجوع إلى الله؟

والجواب: أن هذه التوبة توبة اليائس، وهذا الإيمان إيمان المضطر المكره على الإيمان، وفي هذه الحالة لا تكون التوبة صادقة، ولا الإيمان مقبولاً، لأنّه إيمان المكره الذي يثس من الحياة وعين عذاب الله كما قال سبحانه ﴿فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ وهذا كمن صدر عليه حكم بالإعدام لا ينفعه الندم والاعتذار، وأيضاً فإن فرعون إنما أعلن هذه الكلمة ليتوصل بها إلى دفع تلك البليّة الحاضرة، والمحنة النازلة، فما كان مقصوده من هذه الكلمة الإقرار بوحدانية الله، ولا الاعتراف بعزّة الربوبية، وذلّة العبودية، ولم تكن كلمته مقرونة بالإخلاص، إنما هي ضربٌ من ضروب النفاق، ولهذا

جاء الجواب بالتوبيخ والاستهجان ﴿وَالآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾؟ أي هلاً تبت قبل هذا، ورجعت إلى ربك قبل أن يُحيط بك الهلاك؟ وهلاً آمنت قبل هذا الزمان؟

«قذف البحر لحيثة فرعون»

ثم أخبر تعالى عن آية باهرة حدثت لفرعون، وهي: أن قومه لما أطبق عليهم البحر، وغرقوا جميعاً، نزلوا إلى قاع البحر وابتلعتهم الحيتان، إلا فرعون فقد أمر الله البحر أن يقذف بجثته، حتى يكون عبرة لأولي الألباب كما قال سبحانه ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدْنِكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ أي ففي هذه الساعة نخرجك من البحر، بجسدك الذي لا روح فيه، لتكون عبرة لمن بعدك من الناس، من الجبابرة والفراعنة، حتى لا يطغوا مثل طغيانك.

ولأنما نجى الله فرعون فلم تبتلعه الحيتان، لحكمة بليغة وهي: ليراه الناس فيعتبروا بنهاية الطغيان، ويروا أن الذي كان يزعم الألوهية، ويتشدد بملء فمه فيقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ ويقول ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ كيف كانت نهايته المشؤومة؟ وليُظهر قدرته في إهلاك العتاة الظالمين، ويتحقق للمجانين الذين عبدوه من دون الله سفههم و حماقتهم، فيروا أن الذي كان بالأمس في نهاية الجلالة والعظمة، قد آل أمره إلى نهاية الذلة والمهانة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن بعض بني إسرائيل شكوا في موت فرعون، فأمر الله البحر أن يلقيه بجسده، سويّاً بلا روح، ليتحققوا موته وهلاكه».

وهكذا كانت نهاية الطغيان، فقد أغرق الله فرعون وجيوشه

وأتباعه، ونجّى عباده المؤمنين، وصادف يوم هلاكهم يوم عاشوراء، فصامه موسى شكراً لله عز وجل، ولما هاجر نبينا ﷺ إلى المدينة المنورة، وجد اليهود يصومون هذا اليوم، فسألهم عنه فقالوا: هذا يوم عظيم، نجّى الله فيه موسى وأغرق فرعون فنحن نصومه شكراً لله تعالى فقال عليه السلام: نحن أحق بموسى منكم، فصامه وأمر بصيامه^(١).

«تمرد بني إسرائيل بعد نجاتهم من فرعون»

لا تزال الآيات الكريمة تطالعنا بمشاهد من مخازي اليهود، فبعد أن نجاهم الله من شر الطاغية فرعون الجبار، وأغرق أعداءهم في البحر، وأكرمهم بأنواع النعم الدينية والدنيوية، عادوا إلى التمرد والعناد، والعصيان لأوامر الله جل وعلا، وكان أول عملٍ قبيح ارتكبه بعد أن نجاهم الله من طغيان فرعون وجبروته، أنهم عبدوا العجل في غيبة موسى عليه السلام - والعجل ذكر البقر - ولكنهم لإغراقهم في الوثنية اتخذوه إلهاً وعبدوه من دون الله، وزادوا في الغي والضلال فطلبوا من نبيهم موسى «رؤية الله عز وجل» فقالوا له ما حدثنا عنه القرآن ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً، فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ واتهموا الله عز وجل باتهامات فظيعة شنيعة، فزعموا أن الله فقير وأنه بخيل، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، ثم كان من شأنهم في نهاية المطاف تحريفهم لكلام الله في التوراة، وجاء أبناؤهم من بعدهم فكذبوا رسالة نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم من رواية عبد الله بن عباس، وانظر جامع الأصول

«تنازعهم واختلافهم في أمر الدين»

وهنا في سورة يونس يذكرنا الله تعالى بما فعل أسلافهم بعد تخليصهم من الفراعنة، وإغداق النعم عليهم، من صنوف البغي والعدوان، فقد اختلفوا وتنازعوا في أمر الدين، وتفرقوا إلى شيع وأحزاب، يضلُّ بعضهم بعضاً، ويكفر بعضهم بعضاً، وجعلوا الدين وراءهم ظهيراً، وإلى ذلك تشير الآيات البينات، وهي قوله تقدست أسماؤه ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأً صِدْقٍ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

ومعنى الآية الكريمة ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأً صِدْقٍ﴾ أي أنزلناهم وأسكناهم بعد إهلاك أعدائهم مكاناً محموداً، ومنزلاً صالحاً مرضياً، وأورثناهم ملك فرعون وسلطانه، فعاشوا في بلاد مصر، وأطراف الشام، منعمين مكرمين، ولكنهم لم يشكروا الله على هذه النعمة، في أنهم صاروا أحراراً بعد أن كانوا عبيداً، وصاروا مالكين بعد أن كانوا مملوكين، ومستدلين مستضعفين في الأرض ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي رزقناهم من أنواع اللذائذ الطيبة النافعة، من شتى الحبوب والزرور والثمار، فإن أرض مصر كانت كثيرة الخصب، غزيرة الأرزاق، ومع ذلك فقد أورثهم الله جميع ما كان في ملك فرعون وقومه، من مساكن ومزارع، وكنوز وأموال، كما قال سبحانه في سورة الدخان ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ. وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ. كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ قال الحافظ ابن كثير: والمراد بهم بنو إسرائيل، فقد استولوا - بعد غرق فرعون وقومه - على الممالك القبطية، والبلاد المصرية، وعاشوا في رَغَدٍ من العيش، كما قال تعالى ﴿وَأَوْرَثْنَا

الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴿١﴾ .

ثم قال تعالى عن بني إسرائيل ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي فما اختلفوا في أمر الدين، إلا من بعد ما جاءهم العلم، وهو التوراة التي فيها حكم الله، وهذا ذمٌ لهم، لأن اختلافهم كان بسبب الدين، والدين يجمع ولا يفرق، ويوحد ولا يشتت، فكيف قابلوا النعمة بالجحود، وفعلوا ضدَّ المقصود، فبدلوا الاتفاق بالاختلاف، والحبُّ بالتنازع والبغضاء؟! . والآية تحذيرٌ لنا نحن معشر المسلمين، أن نفعل مثل صنيعهم، فنختلف ونتفرق، ونتعادي وتباغض، فنصبح مثلهم في البغي والخروج عن شريعة الله، وقد ورد في الحديث الصحيح «إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وأن النصارى اختلفوا على اثنين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، منها واحدة في الجنة، واثنتان وسبعون في النار، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «من كان على ما أنا عليه وأصحابي»^(١) وذهب الإمام ابن جرير الطبري وغيره إلى أن هذه الآية إنما هي فيمن عاصروا زمن النبي ﷺ ولم يؤمنوا به بعد أن ظهر لهم الحق كالشمس في رابعة النهار، فقد قال الطبري: كانوا قبل أن يُبعث محمد ﷺ مجمعين على نبوته، والإقرار بمبعثه، فلما جاءهم ما عرفوا كفر به بعضهم، وآمن البعض، فذلك اختلافهم بعدما جاءهم العلم^(٢) .

ثم قال تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ .

(١) الحديث أخرجه الحاكم بهذا اللفظ وهو في السنن والمسانيد بنحوه .

(٢) انظر جامع البيان للطبري ١٦٧/١١ .

أي إن ربك يا محمد هو الذي يفصل بينهم في الآخرة فيما اختلفوا فيه وتنازعوا من أمر الدين، ويجازي كلًّا بما يستحقه، ويميز بين المحقين والمبطلين، فإن الدنيا دارُ التكليف وليست دار القضاء والجزاء.

«الاستمساك بشريعة الله وعدم الشك»

ثم تلتها الآيات الكريمة تأمر الرسول ﷺ بالتمسك بشرع الله، والاعتصام بحبله المتين، وعدم الشك فيما أوحى إليه من ربه من أمر الدين، فإن ما جاءه إنما هو الحق المبين، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ، فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ، لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ. وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

والخطاب في الآية - وإن كان في الظاهر مع الرسول عليه السلام - إلا أن المراد به هو الأمة، كأنه يقول: لا تشكُّوا يا معشر المؤمنين في هذا القرآن، فإنه حق منزل من عند الرحمن، قال الفخر الرازي: ومثل هذا معتاد في الكلام، فإن السلطان الكبير إذا كان له أمير، وكان تحت راية الأمير جمع غفير، فإذا أراد أن يأمر الرعية بأمرٍ مخصوص، فإنه لا يوجه خطابه إليهم، بل يوجه ذلك الخطاب إلى ذلك الأمير، الذي جعله أميراً عليهم، ليكون ذلك أقوى تأثيراً في قلوبهم، وقد ورد في القرآن الكريم آيات خوطب بها النبي عليه السلام، وأريد بها أمته كقوله تعالى ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ وكقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ وقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ، وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ وهذا على حدِّ المثل المشهور القائل «إِيَّاكَ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَةَ».

«قول آخر في الآية الكريمة»

وقال بعض المفسرين: إن الآية واردة مورد الفرض والتقدير: أي إن فرض أنك شككت فاسأل أهل الكتاب، ولهذا قال قتادة: «بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: لا أشك ولا أسأل»^(١) وهكذا قال ابن عباس: لم يشك النبي ﷺ ولم يسأل، ثم قال تعالى ﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقرءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي فاسأل أهل الكتاب الذين يعرفون التوراة والإنجيل، وهم الأحرار والرهبان، فإن ذلك محقق عندهم كما قصصنا عليك، ثم ختم الله الآيات بقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ - أَي وَجِبَتْ لَهُمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ بِالْمَشِيئَةِ الْأَزَلِيَّةِ - لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ، حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ وهكذا يقيم الله الأدلة والبراهين على صدق هذا القرآن، بأبلغ أسلوب وأفصح بيان، اللهم اجعلنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، واختم لنا بخاتمة الخير والسعادة يا رب العالمين.

«قصة يونس عليه السلام»

وبعد أن انتهى الحديث عن قصة موسى عليه السلام، وعن أخبار بني إسرائيل، جاءت الآيات لتحدث عن قصة يونس عليه السلام، وهي القصة الثالثة في هذه السورة الكريمة، والتي سميت السورة باسمه تكريماً وتشريفاً له «سورة يونس» وهي هذه السورة التي نحن بصدد الحديث عنها.

وقد ذكر نبيُّ الله يونس عليه السلام باسمه في القرآن أربع مرات «في النساء، والأنعام، ويونس، والصافات» وذكر بلقبه ووصفه في

(١) أخرجه ابن المنذر، وعبد الرزاق، وابن مردويه عن ابن عباس موقوفاً.

موضعين اثنين: في سورة الأنبياء حيث لُقِّبَ بذي النون، وهو الحوت لأن الحوت ابتلعه فنسب إليه كما قال سبحانه ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ، فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وفي سورة القلم حيث لُقِّبَ بصاحب الحوت كما قال سبحانه ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ. لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾.

«من سنن الله الكونية»

والآيات تتحدث عن سُنَّةٍ من سنن الله الكونية، في إهلاك الظالمين، وهي أن العذاب إذا نزل بأمة بدعاء نبيها عليها، فلن يُرفع عنها العذاب، إلا ما كان من قوم يونس، فقد كان لهم مع نبيهم شأن آخر، حيث رفع عنهم العذاب بتوبتهم وإنابتهم ورجوعهم إلى الله، بعد أن خرج عنهم نبيهم ساخطاً وغازباً عليهم، وأوعدهم بنزول العذاب، ولكن الله فرَّج كربتهم بصدق إيمانهم، وتوبتهم إلى الله، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ، لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾.

روي أن يونس عليه السلام، بُعث إلى أهل «نينوى» من أرض الموصل بالعراق، وكان أهل نينوى قد دخلت إليهم الوثنية، وانتشرت فيهم عبادة الأصنام، فذهب إليهم نبي الله يونس عليه السلام، فدعاهم إلى الله وإلى توحيده، ونبذ عبادة الأوثان، فكذبوه ولم يستجيبوا لدعوته، شأن أكثر أهل الأرض، الذين لا يستجيبون لدعوة الله، فذهب عنهم

مغاضباً، فلما فقدوه خافوا نزول العقاب، فلبسوا المسوح وعجّوا أربعين ليلة بالدعاء إلى الله، وطلب التوبة والاستغفار، وكان يونس قد قال لهم: إن أجلكم أربعون يوماً ثم غادرهم، فلما مضت خمس وثلاثون ليلة، ظهر في السماء غيم أسود شديد السواد، وشعروا بأن الله سيهلكهم لأنهم لم يصدقوا رسوله، ولم يطيعوا أمره، فخرجوا إلى الصحراء، وفرّقوا بين النساء والصبيان، وبين البهائم وأولادها، فعلت الأصوات، وكثرت التضمرات، وأظهروا الإيمان والتوبة، فلما عرف الله الصدق من قلوبهم، والتوبة والندم على ما مضى منهم، كشف الله عنهم العذاب، بعد أن كاذ ينزل عليهم، وهذا معنى الاستثناء في الآية الكريمة ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ﴾ أي فهلاً كانت قرية من القرى التي أهلكتها، تابت عن الكفر، وأخلصت الإيمان، عند معاناة العذاب، فنفعتها إيمانها في ذلك الوقت، إلا ما كان من قوم يونس، ثم قال تعالى ﴿لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ أي أنقذناهم بعد أن شارفهم العذاب، وأخرناهم إلى انتهاء آجالهم.

«يونس في بطن الحوت»

وسبب كشف الغمة والبلاء عنهم، أنهم لجأوا إلى الله عن صدق وإخلاص، وأن نبههم قد خرج من بين أظهرهم، ساخطاً عليهم قبل أن يستأذن ربه في الخروج، وهذا بالنسبة لمقامه العظيم يعتبر ذنباً، ولذلك لما ركب البحر هاجت السفينة واضطربت، وقال ربّانها: إن بينكم عبداً آبقاً من سيّده، ولا بدّ لنجاتنا من إلقائه في البحر، فاستهموا - أي ضربوا القرعة - فوقعت عليه فألقوه في البحر، وهذا معنى قوله تعالى في سورة

الصفات ﴿وَإِنْ يُنُوسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ - أي هرب إلى السفينة الممتلئة بالرجال والركاب - ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أي فاقترع مع أهل السفينة فكان من المغلوبين بالقرعة فألقيه في البحر، قال تعالى ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي فابتلعه الحوت وهو ملوم على صنيعه، لأنه لم يصبر على قومه وخرج مغاضباً لهم بغير إذنٍ من ربه ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ . لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ الآيات ولذلك عاتبه الله على فعله، وتاب على قومه، ومتعهم ببقية حياتهم الدنيوية كما قال سبحانه ﴿فَأَمِنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ .

«نجاة قوم يونس من العذاب»

وهذه الحالة كما بين تعالى حالة استثنائية، كانت لقوم يونس بوجه خاص، وإلا فقد تاب فرعون وأتباعه حين رأوا العذاب فلم تنفعهم توبتهم، وآمنت أمم فلم ينفعها الإيمان، لأن عذاب الله إذا جاء لا يؤخر، ولا يُردُّ بأسه عن القوم المجرمين.

وإنما ذكر تعالى قصة يونس مع قومه تسليّةً لرسول الله عليه الصلاة والسلام، وحثاً له على الصبر، وعدم الضيق والضجر، فإن الأنبياء إنما أرسلوا بالرحمة لا بالعذاب، فعليهم أن يتحملوا الشدائد، ويصبروا على المصائب، ويدوقوا الأذى رحمة بعباد الله، ولا يتسرعوا في الدعاء عليهم، ولذلك قال الله لرسوله محمد عليه الصلاة والسلام ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ . لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ . فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ

مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَإِنَّهُ لَدَرَسٌ بَلِيغٌ لِلدَّعَاةِ وَالْمُرْشِدِينَ ، وَالْقَادَةِ
وَالْمُصْلِحِينَ ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا هَادِينَ مُهْتَدِينَ ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ .

«الحكمة في عدم إجبار الناس على الإيمان»

ثم تلتها الآيات الكريمة توضح حكمة الله في ترك أمر الإيمان إلى
اختيار البشر، ليكون إيمانهم عن رضى واختيار، لا عن إكراه وإجبار،
فلو شاء الله لقسر الناس على الإيمان، وأجبرهم على الخضوع
والإذعان، ولو أراد لما جحد جاحدًا، ولا كفر كافر، ولكن هذا منافٍ
للحكمة الإلهية الأزلية التي من أجلها خلق الله الخلق، وأوجد العالم،
ليترتب على ذلك الثواب والعقاب، ودخول الجنة أو النار، وفي هذا
يقول تقدست أسماؤه ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمَّ
جَمِيعًا، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ والآية صريحة في ترك
الأمر في الإيمان إلى اختيار الناس، وهذا ما يسميه العلماء بالجزء
الاختياري، وهو الذي يترتب عليه الثواب أو العقاب، فله جل وعلا
مشيئة، وللعبد مشيئة ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ولله خلق، وللعبد
كسب كما قال سبحانه ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ
لِمَنْ نُرِيدُ، ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا. وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ
وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ .

فقد قرر الله صراحة أن للإنسان الإرادة، والسعي، والاختيار،
وهذا هو الحق الساطع في أمر الإيمان بالقضاء والقدر، فمع التقدير
الأزلي هناك الكسب والاختيار، وليس على الإنسان شيء من الإجبار،
قال ابن عباس «كان النبي ﷺ حريصاً على إيمان جميع الناس، فأخبره
تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبقت له السعادة في الذكر الأول، ولا يضل

إِلَّا مَنْ سَبَقَتْ لَهُ الشَّقَاوَةُ فِي الذِّكْرِ الْأَوَّلِ»^(١) ولهذا جاءت الآية بعدها تؤكد هذا الأمر ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فأخبر تعالى أن مع الاختيار قضاءً أزلياً سابقاً، وأن أمر الهداية بيد الله، اللهم اشرح صدورنا بالإيمان، ونور عقولنا بالقرآن، يا أرحم الراحمين.

«النظر في الآيات الكونية»

وبعد أن أفاض تعالى في ذكر قصص الأنبياء والمرسلين، للعتة والاعتبار، وتسليّة للنبي عليه الصلاة والسلام مما يلقيه من أذى الكفرة الفجّار، جاءت الآيات تنذر المشركين بعذاب عاجل، إن لم يكفّوا عن بغيهم وكفرهم وضلالهم، وتأمّروهم أن ينظروا في ملكوت السموات والأرض، ليعلموا علم اليقين أن لها خالقاً مدبراً حكيماً، وأن هذا الكون لم يخلق عبثاً، ولم يوجد ما فيه سُدى، بل خلق لغاية سامية، هي معرفة الله جل وعلا بآياته وأسمائه وصفاته، فمن لم يستعمل عقله في النظر والاستدلال بالدلائل السماوية والأرضية، على وجود هذا الخالق المبدع، فهو إلى البهيمية أقرب منه إلى الإنسانية، بل إنه شرٌّ من البهائم والأنعام، لأنها خلقت لغاية فهي تؤدي هذه الغاية، وأما الإنسان فلا يعرف لماذا خلق، ولماذا وجد؟ وقد أمرت الآيات أيضاً أولئك المعرضين عن آيات الله، المكذبين لرسله، بالنظر في أحوال الأمم الماضية، ليعرفوا ماذا حلّ بهم من عقوبة ونكال، ويقفوا على مصارع الغابرين، فيتعظوا ويعتبروا قبل أن ينزل بهم العذاب والدمار، كما نزل بأولئك الأشرار الفجّار، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿قُلْ

(١) ذكره الحافظ ابن كثير عن ابن عباس. وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٣١/١ وجامع البيان للطبري ٦٥/١.

انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ . فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ، قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠﴾

«وعيد وتهديد للغافلين»

والآية - كما هي واضحة في دلالتها - إرشاد وتذكير، وهي تحمل في مضمونها الوعيد والتهديد، لأولئك الذين أغمضوا أعينهم عن النظر في دلائل القدرة والوحدانية، وصموا آذانهم عن سماع دعوة الحق، فلم يستجيبوا لدعوة الله، ولم يطيعوا رسل الله، ومعنى الآية الكريمة ﴿قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار: انظروا نظرَ تفكر واعتبار، ما الذي في السموات والأرض من آيات الله الباهرة، التي تدل على وحدانيته وكمال قدرته، وليس المراد مجرد النظر إنما هو نظر العظة والعبرة، التي تخرج الإنسان من رق التقليد الأعمى للآباء والأجداد، ثم قال تعالى محذراً ومنذراً ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي وأي شيء تغني الآيات السماوية والأرضية، وماذا تفيد الرسل بآياتها وحججها وبراهينها، الدالة على صدقها، عن قوم لا يفكرون بعقولهم، ولا يؤمنون بربهم؟ هل ينفع الأعمى نظره إلى جمال الأنهار الدافقة، والأشجار الباسقة، فمن كان أعمى القلب لا ينتفع بما يرى من الآيات البينات، والدلائل الساطعات لمعرفة ربه القدير، ثم جاء الوعيد مقروناً بأشد أنواع التهديد ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾؟ أي وهل ينتظر كفار مكة إلا مثل أيام أسلافهم، وما حل بهم من العذاب والنكال؟ ﴿قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ أي قل لهم يا محمد: انتظروا عاقبة البغي والتكذيب، فأننا معكم أنتظر وعد ربي بهلاككم ودماركم، وقد كان الرسل يتوعدون

كفار زمانهم بمجيء أيام العذاب عليهم، فيسخرّون منهم ويستهزئون، وكذلك الكفار في زمانه عليه الصلاة والسلام، كانوا يقولون سخرية واستهزاء: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؟ فأمره الله تعالى أن يقول لهم ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾.

«البشارة بقرب النصر»

ثم بشر تعالى رسوله بالنصر القريب العاجل له ولأتباعه المؤمنين، فقال تقدست أسماؤه ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال الربيع بن أنس: «خوفهم تعالى عذابه ونقمته، ثم أخبرهم أنه إذا وقع من ذلك شيء، أنجى الله رسله والذين آمنوا معه» وهذه من سنن الله الكونية، أن الله تعالى تكفل بنصرة الحق، ونصر أوليائه المؤمنين ورسله المكرمين، كما قال سبحانه ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فالنصر للرسل ولأتباع الرسل، ولكل من استمسك بالهدى والحق، دنيا وآخرة كما قال تقدست أسماؤه ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ. يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ، وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ فالنصر وإن تأخر لكنه لا بد أن يأتي للرسل وأتباعهم، لأنه وعد مقطوع به مؤكد، لا يقبل الخلف كما قال سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ. كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

«سنة الله في نصر أنبيائه وأوليائه»

ولنستعرض تاريخ الدعوات في القديم والحديث، نشاهد أنه على مدى العصور والأزمان، كان الرسل وأتباعهم هم المنصورون دائماً

وأبدأ، وإن كانوا يُبتلون في بعض الأحيان ولكن العاقبة الحميدة، والغلبة والنصر لهم في النهاية، لأن هذا من سنته تعالى التي لا تتبدل.

لقد نصر الله تعالى إبراهيم على النمرود، ونصر موسى على فرعون الجبار، ونصر عيسى على أعدائه اليهود المجرمين، ونصر خاتم المرسلين على كفار مكة العُتاة الضالين، وهكذا لم يتخلف وعد الله أبداً، وفي بدء الدعوة الإسلامية، كان المسلمون في ضيق وشدة، يعانون أشد أنواع البلاء، ويدوقون أصناف العذاب من الكفرة المشركين، فكانوا يأتون رسول الله ﷺ يشكون إليه ما يفعله بهم المشركون، ويطلبون منه أن يدعو الله لهم بالنصر وهلاك الأعداء، فكان صلوات الله وسلامه عليه يواسيهم، ويخفف عنهم الآلام والأحزان، ويأمرهم بالصبر، ويعددهم بقرب النصر، يصور لنا تلك الشدة التي كان عليها المؤمنون ما أخرجه البخاري في صحيحه عن خباب بن الارت رضي الله عنه قال: «شكونا إلى رسول الله ﷺ - وهو متوسد بُردة له في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة - فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال ﷺ: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل، فيُحفر له في الأرض، فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»^(١) وهكذا حقق الله وعده، فنصر عبده، وأعز جنده، ومَلَكَ المسلمين ما لم يكن يخطر على بال، مَلَكَهم ملك كسرى وقيصر، وفتح لهم البلاد، ودانت

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه من حديث خباب بن الارت.

لهم رقاب العباد، وصاروا في عِزٍّ مكين، وجاهٍ عظيم، بعد أن كانوا في الذل والهوان مصداقاً لقوله تقدست أسماؤه ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ، تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ، فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وما كان هذا العِزُّ والتمكين، إلا تحقيقاً لوعده الله القاطع ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ اللهم انصر حزبك وجندك وعبادك المؤمنين، واجعلنا من أنصار هذا الدين يا أرحم الراحمين.

«دعوة إلى الإيمان وعبادة الرحمن»

تقدّم معنا أن هذه السورة الكريمة تتميز بطابع التوجيه إلى الإيمان بالله، وبالرسالات السماوية المقدسة وتُعنى بشكل خاص بأصول العقيدة الإسلامية الصافية، وتقيم الحجج والبراهين على أحقية دين الإسلام، وصدق نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، فما كان هذا الدين الخالد، الباقي إلى قيام الساعة، الذي مكّن الله له في الأرض، وأعلى قدره على سائر الأديان، ما كان ديناً وضعياً من اختراع البشر، ولا كان هذا القرآن الذي نزل على محمد بأبلغ أسلوب، وأوضح بيان، ليفترى على الله، بل هو تنزيل الحكيم الحميد، فلا داعي للمشركين للعجب من بعثة خاتم النبيين، ولا للتشكيك في دينه، فإن ما جاءهم به حقٌ منزل من عند الله، ودينه الذي يدعو الناس إليه مؤيد بالحجج والبراهين، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه، مرشداً نبيه إلى أسلوب إفحام الخصم بالبرهان النير: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي، فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً،

وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ إنها الحجة الدامغة يُلْقِنُهَا اللهُ عز وجلّ لرسوله عليه السلام، وكأنه يقول قل لهم: لا ينبغي أن تشكُّوا في ديني، فديني الذي أدعوكم إليه مؤيَّدٌ بالعقل والنقل، وإنما ينبغي أن تشكُّوا في دينكم الأعوج، الذي فيه عبادة حجارة، لا تسمع ولا تعقل، ولا تضر ولا تنفع، فأما إلهي الذي أعبد، فهو الذي يحيي ويميت، ويُعزُّ ويذل، ويقبض ويبسط، وهو القادر على كل شيء، والمالك لكل شيء، يُحيي النَّاسَ من العدم، ثم يفيئهم ثم يبعثهم مرة أخرى، فهذا هو ربي الذي أومن به، وهذا هو ديني الذي أدعو إليه، ولهذا خُتِمت الآية بهذا الختم الرائع ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وأنا مأمور أن أكون عبداً مؤمناً مطيعاً لربي، لا أعبد أحداً سواه، أما الأوثان التي تعبدونها أنتم فإنها أحجار صماء بكماء، والإنسان أشرف حالاً منها، فكيف يليق بالأشرف الأسمى، أن يشتغل بعبادة الأخس الأدنى؟ وهذا ضربٌ من الكلام رفيع، ولحنٌ من نصوع الحجة لطيف.

«التحذير من عبادة غير الله عز وجل»

وتأكيداً لهذا المعنى القويم، في بيان سفاهة وحماقة من عبَدَ غير الله، من أحجار، وأشجار، وأبقار، لا تضر ولا تنفع، ولا تغني عن عابدها شيئاً، جاءت الآيات تحذّر الأمة في شخص نبيّها عليه أفضل الصلاة والتسليم، من موافقة المشركين في ضلالهم، في عبادة غير الله، ممّا لا يملك شيئاً من النفع والضرر، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ، فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَاً مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

وحاشا للرسول المنزّه المطهّر المعصوم، أن يعبد غير الله، أو

يعتقد بشيء من الأوثان مما يخدش العقيدة أو يطفىء شعلة الإيمان ولكنه كما أوضحنا خطاباً للأمة في شخص قائدها، كما هو عادة العظماء والملوك، يخاطبون الرئيس والزعيم، ويريدون من هو تحت إمرته وزعامته، ثم في هذا الأسلوب قطع لأطماع الجاهلين، أن يفتروا بسعة رحمة الله، فيظنوا الأمر سهلاً يسيراً، ليس فيه كثير مؤاخذه أو عقاب، إن عبدوا مع الله غيره، أو اعتقدوا بأن هناك من ينفع ويضر من ذاته غير الله تعالى، فإذا كان الرسول الأعظم يُوجِّه له هذا الإنذار، بأنه إن دعا غير الله فإنه من الظالمين لأنفسهم، الخاسرين لسعادتهم، فكيف بغيره من عامة الناس، ممن ليس له قدر الرسول، ولا مكانة الرسول؟ فأحرى به أن يتحرز عنه، ويتعد عن الشرك كل البعد.

«من صفات الإله الحق»

وإذا كان من صفات الإله المعبود بحق، أن يكون قادراً سميعاً بصيراً، يسمع وينفع، ويعطي ويمنع، ويكشف الغمة، ويدفع الشدة، ويستجيب دعاء من دعاه، فإن هذه الصفات لا تكون إلا للرحمن، فهو القادر على كل شيء، المتصرف في شؤون العباد، كما يريد ويشاء، أما الأصنام والأوثان التي يعبدها المشركون، فإن من كان عنده أدنى تمييز، يعرف يقيناً أنها لا تكشف ضراً، ولا تجلب نفعاً، ولهذا جاءت الآيات لتبين فساد عبادة الأصنام، ووجوب عبادة الرحمن، الذي ينبغي أن يُفرد بالعبادة والتعظيم والإجلال، لأنه جلّ وعلا هو وحده النافع الضار، وفي ذلك يقول تقدست أسمائه ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

ولقد كان المشركون يُخَوِّفون رسول الله من أن تمسه آلهتهم بسوء، ويتوعدونه عليه الصلاة والسلام بالفتك والبطش به، إن تعرّض لسبّ آلهتهم، أو النيل منها، فجاءت الآيات الكريمة لتبيّن له أن الأمر ليس بيدهم، إنما هو بيد الله، إن أراد لرسوله الخير أتاه به دون أن يستطيعوا دفعه، وإن أراد به السوء والأذى فلا يملك أحد دفعه، وهذه أصل عقيدة الإيمان، أن يؤمن الإنسان بالقدر خيره وشره من الله تعالى، وأن يعتقد بيقين أنه لا ينفع ولا يضر إلا رب العالمين، كما أوضح ذلك سيد ولد عدنان حين قال في وصيته الشهيرة لابن عباس (واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام، وجُفّت الصحف)^(١).

«الاستمساك بالقرآن العظيم طريق النجاة»

ثم تابعت الآيات تشيد بجلال هذا القرآن، الذي أنزله الله هدى ورحمة للعالمين، فهو الكتاب المعجز، الصادق في أخباره وأنبائه، المحفوظ من التحريف والتبديل، الذي جاء بالحق القاطع، والبرهان الساطع على أنه تنزيل رب العالمين، فمن آمن به وصدّقه، واتّبع الحق وأذعن له، فإنما يسعى لصلاح نفسه وسعادتها، ومن لم يؤمن به، وحاد عن طريق الحق، ولم ينظر بعين البصيرة، فقد شقي وخسر، لأنه عرض نفسه لعذاب الله ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي جاءكم القرآن والشرع بالنور المبين، والحق الساطع المنير ﴿فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي فمن اهتدى

(١) الحديث أخرجه الترمذي في سننه، وأحمد في المسند ٣٠٣/١.

بالتصديق والإيمان، فمنفعة اهتدائه لها خاصة، لا ينفع غيره، ومن ضلَّ بالكفر والتكذيب والإعراض عن هداية الله، فوبال الضلال مقصور عليها ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي لستُ بحفيظ أحفظ عليكم أعمالكم، ولا بمجبر لكم على الإيمان، إنما أنا مبلِّغ لرسالة ربي، فقد أكمل الله لكم الشريعة، وأزاح العلة، وقطع المعذرة.

«ختم للسورة رائع»

ثم ختم الله السورة الكريمة، بأمره عليه السلام بالاستمسك بشريعة الله، والتقيد بوحيه ودينه، والاعتصام بكتابه المبين، والصبر على ما يلقي من أذى في سبيل تبليغ رسالة ربه فقال تقدست أسماؤه ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ، وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ وهكذا بدأ الله السورة بالإشادة بالقرآن، وختمها بالاستمسك بالقرآن، والصبر على قضاء الرحمن، ليتم التناسق والانسجام بين البداية والنهاية، في أجمل صورة وأبدع بيان، اللهم افتح علينا فتوح العارفين، ووفقنا لفهم أسرار كتابك يا أرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

* * *

انتهى بعونه تعالى الجزء الرابع من كتاب «قبس من نور القرآن الكريم»
ويتلوه الجزء الخامس، والحمد لله رب العالمين

مكة المكرمة / ١٠ / ربيع الأول سنة ١٤٠٧ هـ

خادم الكتاب والسنة

محمد علي الصابوني

فهرس

٣	مقدمة المؤلف	٢٠	صفات من يعمر بيوت الله
	سورة التوبة:	٢١	حقيقة العمارة لبيوت الله
٥	مدنية وآياتها مائة وتسعة وعشرون آية	٢١	ما هي أفضل الأعمال؟
٥	الأهداف الأساسية لسورة التوبة	٢٢	الحب في الله أوثق عرى الإيمان
٩	قطع العلاقات مع المشركين	٢٣	سبب نزول الآية الكريمة
٩	سبب البراءة من الكفار	٢٣	الإيمان أغلى من الأولاد والأوطان
١٠	لماذا لم تُكتب البسملة في السورة؟	٢٤	الترتيب في غاية الحسن والتناسق
١١	إعلان القطيعة على رؤوس الأشهاد	٢٤	طريق العزة والنصرة
١١	إرسال عليٍّ لتبليغ المهمة	٢٥	اغترار المسلمين بكثرتهم في حنين
١٢	إبطال اليهود قاصر على الناكثين		نجاسة المشركين هل هي عينية أم
١٣	المدة لتمام العهد أربعة شهور	٢٦	معنوية؟
١٣	تأمين المشرك حتى يسمع كلام الله	٢٧	ما المراد بالمسجد الحرام؟
١٤	الحكمة من هذه البراءة		وسوسة الشيطان في قلوب بعض
١٥	الأسلوب للإنكار والاستبعاد	٢٨	المسلمين
١٥	ذكر قبائح وفضائل المشركين	٢٨	الأمر بجهاد اليهود والنصارى
١٦	دعوة المشركين للتوبة والإنابة	٢٩	السبب في قتال أهل الكتاب
١٦	حث المؤمنين على محاربة الكفار	٣٠	تكالهم على جمع حطام الدنيا
١٧	الأسباب الأساسية لمحاربة المشركين		لماذا قرن بين الأحرار والكانزين
١٨	التحذير من موالاة أعداء الله	٣١	للمال؟
١٩	افتخار الكفار بعمارة المسجد الحرام	٣١	ما هو المال المكنوز؟
١٩	سبب نزول الآيات الكريمة	٣٢	المال نعمة أو نقمة وهو سيلة لا غاية

٣٣	تبدیل الشهور منکر عظیم	٥٢	من أخلاق المنافقين الشنيعة
٣٤	دعوة المؤمنين إلى النفير العام	٥٤	مصيرهم المشئوم في الآخرة
٣٥	الحديث عن غزوة تبوك		ضرب الأمثال للمنافقين بالطغاة
٣٦	هجرة النبي إلى المدينة المنورة	٥٥	السابقين
٣٦	الخروج للجهاد في المنشط والمكره	٥٦	هلاك الأمم السابقة بأنواع العذاب ...
٣٧	بدء الحديث عن المنافقين		المقارنة بين أوصاف المؤمنين
	عتاب للرسول عليه السلام بسبب	٥٩	والمنافقين
٣٨	المنافقين		المؤمنون والمنافقون على طَرَفَي
٣٩	تلطف في العتاب ظاهر	٦٠	نقيض
	تعليم المسلمين الأدب مع رسول	٦١	مصير المنافقين ومصير المؤمنين
٣٩	الله ﷺ	٦٣	الجهاد بالسيف وباللسان
	الاستئذان في ترك الخروج للجهاد	٦٥	سبب نزول الآيات الكريمة
٤٠	من علامات النفاق	٦٦	قصة المنافق ثعلبة وما نزل فيه
	عدم خروج المنافقين فيه مصلحة	٦٧	سخرتهم بالمؤمنين في الإنفاق
٤٠	للمسلمين	٦٨	حضر النبي ﷺ على الإنفاق
٤١	الفتنة تركهم الجهاد في سبيل الله	٧٠	النهي عن الاستغفار للمنافقين
	حققت المنافقين على الإسلام	٧١	تخلف المنافقين عن الخروج لتبوك
٤٢	والمسلمين	٧٢	غزوة تبوك كانت في الصيف
٤٣	المؤمنون غانمون في جميع الأحوال		ما أعدّه الله للمنافقين من العذاب
٤٤	الإيمان أصل لقبول الأعمال الصالحة	٧٣	والنكاح
	انخداعهم بالأموال والبنين وهي سبب	٧٤	منعهم من الخروج للجهاد
٤٥	عذابهم	٧٤	النهي عن الصلاة على المنافقين
	الأسلحة الفتاكة نوع من أنواع		المنافقون أجبن الناس وأحرصهم
٤٦	العذاب والدمار	٧٥	على الحياة
٤٦	الأيمان الكاذبة شعار المنافقين		المجاهدون المخلصون وما أعدّه الله
٤٧	عيبهم للرسول في قسمة الصدقات ..	٧٦	لهم
	الرضى بقسمة الرسول أصل في	٧٧	المنافقون من أهل البادية
٤٨	الإيمان		الذين لا يستطيعون الجهاد من أهل
٤٩	إيذاء المنافقين للنبي ﷺ	٧٨	الأعداء
	الحلف والكذب والسخرية	٧٨	سبب نزول الآيات
٥٠	والاستهزاء صفات المنافقين	٧٩	اعتذارهم بالأيمان الكاذبة

١١٥	الرحمة المهداة.....	٨١	الأعراب أشد الناس كفراً ونفاقاً.....
١١٦	أوصافه السنية.....		قصة غريبة لبعض الوعاظ مع
١١٧	مثله ﷺ مع أمته.....	٨٢	الأعراب.....
	سورة يونس:	٨٣	البخل عن الإنفاق في سبيل الله.....
١١٩	مكية وآياتها مائة وتسع عشرة آية.....	٨٤	صفات المؤمنين المتقين.....
١١٩	الأهداف الأساسية لسورة يونس.....	٨٥	ثناء عاطر على المهاجرين والأنصار.....
	الحروف المقطعة في أوائل السور	٨٥	عودة للحديث على أهل النفاق.....
١٢٢	للتنبية على إعجاز القرآن.....	٨٦	إقرار بعض المؤمنين بذنوبهم.....
	موقف المشركين من بعثة سيد		قبول التوبة والدعاء للمتصدقين في
١٢٢	المرسلين.....	٨٧	سبيل الله.....
	دلائل القدرة والوحدانية منبئة في	٨٨	الحديث عن مسجد الضرار.....
١٢٣	الكون.....	٩٠	الثناء على أهل مسجد قباء.....
	امتنان الخالق على عباده بما أوجد	٩١	قصة أبي عامر المنافق.....
١٢٣	وأبدع.....	٩٣	بيعة رابحة مع أكرم الأكرمين.....
١٢٤	كل ما في الكون لمصالح العباد.....	٩٥	بيعة الأنصار ليلة العقبة.....
١٢٥	طغيان أهل مكة.....	٩٥	أصناف السعداء أهل الجنة.....
١٢٦	حال السعداء الأبرار.....	٩٧	النهي عن الاستغفار للمشركين.....
١٢٧	طبيعة البشر الملل والضجر.....		الحديث عن غزوة تبوك وما فيها من
١٢٨	وعيد رهيب للمكذبين.....	٩٨	غرائب.....
١٢٩	استخلاف أهل مكة في الأرض.....		المتخلفون من المؤمنين عن غزوة
١٣٠	استهزاء المشركين بسيد المرسلين.....	٩٩	تبوك.....
١٣١	البرهان القاطع على صدق النبوة.....	١٠٠	قصة الثلاثة كما في البخاري.....
١٣٢	لا أحد أظلم ممن كذب على الله.....		عتاب لبعض الصحابة رضي الله
١٣٣	عبادة المشركين للأصنام.....	١٠٣	عنهم.....
١٣٤	من غرائب القصص والأخبار.....	١٠٥	قصة الأعرابي مع النبي ﷺ.....
١٣٥	استكبار وطغيان.....	١٠٨	صور من البطولات والتضحيات.....
	إيمانهم بالله والتجاوزهم إليه عند		لا ينبغي للمؤمنين أن يخرجوا جميعاً
١٣٦	الشدائد.....	١٠٩	للجهاد.....
١٣٧	مثل الدنيا ونعيمها الزائل.....	١١٠	فضل التفقه في الدين.....
١٣٩	الجنة دار السلام.....	١١١	البدء في الجهاد بالأقرب فالأقرب...
١٤٠	مثل الرسول وأمته.....	١١٣	نهاية النفاق والمنافقين.....

١٦٣	مواساة وتسلية للرسول ﷺ	١٤٠	تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله هو المأنور
١٦٤	الله هو المالك المتصرف	١٤١	الدلائل على وحدانية الله عز وجل
١٦٥	سفه وحماقة	١٤٣	سخافتهم في عبادة الأوثان
	الليل والنهار من مظاهر قدرة الله	١٤٣	الله هو الهادي لا الأوثان
١٦٥	وحدانيته	١٤٤	اعتقاد المشركين مبني على الظن والتخمين
١٦٧	نسبة الذرية لله سفه وجهالة	١٤٥	افتراء المشركين على الرسول ﷺ
١٦٧	قصص ثلاث للعظة والاعتبار	١٤٦	وجه الإعجاز في القرآن
١٦٩	القصة الأولى قصة نوح عليه السلام	١٤٧	عجزهم عن معارضة القرآن
١٦٩	نوح عليه السلام من أولي العزم	١٤٨	الناس أعداء لما جهلوا
١٧٠	الغرض من الآية إظهار العزة بالله	١٤٩	الناس فريقان: مؤمن ومكذب للقرآن
١٧٢	قصة موسى عليه السلام	١٥٠	عمى البصيرة حجبتهم عن الإيمان
١٧٢	صراع بين الحق والباطل	١٥١	ندم المشركين وحسرتهم يوم القيامة
١٧٣	تفصيل لقصة موسى مع فرعون	١٥٣	استحقاقهم للعقاب
	إجمال في موطن وتفصيل في موطن آخر	١٥٣	مهمة الرسول التبليغ والإنذار
١٧٣	آخر	١٥٤	إنكارهم للبعث والنشور
١٧٤	خوف قوم موسى من جيروت فرعون		آيات ثلاث أقسم الله فيها على أمر البعث
١٧٥	اتخاذ البيوت دوراً للعبادة	١٥٥	الاهتمام بموضوع البعث والحكمة منه
١٧٦	دعاء موسى على فرعون بالهلاك	١٥٥	حالة المجرمين التعيسة في الآخرة
١٧٧	بطش فرعون بالمؤمنين	١٥٦	البعث حق كائن لا محالة
	خروج موسى ببني إسرائيل من أرض مصر	١٥٧	القرآن هو الهادي إلى طريق النجاة والسعادة
١٧٧	مصر	١٥٨	جنايتهم في تحريم بعض الأنعام
١٧٨	غرق فرعون وأتباعه في البحر	١٥٩	التحريم والتحليل لا يكون بالأهواء
١٧٩	سؤال وجواب	١٦٠	الله رقيب على أعمال العباد
١٨٠	قذف البحر لجثة فرعون	١٦١	كلام الحافظ ابن كثير في الآية
	تمرد بني إسرائيل بعد نجاتهم من فرعون	١٦١	البشارة للمؤمنين المتقين
١٨١	فرعون	١٦٢	تفسير البشري بالرؤيا الصالحة
١٨٢	تنازعهم واختلافهم في أمر الدين		
١٨٤	الاستمساك بشريعة الله وعدم الشك		
١٨٥	قول آخر في الآية الكريمة		
١٨٥	قصة يونس عليه السلام		
١٨٦	من سنن الله الكونية		

١٨٧	يونس في بطن الحوت	١٩٢	سنة الله في نصر أنبيائه وأوليائه
١٨٨	نجاة قوم يونس من العذاب	١٩٤	دعوة إلى الإيمان وعبادة الرحمن
١٨٩	الحكمة في عدم إجبار الناس على الإيمان	١٩٥	التحذير من عبادة غير الله عز وجل ...
١٩٠	النظر في الآيات الكونية	١٩٦	من صفات الإله الحق
١٩١	وعيد وتهديد للغافلين		الاستمسك بالقرآن العظيم طريق
١٩٢	البشارة بقرب النصر	١٩٧	النجاة
		١٩٨	ختم للسورة رائع

